

إِنْشَارُ الْإِسْلَامِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ

تأليف

دكتور

رَجَبُ مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحِيمِ

معهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

(جميع الحقوق محفوظة للمؤلف)

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين
محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين
الى يوم الدين

كان يحام بها اصحاب هذه الأديان فى الاحاطة بالاسلام من الشرق والغرب
تمهيدا لتسديد الضربة القاضية التى تجهز عليه الى الأبد .

كل ذلك وغيره من القضايا التى صاحبت اسلام المغول والقضايا
الأخرى التى برزت نتيجة لحدوث بعض التناقضات فى تصرفات بعض
سلطينهم والتى لا تتفق مع اسلامهم ، كل ذلك وغيره من مراحل حياتهم
ومظاهرها وخاصة فى العهد الاسلامى ، تناولناه بالدراسة فى ستة فصول .

وقد تحدثنا فى الفصل الأول عن اوجه المنافسة التى قامت بين البوذية
والنصرانية من جانب ، والاسلام من جانب آخر على مستوى الامبراطورية
المغولية والعوامل والسبل التى سلكتها كل من هاتين الديانتين كى تميل بقلوب
المغول وتكسب ودهم وتضعهم فى صدام دموى مع الاسلام والمسلمين، ثم تحدثنا
عن النتائج التى وصلت اليها بالفعل فى هذا المجال وعن فشلها آخر الأمر
فى تحقيق أهدافها كاملة .

وفى الفصل الثانى كان علينا ان نتحدث عن العوامل التى دفعت
بالاسلام كى يحقق النصر فى هذه المعركة الشرسة وكان نصرا مذهلا لدرجة
انه جعل المغول فى الممالك الثلاث يقطعون ما كان يربطهم بالخوانين العظام
الذين كانوا يجلسون على عرش الامبراطورية المغولية كلها بممالكها الأربع
على اعتبار ان هؤلاء الخوانين كانوا وثنيين ولا يصح ان يخضع المغول
المسلمون لوثنين مهما كان شأنهم .

وكانت العلاقة بين الفريقين بدأت فى الفتور منذ عهد منكو خان
(٦٤٩ — ٦٥٨ هـ / ١٢٥١ — ١٢٥٩) ثم تحولت الى صراع بين ممالك المغول
كلها منذ عهد قوبلاى خان (٦٥٨ — ٦٩٣ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٩٤ م) وبدأت هذه
الممالك تسير وكأنها دول مستقلة وبدأت ، الطبقة الحاكمة فى كل منها تندمج
فى السكان من الترك والفرس ، وبدأوا يميلون الى الاسلام دين هذه الأغلبية
التي عاشوا بينها ، فلما اسلموا تأكد هذا الاستقلال وتحول الى امر واقع ،
ولذلك اتى حديثنا منذ ذلك الحين عن هذه الممالك الثلاث كل منها على حدة
على اعتبار انها أصبحت ممالك مستقلة لا تربطها فيما بينها رابطة سياسية ،
ولا تجمع بينها وبين الخوانين العظام فى بلاد الصين والخطا صلة ، وذلك

بداننا الحديث فى الفصل الثالث عن تحول مغول التفجاق الى الاسلام وقسمنا هذا التحول الى مرحلتين :

اولهما مرحلة التمهيد والتهيئة لانتشار الاسلام بين المغول وهى فترة الحكم الونى ، وفيها كان الخوانين بن مسلمين وبوذيين ، قليلهم اعتنق الاسلام ومعظمهم ظل على البوذية او الشامانية ، ثم تأتى المرحلة الثانية وهى مرحلة اكتمال حركة انتشار الاسلام بين المغول ، وفيها تعاقب على الحكم خوانين او سلاطين من المغول المسلمين وظل الأمر كذلك حتى نهاية حكمهم . وفى هذه المرحلة اعتنق المغول الاسلام وانفعلوا به انفعالا قويا ظهر فى سلوكهم ومظاهر حياتهم ، وكان علينا ان نخص هذه المظاهر بحديث نجلو فيه مظاهر الحياة الاسلامية التى برزت فى حياة هؤلاء المغول بعد ان اسلموا وحسن اسلامهم .

وقد اتبعنا نفس المنهج عند حديثنا عن مغول ايران فى الفصل الرابع ، وعند حديثنا عن مغول آسيا الوسطى فى الفصل الخامس ، وراينا كى تكتمل الصورة ان نخصص حديثا قصيرا عن مغول الصين والخطا الذين امتنقوا البوذية ونبين موقفهم من الاسلام ومدى انتشاره بينهم ، وبذلك نكون قد أحطنا بموضوعنا واستكملناه بحثا ودراسة بالنسبة لمغول الامبراطورية المغولية كلها .

ولا شك ان صعابا قابلتنا حينما تصدينا لهذا الحديث وتلك الدراسة ، فالمعلومات عن انتشار الاسلام بين المغول قليلة ومتناثرة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان ، وهى لا تخرج عن كونها اشارات خاطفة فى شكل جملة او عبارة هنا او هناك اثناء الحديث عن تاريخ المغول الذى امسك كثير من كتاب المسلمين ومؤرخيهم عن تدوينه ، واخذ بعضهم الحذر والتزم آخرون الصمت عن تدوين هذا التاريخ ، بغضا لهؤلاء المغول وكراهية لهم . ولما بداوا يكتبون تاريخهم صوروهم فى صورة كريهة تفيض حزنا ومرارة واسندوا اليهم كل نقيصة ، وظلت هذه الصورة تلاحق بعضهم حتى بعد اسلامهم ، وكان علينا ان نتفهم الدوافع التى دفعت بهؤلاء الكتاب كى يلونوا صورة المغول على هذا النحو وان نستشف الحقائق من بين ثنايا كتاباتهم واحيانا من ظلال بعض كلماتهم او عباراتهم الخاطفة . وكان اعتمادنا فى ذلك بالدرجة الاولى على

المصادر المعاصرة للحدث نفسه ، سواء كانت مصادر عربية أم فارسية وتركية معربة . وبعض هذه المصادر شارك أصحابها في صنع الأحداث أو التقوا بمن شاركوا في صنعها ونقلوا عنهم مباشرة ، أو ذهبوا الى مواقع الأحداث ورأوا بأعينهم وسمعوا بأذانهم ووصفوا لنا ما شاهدوه وكتبوا لنا ما سمعوه بأنفسهم .

وطوال تاريخ المغول نجد امامنا مؤرخين من هذا النوع ، ففي فترة ظهور المغول وغزوهم ابلاد المشرق الاسلامي وغيره من البلاد ، نجد امامنا ابن الاثير الذي كان معاصرا لجنكيزخان والذي توفي بعده بست سنوات (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، وابو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبري والذي عاش بعد ذلك بفترة طويلة . وقد احجم ابن الاثير في البداية عن تدوين اخبار هذا الغزو حزنا على الاسلام والمسلمين من جراء ما اصابهم منه ، ثم اخذ بعد ذلك يدون ما وصل اليه من اخبار في دقة وتحيص . اما ابن العبري (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) فقد اعطانا في كتابه « تاريخ مختصر الدول » وصفا مقتضبا لغزوات المغول واخبارهم منذ البداية ، واخذ يستكمل ما فات ابن الاثير حتى وصل في تاريخه الى نهاية عهد السلطان احمد تكودار . ورغم ان كتاباته تعطى للمسيحية في آسيا في عهد المغول حجما اكبر من حجمها الطبيعي ، الا انه كان يستقى معلوماته من مصادر الأحداث مباشرة ، يدل على ذلك ما يقوله احيانا « حدثني المالك حاتم (يقصد هيثوم) ملك الأرمن عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنين من عودته (عام ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) من خدمة مونككا خان (يقصد مانكوخان) ، قال . . . الخ » (١) .

يأتى بعد ذلك مؤرخون يزدون في الأهمية على ابن الاثير وابن العبري ، ذلك انهم كانوا يشاركون في صنع الأحداث ، او على الأقل كانوا يتصلون بمن يصنعونها ، وكانت تحت ايديهم وثائق الدولة ، سواء في بلاد المغول او في مصر والشام ، يغترفون منها ما يشاءون من الأسرار والأخبار . مثال ذلك رشيد الدين فضل الله الهمداني (٦٤٥ — ٧١٨هـ / ١٢٤٧ — ١٣١٩ م) صاحب كتاب جامع التواريخ الذي وضعه بالفارسية . فقد كان هذا الرجل مشاركا في الأحداث بصفته وزيرا لأول ثلاثة من سلاطين مغول ايران

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٦٠ .

المسلمين ، وهم السلطان محمود غازان ، وأخوه السلطان اولجايتو محمد خدابنده ، والسلطان ابو سعيد بن اولجايتو ، علاوة على انه كان يجيّد الفارسية والمغولية والتركية ، فضلا عن أن وثائق الدولة كانت تحت يده ، ولذلك فقد أعطانا هذا الوزير المؤرخ تاريخا دقيقا وموضوعيا الى حد كبير عن الحياة السياسية داخل هذه الدولة منذ عهد جنكيزخان وحتى وفاة محمود غازان عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وأعطانا بعض الأحداث والأسماء والأشعارات التي تخص موضوعنا والتي لا نجدها في مصدر آخر سواه (١) .

وكذلك يأتي في الأهمية ابن الفوطى (٦٤٢ — ٧٢٣هـ/١٢٤٤ — ١٣٢٣م) صاحب كتاب « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة » وقد عاصر هذا المؤرخ فترة تحول المغول في ممالكهم الثلاث الى الاسلام واكمل لنا ما فات رشيد الدين الهمداني ، وكذلك فعل أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٢٩م) في تاريخه ، وابن ابيك الدوادارى في كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » الذي انتهى من تأليفه عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥ م . وكان أبو الفدا ملصكا على حماسة بسوريا ، بالوراثه عن ابيه ، وقد جعله موقعه هذا على صلة بالصراع الذي كان ناشبة بين المغول والاسلام ، كما كان ابن ابيك ينتمى هو الآخر لأسرة شاركت في الأحداث ، فقد كان جده أميرا مملوكيا يحكم صرخد ، وكان أبوه مهمندارا (٣) . في دمشق وكان ينقل عن ابيه وعن كان يتصل بهم بحكم وظيفته من رسل المغول او رسل سلاطين المماليك المترددين بين القاهرة وعواصم المغول في ايران وبلاد القفجاق ، ولذلك كان كثيرا ما يقول : « حدثني الملك الكامل ... قال ... » (٤) ، « قال الشيخ عمر للوالد وأنا اسمع ... » (٥) ، « كان الأمير

(٢) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٥ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٦ .

(٣) المهمندار هو الشخص الذي يتلقى الرسل الواردين على السلطان. وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث في القيام بأمرهم . أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٢ ، سعيد عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ، ص ٤٥٦ .

(٤) ابن ابيك الدوادارى : كنز الدرر ، ص ٩ ص ١٤٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٩ ج ١٥٣ .

حسام الدين ازدهر المجيرى . . عند التتار حتى هلك غازان وتملك خدا بندا ، وعاد وحضر عنده فى داره الوالد رحمه الله وأنا معه اسمع » (٦) . وكان ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧ م) أيضا من اسرة كانت تعمل فى ديوان الرسائل لسلاطين المماليك ولذلك كان هذا المؤرخ ينقل مباشرة عن وثائق الدولة الرسمية وعن المشاركين فى صنع الأحداث .

وهناك غير هؤلاء من الذين لم ينقلوا عن احد بل ذهبوا الى مواقع الاحداث نفسها ورأوا بأعينهم وسمعوا بأذانهم ووصفوا ما رآه ودونوا ما سمعوه فى كتب تعتبر وثائق تاريخية نادرة . مثال ذلك الرحالة العربى ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧ م) فقد ذهب هذا الرحالة العظيم الى بلاد المغول بنفسه عام ٧٢٦هـ / ١٣٣٦ م وانتقل من بلد لآخر ومن مملكة لآخرى حتى طاف بممالك المغول الأربعة ، ووصف لنا حياة المغول فيها واشار الى مظاهر الحياة الاسلامية التى كانت تغمر بلادهم وحياتهم ، واعطانا اوصافا دقيقة لسلوكياتهم وحسن اسلامهم وحرصهم على اداء شعائر دينهم مما لا نكاد نجده فى مصدر آخر .

واذا كان ابن بطوطة قد اعطانا هذه الصورة لممالك المغول فى عهد الجنكيزخانيين فان كاتبنا آخر اعطانا وصفا لهذه الممالك فى عهد التيموريين ، الا وهو شهاب الدين احمد بن محمد الدمشقى الأنصارى المعروف بعرب شاه (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠ م) صاحب كتاب « عجائب المقدور فى اخبار تيمور » . ويكتابه يعتبر هو الآخر وثيقة تاريخية نادرة ، ذلك ان كاتبه رحل الى بلاد القفجاق واقام بها مدة كبيرة من الزمن ، وتعلم هناك على ايدى علمائهم المساهمين ووصف لنا بعض مظاهر الحياة الاسلامية فى الدولة وفى العاصمة سراى وصفا شيقا ممتعا دقيقا يدل على ازدهار كبير فى تاريخ الاسلام فى هذه البلاد (٧) .

وقد استعنا فى هذه الدراسة ايضا بعدد من المخطوطات القيمة التى اعطينا تاريخ المغول مؤرخا حسب السنين ضمن تاريخ الدولة الاسلامية ، ولا

(٦) المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٧) الرمزي : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وبلوك التتار ، ج ١ ، ص ٤١١ حاشية (١) ، ج ٢ ص ٤٩ .

يخفى على القارئ ان اصحاب هذه المخطوطات وكلهم مشهورون مثل النويرى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٢٩ م) صاحب مخطوطة نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م) صاحب مخطوطة « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » والعينى (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥٠ م) صاحب مخطوطة « عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان » ، فقد اعطونا تاريخ المغول على اعتبار ان ممالكهم داخلية ضمن نطاق العالم الاسلامى ، وهو شئ له مغزاه ، لا سيما وان النويرى والعمري كانا معاصرين للعصر المغولى الاسلامى فى بلاد المشرق الاسلامى ، مما يعطى لكتابتهم اهمية كبيرة . وكان العمري بالذات يتولى وظيفة كاتب السر نيفا وثلاثين سنة لأحد عشر سلطانا من بنى قلاوون ، فجمعت كتاباته دقيقة موثقة ، اذ كان يستقيها من وثائق الدولة مباشرة او من الرسل والتجار الذين كان يلتقى بهم (٨) .

وقد استعنا أيضا بعدد من المصادر الفارسية والتركية المعربة وهى لا تقل شأنًا عن المصادر العربية ، وهناك العديد من المراجع العربية الحديثة التى تناولت تاريخ المغول فى زاوية من زواياه ، ولكنها لم تهتم بالزاوية التى نعنيها فى هذا الحديث فيما عدا دراسة وحيدة يتيمة قام بها الدكتور مصطفى بدر بعنوان « مغول ايران بين المسيحية والاسلام » ولكنها دراسة لا تتحدث عن العوامل التى دفعت بمغول ايران الى التحول الى الاسلام ، ولا تتحدث أيضا بصورة مكتملة عن مظاهر الحياة الاسلامية التى اقترن بها هذا التحول او نتجت عنه ، فضلا عن انها لم تشر ولو بحرف واحد عن تحول مغول بلاد القفقاس أو مغول آسيا الوسطى الى الاسلام ، لأنها دراسة كانت قاصرة فقط على مغول ايران ، وتحدث المؤلف فى جزء كبير منها (فى ٥٠ صفحة من ١٢٥ صفحة) هى كل صفحات الكتاب) عن الحروب التى قامت بين هؤلاء المغول وبين سلاطين المماليك .

وقد اعتمدنا أيضا على بعض المراجع الأجنبية ، ولكنها تناولت هى الأخرى تاريخ المغول بشكل عام ولم يكن يعنىها موضوع انتشار الاسلام بين

(٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٠٢ .

المغول بقدر ما كان يعنيها الحديث عن ضرب هؤلاء المغول للإسلام وتحطيم
ميلاده وممالكه ، وان كنا قد وجدنا فيها بعض الأحداث التي استمدوها من
مراجع لا نجدها بين أيدينا وندين لهم بها . وهناك غير هذه المصادر والمراجع
التي اشرنا اليها في هذه العجالة الكثير مما أثبتناه في قائمة المصادر والمراجع
الملحقة بهذا الكتاب .

وبعد ، أرجو ان اكون قد وفتت فيما ذهبت اليه في هذه الدراسة التي
أود ان تسد فراغا في مكتبة التاريخ الاسلامي ، ولا ادعى الكمال فيما قمت
به من عمل أو فيما اتيت به في هذا الكتاب لتحقيق هذا الهدف ، فالكمال لله
وحده ، واذا كان هناك من توفيق أو سداد فمن الله ، عليه توكلت واليه
أنيب .

رجب محمد عبد الحليم

تمهيد تاريخي

المغول وغزوهم ابلاد المشرق الاسلامي

يرتبط اسم المغول أو التتار في التاريخ الاسلامي بذكرى نكبة هائلة حلت بالاسلام والمسلمين على يد هذا الشعب الوثني عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، عندما استولت قواته على بغداد في ذلك العام واستقطبت الخلافة العباسية وضعت معظم بلاد المشرق الاسلامي في يد حكام من المغول لا يعرفون تضامرة ولا رقيا اجتماعيا مثلما كان موجودا في العالم الاسلامي وقتذاك . قد ساعد على ذلك كله ظروف سياسية واقتصادية سيئة المت بالعالم الاسلامي منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد ، عندما عرض لتلك الهجمة الأوربية الصليبية الشرسة التي اتته من ناحية الغرب نجحت في احتلال بلاد الشام واقامت عدة امارات صليبية هناك ، وقصفت سرق العالم الاسلامي عن مغربه واستنزفت قواه الاقتصادية لمدة قرنين من زمان . يضاف الى ذلك أن العالم الاسلامي كان يمر في النصف الأول من لقرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد وقبيل سقوط الخلافة العباسية محنة الانقسام والتفكك السياسي وقيام العداء والصراع بين معظم دوله ممالكه وحكامه ، مما هيأ الفرصة تماما لهؤلاء المغول الذين وفدوا من المشرق بتماموا بذلك الغزو العاصف والمدمر لمشرق العالم الاسلامي وعصفوا الاسلام والمسلمين .

فيا ترى من هم هؤلاء المغول ؟ ومن أين اتوا ؟ وكيف نجحوا في غزو بلاد المشرق الاسلامي وغيره من بلاد آسيا وشرق أوروبا ؟ ولن نتوسع في الاجابة على هذه التساؤلات ، فكتب الأقدمين والمحدثين مليئة بكثير ن التفصيلات والحقائق والأحداث التي تفسر هذا الموضوع ، ولكننا فقط نسير اليها في ايجاز لعله يكون مفيدا في التقديم لموضوعنا الأصلي وهو انتشار الاسلام بين المغول .

وفي هذا الصدد نشير الى أن المغول اساسا طائفة من التتار ، للتتار شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه تتفرق معظم بطونها وانحازها ،

وهو مرادف للترك عند الأفرنج حتى أنهم يعدون قبائل الأتراك كافة مثل العثمانيين والتركمان وقرمان وغيرهم تترا . ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون أن أحد ملوك الترك في الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمين هما تاتارخان ومفل خان نحو ربيعة ومضر بالنسبة لعرب الشمال أو نحو قحطان وعدنان بالنسبة للعرب قاطبة .

وعلى ذلك فالمغول والتتار والترك أصلا من جنس واحد هو جنس الترك الذى انشعب الى شعوب كثيرة وقبائل شتى ، واشتهر من بينهم في عصور عديدة قبائل وشعوب بعينها مثل السلاجقة والخوارزمية والتتار والمغول والقفجاق والخزر والأويغور والآفار وكيراييت ونايمان والمجر والبلغار والقرغيز الى غير ذلك من القبائل والشعوب التى عد كل واحد منها قوما مستقلا بذاته حتى وقعت الشبهة في كونهم من الترك واحتيج في اثبات ذلك الى البحث والتنقيب . وكان مصدر هذه الشبهة هو أن هذا الانتشار الواسع الذى جعل عنصر الترك يصبح اغلبيّة في النصف الشمالى من قارة آسيا جعل بين الاقوام التركية بعض التفاوت والاختلاف الحضارى . وعلى سبيل المثال كان هناك تفاوت واختلاف حضارى بين المغول — وهم محور حديثنا — وبين أتراك اواسط آسيا ، وذلك بسبب اختلاف الظروف البيئية والثقافية التى عاش فيها كل منهما (١) . فبينما استقر هؤلاء الترك في اواسط

(١) يشير كثير من المؤرخين القدامى المحدثين الى الأصل المشترك للمغول والترك ، والى تداخل اللغتين التركية والمغولية والى أن ثلاثة أرباع الألفاظ في اللغتين واحدة عموما ، وأن اللسان المغولى هو أحد السنة التركى ، وأن المغول والترك يشتركون في طبائع وسجايا متشابهة في كل منهما تشابهها بينا ، ويختلفون في بعض العادات والتقاليد بسبب بداءة المغول ، حتى سماهم البعض بأنهم أعراب الترك . ولمعرفة المزيد عن هذا الموضوع ، انظر :

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣٦١ ، رشيد الدين الهمداني جامع التواريخ ، المجلد الثانى ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ص ٢٢٨ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣٦٦ ،

آسيا وعلى حدود العالم الاسلامى من الشمال الشرقى واحتك الكثيرون منهم بالاسلام والمسلمين نتيجة للجوار ونتيجة لغزو بعض بلادهم ايام بنى أمية وبنى العباس ، ونتيجة لاستخدامهم فى الجيش العباسى حتى استولوا فى النهاية على السلطة فى بغداد فيما يعرف بالعصر العباسى الثانى وذلك بعد أن اسلموا وحسن اسلامهم ، نرى اخوانهم من المغول على النقيض من ذلك تماما، فخذنشاوا بعيدا فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبى ، وهى تمتد فى اواسط آسيا جنوبى سيبيريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان بين جبال التاى غربا وجبال ختجان شرقا ، وهى منطقة جدداء موحشة عاش فيها المغول عيشة بؤس ، لا يظفرون باهتمام أحد من جيرانهم ، حتى ان اسمهم ظل غير معروف قرونا طويلة ، بينما كان ذوو قرباهم من الاتراك يتحكمون فى بلاد آسيا الغربية أى فى بلاد المشرق الاسلامى (٢) .

وقد ظهر اسم المغول أو التتار بشكل قوى وملفت للنظر منذ بداية القرن السابع الهجرى/الثالث عشر لليلاد عندما استطاع احد زعمائهم المسمى (تيموجين) أن يوحد منغوليا وينتصر على قبيلة كرايت المغولية

العينى : عقد الجمان ، ج ٢٢ ورقة ١٢٩ ، ١٣٠ ، الديار بكرى : الخميس فى احوال انفس نفيس ، ج ٢ ص ٢٦٨ ، مجهول : كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٣١ ، محمد الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) ص ٤٦٧ ، يارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٥٢ ، ١٦٣ ، ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، ج ٤ ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٦١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، الرمضى : تلفيق الاخبار وتلقيح الاثار ، ج ١ ص ٢٢ ، ٢٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ .

(٢) الصياد (مؤاد عبد المعطى) المغول فى التاريخ : ، ج ١ ص ٣١،٣٠

ستودارد : نفس المرجع ، ج ٤ ص ١٧٣ .

فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦١ .

Saunders : The history of the Mongol Conquests, p. 9.

المسيحية عام ٦٠٤هـ/١٢٠٦م وعلى بعض خوانين الصين المعادين له ويوحد المغول تحت لوائه ويتلقب بلقب جنكيزخان أى الملك الأعظم أو شاهنشاه أو ملك الملوك ، ويزحف على شمال الصين عام ٦١٢هـ/١٢١٥م ويستولى عليه ويتخذ من مدينة قراتورم عاصمة له ، ويصدر اليساق (٣) أو الياسة التى كانت كتاب المغول ودستورهم ، اليه يرجعون فى احكامهم وفى تنظيم مجتمعهم ، وكان عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يحلون لأنفسهم ان يخرجوا عن نصوصه ، ومن فعل ذلك من الحكام كان نصيبه العزل والخلع حتى ولو كان الخان الأعظم (٤) .

وبعد أن نظم جنكيزخان دولته الواسعة والزم حكامها باتباع اليساق وتنفيذ احكامه ، اتجه بعد ذلك بعامين غربا الى آسيا الوسطى . وكانت آسيا الوسطى فى ذلك الوقت تمثل بوابة العالم الاسلامى من الشمال الشرقى ،

(٣) اليساق أو اليسق اصله سى يسا ، وهو لفظ مركب من كلمتين : (سى) بمعنى ثلاثة بالفارسي ، و (يسا) بمعنى الترتيب بالمغولى . وعلى ذلك فمعنى كلمة اليساق هو الترتيب الثلاثة ، وسبب ذلك فيما يقوله ابو المحاسن ابن تغرى بردى ان جنكيز خان كان قسم ممالكه فى اولاده الثلاثة واوصاهم بوصايا لم يخرجوا عنها مع كثرتهم واختلاف اديانهم ، فصاروا يقولون سى (يسا) ثم حرفوها الى (يسق) .

انظر ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٣ .
ولعرفة المزيد عما جاء باليساق من أوامر ونواهي ، انظر ، القلقشندي ج ٤ ص ٣١١ ، محمد الخضرى : نفس المرجع ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
ابو الفدا : تاريخه ، ج ٣ ص ١٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٨ .

بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٥٤ ، الصياد : نفس المرجع ، ص ٥٣ .
٥٤ ، الرمزي : ج ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلبية . آسيا ص ٥٩ — ٦٣ .

ولم يكن يحجز بين جنكيزخان وبين اقتحام تلك البوابة الا دولة القراخانيين (٥) وكانت هذه الدولة قد زالت قبل ذلك ببضع سنوات على يد النايهان المغولية المعادية لها والتي هاجمتها من ناحية الشرق ، وعلى يد خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكتش الذي هاجمها من ناحية الغرب وانتصر عليها وأسر سلطانها عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ، وفتحها وتبدد شعب القرا خطاي ولم يبق منه الا من اعتصم بالجبال او استسلم وانضم الى جيش خوارزم شاه . وبذلك فتح الباب على مصراعيه امام تدفق المغول الى بلاد الاسلام بعد ان استطاع جنكيزخان ان يدحر قبائل النايهان وان يستولى على بلادها عام ٦١٥هـ/١٢١٨م ، وأصبحت جيوشه تطل على بلاد ما وراء النهر وخوارزم (٦) .

(٥) القرا خطاي قوم من المغول الترك ، اقاموا دولة قوية في بداية القرن العاشر للميلاد في منشوريا وشمال الصين (بلاد الخطا) ، ولما انقضى عهد هذه الدولة في تلك البقاع ، ذهب الفارون من فلولها واقاموا بين الصين وتركستان ، واتخذهم ملوك الأويغور في تركستان حماة لحدودهم مع الصين نظير جرايات واقطاعات ، ولما ساءت العلاقات بين هؤلاء القرا خطاي وبين ملوك تركستان المسلمين ، زحف القراخطاي على بلادهم وقضوا على الدولة الخاقانية (الأويغورية) عام ٥٣٦هـ/١١٤١م واستولوا على كاشغروختن ، ثم زحفوا على بلاد ما وراء النهر واستولوا عليها من يد السلاجقة ، وامتدت دولتهم من بلاد القرغيز شمالا الى مدينة بلخ جنوبا ، ومن خوارزم غربا الى صحراء جوبي شرقا . وكان هؤلاء القراخطايون غير مسلمين ، ولذلك لم يكن التعاون بينهم وبين الرعية المسلمة في تركستان قائما ، مما سهل من القضاء على دولتهم .

- انظر : ابن خلدون العبر ، ج ٥ ص ١٣٧ — ١٤١ ، ١٩٢ .
الناقشندی : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٤٧ .
بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص ٥٦ .
عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلب آسيا ، ص ٥٨ — ٦٠ .
(٦) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
ابن العبري : نفس المصدر ص ٣٩٨ ، أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٣ ص ١١٦ .
العبري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٤٤٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٣٧ — ١٤١ .
الديار بكري : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٧ .
مجهول : كتاب في التاريخ ، ورقة ٣٣٠ ، بارتولد ، نفس المرجع ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
Saunders : op. cit., p. 55.

وفى فترة قصيرة اكتسحت جيوش جنكيزخان تلك البلاد وقضت على دولة خوارزم العظيمة نتيجة لهذا الخطأ الذى ارتكبه سلطانها ، بالإضافة الى عدة أخطاء أخرى أدت الى استيلاء جنكيزخان على بلاده . فبالإضافة الى انه شارك نى القضاء على دولة القرا خطاي التى كانت حاجزا بينه وبين جنكيزخان الذى أصبحت جيوشه تجاور بلاده وتهدها ، فقد أمر خوارزم شاه كثيرا من سكان بلاد ما وراء النهر المجاورين لبلاد الخطا وخاصة سكان فرغانة والشاش وأسبيجاب بالجلء عنها والرحيل الى بخارى وسمرقند خوفا عليهم من التتار (٧) . وبذلك أخلى هذا السلطان الأرض من سكانها الذين كان يمكن ان يدافعوا عنها اذا ما تعرضت لهجوم جنكيزخان ، وبإلته اكتفى بذلك بل أمر ايضا بتخريب البلاد التى جلى عنها سكانها خوفا من ان يملكها المغول ويهددوه منها ويستفيدوا من امكانياتها (٨) ، فانعدمت المقاومة للمغول تقريبا عندما اكتسحوا تلك البلاد .

وقد أخطأ هذا السلطان ايضا عندما أمر حاكم مدينة اترار — وهى احد ثغور خوارزم على ساحل نهر سيحون الذى يسمى الان سرداريا بقتل أربعمائة من التجار الذين كان جنكيزخان قد ارسلهم الى تركستان وما وراء النهر . وكان هذا الخان قد ارسل قبل ذلك الى خوارزم شاه فى عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م يطلب مسالته ، فاستجاب له الشاه ، فأرسل جنكيزخان هؤلاء التجار الى بلاد ما وراء النهر يحملون الأقمشة الحريرية وغيرها ، فتعرض لهم حاكم اترار وطمع فى اموالهم وارسل الى خوارزم شاه يخبره بأن جواسيس جنكيزخان قدموا اليه فى زى تجار ، فأمره بقتلهم ومصادرة اموالهم ، فغضب جنكيز خان وارسل يهدد الشاه ويطلب منه تسليم هذا الحاكم ، فأمر الشاه

(٧) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٣٩٨ ، ابن خلدون ، ج ٥ ص ١١٠٢ .

الديار بكرى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

مخطوط كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٣٠ .

(٨) المصادر السابقة ونفس الصفحات .

بقتل النرسل ايضا . وقد ادى هذا العمل الى ازدياد غضب جنكيزخان واعطاه مبررا لغزو بلاد ما وراء النهر وخوارزم فى العام التالى (٩) .

ومن الملفت للنظر ما يقوله بعض المؤرخين من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ — ١٢٢٥ م) هو السذى كاتب التتار وأطعمهم فى البلاد بسبب ما كان بينه وبين سلطان خوارزم علاء الدين محمد بن تكتش من عدااء ، وذلك كى يشغله عن القيام بغزو بغداد وبلاد العراق ، وهى البلاد التى كانت باقية فى حوزة الخليفة فى ذلك الحين (١٠) . وكان علاء الدين محمد قد عقد مجلسا من الفقهاء والعلماء واستصدر منهم هتوى بخلع هذا الخليفة العباسى ، وأسقط اسمه من الخطبة فى بلاده فعلا منذ عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧م واتجه الى بغداد يريد غزوها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب كثرة الثلوج وسوء الاحوال الجوية التى تعرضت لها جيوشه فى ذلك الحين (١١) .

وقد ادى الصراع والعداء الذى قام بين الخلافة العباسية وبين سلطنة خوارزم الى اضعاف كل منهما امام ضغط المغول المتزايد بعد احتلالهم

-
- (٩) ابن العبرى : نفس المصدر ص ٤٠٠ — ٤٣ .
ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٤ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ، ١١٠٤ .
الديار بكرى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٨ ، مخطوط كتاب فى التاريخ ورقة ٣٣٠ — ٣٣٧ .
فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٥٨ ، براون : نفس المرجع ، ص ٦٥٦ — ٥٦٠ .
الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .
(١٠) ابن ابيك الدوادارى : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٢١٧ .
أبو الفدا : تاريخه ، ج ٣ ص ١٤٣ ، العمرى : مسالك الابصار ج ١٦ ق ٣ ورقة ٤٨٥ .

- (١١) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ج ٧ ص ١٨٨ — ١٩٠ .
ابن الوردى : تاريخه ، ج ٢ ص ١٢٤ ، ابن خلدون : تاريخه ج ٥ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، على حسنى الخربوطلى : غروب شمس الخلافة ، ص ١٣٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٤٩ .

لببلاد القرا خطا وتركستان ، لأن كلا منهما واجهت المغول منفردة . وقد دعم هذه الفرقة وزاد من هذا التناحر السياسى ما قسام به الاسماعيلية او الباطنية (١٢) من صراع مع الخلافة . وكان هذا الفريق المتطرف المبالغى من الشيعة قد سكن شمالي ايران واتخذ من قلعة الموت حصنا منيعا يفرض منه ارهابه وعدوانه على بلاد الخلافة العباسية وعلى الخلفاء وسللاطين الترك السلاجقة والخوارزمية الذين تم قتل بعضهم على ايدى هؤلاء الباطنية (١٣) .

ويفيدنا بعض المؤرخين بأن هؤلاء الشيعة اتصلوا سرا بالمغول الذين كانوا قد غزوا بلاد ما وراء النهر وخوارزم وأطمعوههم وبينوا لهم ضعف الخلافة العباسية ضعف السلطان جلال الدين منكبرتى (٦١٧ — ٦٢٨ هـ / ١٢١٩ — ١٢٣١) الذى كان قد خلف أباه علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧ هـ / ١٢١٩ م) ، وهزم على يد صاحب الشام وصاحب الروم السلاجقة عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ، وكان هؤلاء الباطنية يرون فى غزو المغول لبغداد تحقيقا لآلهم فى القضاء على الخلافة العباسية السنية وعلى اهل السنة بوجه عام ، بنى العباس فى بغداد ، والى ما قام به من دور فى تسهيل غزو المغول لبغداد . وكان هذا الوزير شيعيا ويرى نقل الخلافة الى العلويين ، فكاتب فيخلو الجو للشيعة وللباطنية منهم بوجه خاص (١٤) ، ولذلك كان هؤلاء

(١٢) سمووا بالاسماعيلية لانتساب دعوتهم لاسماعيل بن جعفر الصادق ، وسموا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون دعوتهم ويدعون لها سرا ، كما سموا بالملاحدة لأن مغالاتهم وصلت بهم الى الالحاد ، وسموا بالفداوية لأنهم كانوا يأخذون فدية أنفسهم نظير من يسلطون عليه ويقتلونه وقد يقتلون به فى غالب الأحيان ، انظر ابن خلدون : ج ٥ ص ٥٤ .

(١٣) ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١١٧ .
ابن خلدون ، ج ٥ ص ١٠٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٧٨ ، ٣٢٦ .

محمد الخضرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٤ — ٤٤٠ ، ٥٠٣ .
(١٤) ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ١١١٤ ويشير ابن خلدون أيضا الى ان الباطنية كانوا يتصلون من قبل بالصليبيين فى بلاد الشام ويساعدونهم ضد صلاح الدين الايوبى الذى كان قد قضى على الخلافة الفاطمية الشيعية ، ويشير أيضا الى ان بعض الحكام المسلمين كانوا يستأجرونهم لقتل خصومهم السياسيين سواء كانوا من المسلمين ام من اعداء الاسلام . انظر ، ابن خلدون : تاريخه ج ٥ ص ٣٢٩ ، ٦٣٩ ، ٦٨٥ ، ٧١٣ ، ٨٦٧ ، ميور : نفس المرجع ص ٥٠ .

الباطنية» من أكبر العون على المسلمين لما قدم القطار الى تلك البلاد . وكانوا
اضر على الناس منهم «(١٥) .

وفى هذا الصدد تجدر الاشارة أيضا الى الوزير مؤيد الدين محمد بن
العلقمى ، وزير المستعصم (٦٤٠ — ٦٥٦ هـ / ١٢٤٢ — ١٢٥٨ م) آخر خلفاء
بنى العباس فى بغداد ، والى ما قام به من دور فى تسهيل غزو المغول
ابغداد . وكان هذا الوزير شيعيا ويرى نقل الخلافة الى العلويين ، فكتب
المغول وزين لهم فتح بغداد وأطمعهم فى امتلاك البلاد وخذع الخليفة وما زال
به حتى جعله يسرح عددا كبيرا من جنده بحجة توفير رواتبهم ودفع قدر منها
للمغول وقاية من غزوهم لبغداد ، مستغلا فى ذلك حب ذلك الخليفة للمال
واكتنازه ، وأرسل فى نفس الوقت الى المغول يستحثهم على الزحف الى بلاد
العراق ، فساروا حتى وصلوا الى بغداد وحاصروها ، واستكمل الوزير
خدعته فزين للخليفة الخروج الى معسكر هولاكو حفيد جنكيزخان ليبقى على
حياته وليبقيه فى منصبه كخليفة كما أبقى على سلاجقة الروم وغيرهم من
الملوك الذين القوا اليه يد التسليم والطاعة (١٦) .

وقد أدت كل هذه العوامل وغيرها من العوامل الأخرى التى تكمن فى
شخصية جنكيزخان الطموحة (١٧) والى رغبته ورغبة اولاده من بعده فى
الاستيلاء على هذه البلاد الغنية الوفيرة الموارد الزاهرة بالوان الحضارة
والامكانيات المختلفة التى أدت بأهلها « الى الاستغراق فى التمتع والتشاغل فى
اللذات والاسترسال فى الترف » (١٨) والمظاهر الأخرى التى لم يرها المغول

-
- (١٥) ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١١٧ .
(١٦) ابن العبرى : نفس المصدر ص ٤٣٥ ، رشيد الدين الهمداني ،
ج ٢ ص ١ ، ٢٦٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، أبو الفدا : تاريخه ، ج ٣ .
العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ . ورقة ٥٧٧ ، ابن كثير ، ج ١٣ :
ص ١٩٦ .
العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٢٩ ، ابن خلدون : تاريخه
ج ٥ ص ١١٤٩ .

- المقريزى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٠ .
أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٤٧ — ٥٠ .
الديار بكري : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
(١٧) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨١ .
(١٨) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ ص ٨٠٢ .

ولم يعرفوها قى بلادهم القاحلة الى غزوهم لبلاد ما وراء النهر وخوارزم عام ٦١٦ هـ/١٢١٩م وما تلاها بعد ذلك من بلاد الاسلام فى ايران وآسيا الصغرى وبلاد القفقاق والبلغار حتى وصلوا اخيرا الى بغداد بقيادة هولاكو بن طولى ابن جنكيزخان عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م وقتلوا الخليفة المستعصم وأزالوا الخلافة العباسية وزحفوا بعد ذلك الى بلاد الشام وحاولوا التوغل جنوبا مهددين مصر . ولكن جيوش المماليك فى مصر أوقفت هذا الزحف الكاسح وردت هذا الغزو المدمر عندما هزمتهم فى موقعة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م (١٩) .

وقد نتج عن هذا الزحف الكاسح الى قام به المغول والذي انتهى على هذه الصورة نتائج ثلاث : أولاها الخراب والدمار لمعظم المدن والأقاليم التى مرت بها جيوش جنكيزخان وأولاده من بعده ، وثانيها قيام امبراطورية مغولية ضخمة شملت معظم انحاء آسيا تم توزيعها على أبنائه ، وثالثها قيام الصراع

(١٩) لمعرفة المزيد عن غزو المغول لبلدان آسيا وشرقى أوربا ، انظر :

- ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٣١٨ ، ٣٥٩ — ٣٩٩ .
- أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩٨ .
- ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٠٧ — ٤١٢ ، ٤٨٢ — ٤٩٠ .
- رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ، ٣١٠ — ٣٣٠ .
- أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ .
- ابن الوردي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٩٥ — ٢٠٢ .

- ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ — ٨٩ .
- ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٤ ، ٢٤٥ .
- ابن خلدون : نفس المصدر ، ص ٧٩٥ ، ١١٠٦ — ١١١٧ ، ١١٢٥ — ١١٢٦ ، ١١٤٨ — ١١٥٤ .
- الديار بكري : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ — ٣٧٩ .
- الصياد : نفس المرجع ، ص ١١١ — ١٣٨ ، ٢٦٤ ، ٣٠٨ .
- براون : نفس المرجع ، ص ٥٥٢ — ٥٦٠ ، ٥٧٦ — ٥٨٩ .
- فامبرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٤ — ١٧٦ .

بين الأديان التي احتوت عليها هذه الامبراطورية ، وهى البوذية والمسيحية والاسلام ، نحو اكتساب هؤلاء السادة الجدد الى احدى هذه الديانات .

وبخصوص النتيجة الاولى فقد ضرب المغول كثيرا من البلاد والمدن وابادوا ثلوثا مؤلفة من سكانها ، واسترقوا اعدادا هائلة من نساءها واطفالها ورجلها واسروا اعدادا كبيرة من جنودها اجبروهم على الالتحاق بجيوشهم ، واجبروا الوفا كثيرة من الحرفيين والصناع والزراع على الرحيل الى عواصم بلادهم هى بلاد الصين والخطا مثل خان باليق وقراقورم حتى يزينوا حدائقها وينعشوا صناعاتها ويخدموا أهلها (٢٠) .

وقد أصاب المسلمين من الفزع والهول ما جعل احد المؤرخين المشهورين وهو ابن الأثير يتردد فى وصف احداث ذلك الغزو نظرا لبشاعتها واغراقها فى القسوة والوحشية حتى انه يقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعطافا لها كارها لذكرها فأنا اقدم اليه رجلا وأؤخر اخرى ، فمن الذى يسهل عليه ان يكتب نعمى الاسلام والمسلمين ؟ » ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت امى لم تلدنى ، ويا (ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) (٢١) الى ان حثنى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت ان ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الان لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان القوارىخ لم تتضمن ما يتابلها ولا ما يدانيها . ومن اعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر بنى اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس . وما البيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاحين من البلاد التى كل مدينة منها اضعاف البيت المقدس ؟ وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ؟ فان اهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة (٢٢)

(٢٠) المصادر السابقة .

(٢١) القرآن الكريم ، سورة مريم ، آية ٢٣ .

(٢٢) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

وهذا الوصف المحزن الذى جاء عند ابن الأثير لم يكن الا لما سمع به فقط عن غزو المغول لبلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان ، ولم يعش هذا المؤرخ كى يرى غزوهم لبقية بلاد المشرق الاسلامى وعلى رأسها بغداد عاصمة الخلافة وقلب العالم الاسلامى وقتذاك وفى الغالب فانه لم يكن ليكتب لنا شيئا لأنه لن يجد من الكلمات ما يعبر به عن هذا المصاب الفادح والكارثة العظمى التى المت بالاسلام والمسلمين والخلافة . وأغلب الظن انه كان سيلقى حتفه هما وكمدا وحزنا من هول ما حدث منذ ظهور جنكيز خان وحتى غزو بغداد .

وعلى سبيل المثال فقد انتقم جنكيزخان من مدينة اترار فدمرها تدميرا وقتل سكانها من الرجال وسبى النساء والذرية ، وتعرضت مدينة بخارى الزاهرة بلد الامام العالم محمد بن اسماعيل البخارى أشهر من جمع احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنفس المصير ، فقد غزاها جنكيزخان عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م وقتل عشرين ألفا من سكانها ثم احرقها ، وضرب كذلك مدن سمرقند وترمذ وبلخ واصفهان والطالقان وباميان التى قتل أهلها وهدم كل منازلها ، كما قتل من اهل مدينة قزوین اربعين ألفا (٢٣) . ولما تمكن هولاء من بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م اباحها لجنوده اربعين يوما فعلوا بأهلها الاهوال ، وأخيرا اشعل فيها النار وهدم مساجدها والقى بالكتب فى نهر دجلة وضرب الدور وهدم القصور ووضع السيف فى رقاب أهلها ورقاب اهل العراق حتى بلغ من قتل منهم اربعة وعشرين ألفا من رجال العلم فقط ، ناهيك بغيرهم من العامة والجند الذين بلغوا قرابة المليونين على رأسهم الخليفة نفسه واولاده واهل بيته . وقد اصاب مدن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام مثل حلب ودمشق وغيرهما مثلما اصاب بغداد ، فكان مصاب الاسلام فادحا ورهيبا (٢٤) .

(٢٣) ابن العبري : نفس المصدر ، ص ٤٠٧ — ٤١٢ .
(٢٤) ابن العبري : نفس المصدر ، ص ٤٨٢ — ٤٩٠ ، ابن بطوطة
س ٢٤٤ — ٢٤٥ .
ابن الوردي : تاريخه ، ج ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٩٩
— ٢٠٢ .
المقريزي : السلوك : ج ١ ق ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠ — ٥٤ .
الديار بكري : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٧١ ، الخربوطلى : نفس
المرجع ١٣٧ ، ١٣٨ .

أما النتيجة الثانية التي نتجت عن غزوات جنكيزخان وأولاده من بعده
على قارة آسيا وأوروبا الشرقية فهي ظهور إمبراطورية مغولية امتدت شرقا إلى
الصين ومنشوريا وغربا إلى بلاد الشام والبحر المتوسط وحتى نهر الدانوب
وشمالا إلى بلاد الروس والبلغار وحتى نهاية العمورة التي تنحدر إلى بحر
الشمال ، وجنوبا إلى بلاد السند والهند ، وبذلك ضمت هذه الإمبراطورية
الواسعة أمما وشعوبا وبلادا كثيرة مثل تركستان وما وراء النهر وخوارزم
وغزنة وإيران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد القفجاق والبلغار والروس .
وقد انقسمت هذه الإمبراطورية بين أبناء جنكيزخان الأربعة : جوجى وجفطاي
وتولى وأوكداى إلى أربعة أقسام أو أربعة ممالك كبرى (٢٥) . فاختص جوجى
ببلاد القفجاق وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والقرم وبلاد الروس
والجركس وما يفتح بعد ذلك غربا ، وقد أطلق على مغول هذه البلاد اسم
مغول القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى ، وكان
غالب سكانها ينتمون إلى الأتراك والتركمان ، وكانت حدودها تمتد من إيرتش
شرقا إلى أرض البلغار غربا ، ومن القرم وآسيا الصغرى والعراق وإيران
جنوبا إلى بلاد روسيا ونهاية المعمورة شمالا ، وكانت عاصمة هذه المملكة
الواسعة والتي كانت تسمى أيضا باسم المملكة الشمالية مدينة سراى Serai
وكانت تقع على الضفة الشرقية لنهر (الفلجا) الذى كان يسمى بنهر اتل (٢٦)

وكان من نصيب طولى (تولى) بن جنكيزخان بلاد إيران وأرمينيا وآسيا
الصغرى وما يفتح بعد ذلك من بلاد العراق والشام . وقد توارث أبناء طولى
هذه البلاد واتخذوا من مدينة تبريز عاصمة لدولتهم التي كانت تسمى فى

(٢٥) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٣١٨ ، ٣٥٩—٣٩٩ .

أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٥ .

الخضرى : نفس المرجع ، ص ٤٧٤ ، الرمزى : نفس المرجع ،
١ ص ٣٥٨ .

(٢٦) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٣٤ ، القلقشندى : نفس
المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٨ ، ٤٥٣ — ٤٦٥ ، ابن خلدون : نفس المصدر ،
ج ٥ ص ٩٢٤ ، ١٠٨١ .

Saunders : op. cit., pp. 73-75.

العادة ايلخانية(٢٧) مغول فارس ، وكان على أيديهم سقوط الخلافة العباسية كما سبق القول . وكان من نصيب جغتاي بن جنكيزخان وبنيه من بعده تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة ، واتخذوا من مدينة سمرقند عاصمة لهم . أما الابن الرابع اوكتاي (اكداى) بن جنكيزخان ، فقد كان من نصيبه بلاد الصين ومنغوليا والخطا ، واتخذ من قراقورم عاصمة له وللإمبراطورية المغولية بممالكها الثلاث الأخرى التى أشرنا إليها ، ذلك ان الخان الذى كان يجلس على عرش قراقورم كان هو الخان الأعظم الذى يدين له حكام الممالك المغولية الثلاث الذين كانوا يسمون بالايخانات (أى نائب الخان) بالطاعة والولاء ويشتركون مع سائر أمراء المغول وخواتينهم فى تنصيب الخان الجديد فى مجمع يعرف بالقوريلتاي كان يعقد لهذا الغرض فى عاصمة الإمبراطورية كلما خلى منصب الخان الأعظم سواء بالموت أو القتل أو العزل(٢٨) .

وقد ظلت ممالك المغول الثلاث تحافظ على الرباط الذى يربطها بقراقورم حتى مات الخان الأعظم منجوخان عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وبموته انتهت وحدة الإمبراطورية المغولية من الناحية الفعلية وبدأ الصراع يدب بين ايلخاناتها أو ملوكها ، وبدأت الممالك الغربية وهى ممالك جغتاي والقبيلة الذهبية وايلخانية إيران تدير شئونها بنفسها وكأنها دول مستقلة ، وبدأت الطبقة الحاكمة فى كل منها تندمج فى السكان المحليين من الترك والفرس(٢٩) ، وبدأنا نصل بذلك الى النتيجة الثالثة والأخيرة ، ذلك ان الاسلام بدأ ينتشر بين المغول الذين سكنوا هذه الممالك الثلاث واستقروا فيها وكونوا فيها أسرات حاكمة ، وبدأ الصراع بين الاسلام والبوذية والنصرانية

(٢٧) ايلخانية نسبة الى كلمة ايلخان بمعنى نائب الخان ، وعلى ذلك فالايلخانية هى المملكة التابعة للخانية التى يحكمها الخان الأعظم .

(٢٨) ابن العبري : نفس المصدر ، ص ٤٣٢ — ٤٣٤ ، العبرى : نفس المصدر ج ١٦ ق ٣ ورقة ٥٠ ، القلقشندي : نفس المصدر، ج ٤ ص ٣٠٩ — ٤٣١ ، ٤٤٣ ، ٤٧٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١٠٨١ ، الصياد نفس المرجع ، ص ١٦٥ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٧٩ ، الرمزي ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٥٨ .

(29) Saunders : op. cit., p. 116.

لجذب هؤلاء السادة الجدد ، لأن من ينجح فى جذبهم اليه والى ديانتته سوف
تصير له الغلبة النهائية على غيره ، علاوة على انه سوف يكتسب شعبا جديدا
يضم الى قائمة الشعوب الأخرى التى اعتنقت ديانتته مما يدعم موقفه ويزيد
من قوته . وقد اندلع هذا التنافس او هذا الصراع بين هذه الأديان الثلاثة
سواء فى قراتورم ام فى سمرقند وتبريز وسراى ، فما هى مظاهر هذا
الصراع ، وما هى النتيجة التى انتهى اليها . والاجابة على هذين التساولين
هما موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب .

المفصل الأول

تنافس الأديان نحو اكتساب المغول

انتهاز أصحاب كل من الديانتين المسيحية والبوذية فرصة ظهور المغول الذين كان معظمهم يدين بالوثنية^(١) على مسرح الأحداث واكتساحهم لمعظم بلدان آسيا وشرقى أوربا وقضائهم على الخلافة العباسية وعلى الدول الإسلامية التي كانت قائمة في بلاد المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد ، وعملوا على نشر ديانتهم بين هؤلاء المغول تحقيقا لأهداف معينة ، منها أن مسيحيى آسيا من الأرثوذكس والنساطرة أرادوا أن يردوا الصاع للصاع للإسلام صاعين ، ذلك لأن انتشار الإسلام في بلاد كثيرة من آسيا كان على حساب المسيحية الأرثوذكسية ، ولذلك كان هدف هؤلاء المسيحيين هو تحويل هؤلاء الحكام الجدد إلى المسيحية الأرثوذكسية ونشرها بين غيرهم من القبائل التركية والمغولية التي كانت لا تزال على الوثنية ، والتبشير بالمسيحية أيضا بين المسلمين المهزومين في ذلك الوقت . وعلى ذلك فقد كانت أهداف مسيحيى آسيا هي الفوز بهذا الشعب الذى صار متحكما في مصائر آسيا ، ضربا للإسلام من جهة ودعمًا للقسطنطينية وغيرها من الدول المسيحية الشرقية مثل جورجيا (الكرج)

(١) كان المغول يدينون بالوثنية فيما يعرف بالديانة الشامانية البدائية التى تقوم على عبادة الكواكب والأصنام وأرواح الأجداد القدامى ، والقليل منهم كان يدين بالنصرانية ، ومنهم من كان لا يتدين بدين معين . انظر :

الفلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣١٠ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٢٠ .
أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٥١ .
الرمزى : تلفيق الأخبار ، ج ١ ص ٣٥٤ ، ٣٥٦ .

وارمينيا فى مقاومتها امام ضغط سلاجقة الروم المسلمين والتركمان والأيوبيين
وسلاطين المماليك من جهة اخرى (٢) .

أما مسيحيو اوربا فقد ارادوا من وراء جهودهم فى نشر المسيحية بين
المغول ان يعيدوا سيطرتهم على الممالك الصليبية التى فقدوها فى بلاد الشام
على يد الأيوبيين وسلاطين المماليك ، وان ينتقموا من هؤلاء المسلمين الذين
اوقعوا بملوكهم الهزيمة فى حطين عام ٥٨٣هـ / ١٨٧م وأن ينشروا مذهبهم
الكاثوليكي فى بلاد آسيا تدعيما لنفوذهم فى تلك البلاد من جهة وضمانا
لرواج تجارتهم وتأمينا لتجارهم الذين كانوا يذرعونها جيئة وذهابا عبر الطريق
التجارى البرى القديم الذى كان يسمى طريق الحرير والذى كان يخترق آسيا
من أقصى الشرق الى أقصى الغرب (٣) .

وقد انتهز كهنة البوذية هذه الفرصة أيضا وارادوا نشر ديانتهم ونفوذهم
فى كل آسيا وليس فى شرقها فقط ، وارادوا ان يوقفوا انتشار الاسلام
وان يحدوا من ضغطه الذى كانت تتعرض له معاقل البوذية فى بلاد الهند
وجنوب شرقى آسيا بصفة عامة . ولذلك اظهر هؤلاء المنافسون للاسلام من
البوذيين والمسيحيين شرقيين وغربيين التقرب والمودة نحو المغول ونجحوا فى
اكتساب عطف الكثيرين من خوانينهم وايلخاناتهم منذ عهد جنكيزخان ، كما
نجحوا فى تحويل بعض المغول وبعض أمرائهم وبعض وزراءهم الى المسيحية
والى البوذية ، مما زاد من حدة المنافسة مع الاسلام نحو اكتساب هؤلاء
الغزاة الجدد .

(١) العوامل التى أدت الى التنافس بين الأديان الثلاثة :

ويمكننا ان نحصر العوامل التى أوجبت المنافسة بين الأديان الثلاثة
لاكتساب المغول فى ثلاث : اولها هو ان البعض من زوجات خوانين المغول
وايلخاناتهم وأمرائهم كن مسيحيات وكان لهذا العامل تأثيره فى ميل ازواجهن
الى المسيحية واضطهاد الاسلام واشتعال المنافسة بينه وبين المسيحية
والبوذية .

(2) Saunders : op. cit., pp. 117, 185.

(٣) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٦٦ ، ٣٧٧ ،

Saunders : op. cit., p. 95-97.

أما العامل الثانى فيعود الى جهود بعض الوزراء والموظفين الذين كانوا على المسيحية او البوذية ، وكذلك جهود الرهبان المسيحيين والبوذيين وتأثيرهم على بعض الخوانين والأمراء والمغول للانحياز الى دياناتهم والعطف على رجالها مما اشعل المنافسة بين هاتين الديانتين وبين الاسلام . اما العامل الثالث والأخير فيعود الى نشاط البابوية وملوك أوربا فى التبشير بالمسيحية بين المغول وفى محاولة التحالف معهم ضد المسلمين ومساعدتهم فى غزواتهم لبلاد الاسلام . هذه هى أهم العوامل التى اشعلت المنافسة بين كل من البوذية والمسيحية من جانب وبين الاسلام من جانب آخر لاكتساب المغول وتحويلهم الى احدى هذه الديانات الثلاث . وسوف نتحدث عن كل عامل من هذه العوامل على حدة ونبين اثره سواء فى عاصمة الامبراطورية المغولية أم فى عواصم الممالك المغولية التى كانت تضمها هذه الامبراطورية .

١ - تأثير الزوجات المسيحيات :

يعود هذا التأثير الى أن بعض زوجات الخوانين والايخانات والأمراء من المغول كن مسيحيات نتيجة لتلك المصاهرات التى نشأت بين هؤلاء وبين القبائل المسيحية المغولية التى كانت تعيش داخل حدود الامبراطورية . فزوجة جنكيزخان (٥٩٦ - ٦٢٤ هـ / ١١٩٩ - ١٢٢٧ م) كانت من قبيلة كرايت المسيحية التتارية (٤) وبجانب ذلك فقد تنبأ له أحد الرهبان المسيحيين بعظم ملكه كما سيجىء فى حينه ، ولذلك صار جنكيزخان ، يميل الى النصرى ويحسن الظن بهم ويكرمهم (٥) وكانت زوجة ابنه اوكتاى (٦٢٦ - ٦٣٩ هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤١ م) مسيحية ومن نفس الأسرة التى تنتهى اليها امه (٦) . ولذلك فعندما اشتكى اهل جورجيا عام ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م الى اوكتاى من عدم عدالة حكمه ومن استجابتهم لتحريض المسلمين لهم ضد المسيحيين فى جورجيا وأرمينيا ، ارسل هذا الخان أحد الرهبان النساطرة الى ارمينيا فى العام

(٤) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤١ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ .

(٥) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(٦) الصياد : نفس المرجع ، ج ١ ص ١٩٨ - ٢٠١ .

التالى يحذر الحكام المغول هناك ويأمرهم بأن يحموا الكنائس ويرعوا مصالح
المسيحيين (٧) .

وقد زاد العطف على المسيحيين فى عهد كيوك خان بن اوكتاي
(٦٤٤ — ٦٤٧ هـ / ١٢٤٦ — ١٢٤٩ م) . فقد كانت أمه تورجين ووزيره وأحد
كتابه واتباعه يدينون بالمسيحية واكتنظ بهم بلاطه ، وتوافد عليه رسل البابا
انوسنت الرابع ، كما وصل رسول ذلك البابا ايضا الى تبريز يطلبون التحالف
مع مغول ايران ضد الأيوبيين (٨) .

وقد أثمرت كل هذه الجهود وأدت الى ارتفاع شأن الطوائف المسيحية
التي كانت تعيش فى الامبراطورية المغولية من الفرنج والروس والسريان
والأرمن ، ووصلت القبائل المسيحية من المغول والترك الى مراكز السلطة ،
وأعطيت الفرصة لرجال الدين النساطرة لبث المسيحية فى شرقى آسيا
وللتأثير على قواد المغول وزعمائهم من خلال النساء المسيحيات اللاتي شققن
طريقهن بين حريم الخوانين والأمراء حتى أصبح كيوك نفسه على وشك التحول
الى المسيحية مما أثار آمال المسيحيين فى الشرق والغرب ، ودفع بهم لارسال
بعثات جديدة الى قراقورم لجذب الخوانين الى المسيحية (٩) .

وقد أدى ازدياد النفوذ المسيحى فى بلاط قراقورم على هذا النحو الى
أعلاء شأن القسيسين والرهبان والى التصدى للمسلمين والعمل على اذلالهم ،
والعدوان على فقائهم حتى لو كان هؤلاء الفقهاء فى حضرة كيوك خان نفسه .
فقد حدث ان انتصر فقيه مسلم على فريق من أحبار المسيحية والبوذية فى

(7) Saunders : op. cit., p. 79.

(٨) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٥٠ .

أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، الصياد : نفس المرجع ج ١
ص ١٩٨ — ٢٠١ .

Saunders : op. cit., pp. 97, 181.

(٩) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٥٠ ، براون : نفس المرجع ،
ص ٧٥٤ ، اربرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٦ ،

Saunders : op. cit., pp. 91, 97-98.

مناظرة جرت فى بلاط كيوك خان ، فما كان من هؤلاء الأخبار الا ان تعرضوا لهذا الفقيه بالعدوان والايذاء والسخرية اثناء قيامه بالصلاة (١٠) . وعندهما غر بعض المسلمين من هذا الاضطهاد الى باطوخان ملك القبيلة الذهبية فى بلاد التفجاق ، اغرى هؤلاء الاخبار كيوك خان بالتصدى لهذا الملك ، وقامت الحرب فعلا بين كيوك خان وباطو خان عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م او بعدها بقليل (١١)

ويستمر التأثير المسيحى فى عهد منكوخان (٦٤٩ — ٦٥٨هـ / ١٢٥١ — ١٢٥٩م) الذى اعتلى العرش بعد وفاة كيوك خان . وقد حكى لنا العيني بأن هذا الخان الجديد كان « يتمذهب بمذهب النصرانية ويميل اليها ومات عليها » (١٢) . والغالب ان العيني الذى توفى عام ٨٥٥هـ / ١٤٥٠م كان يقصد بكلامه الخان السابق الذى قيل انه تنصر فعلا ، اما منكوخان فقد كان يميل الى المسيحيين بتأثير امه المسيحية التى كانت تنتمى الى قبيلة كرايت المسيحية (١٣) . ومعروف انه فى عهد هذا الخان وصل العداء للاسلام الى ذروته حيث حدث الغزو الرهيب لبغداد ، وتم قتل الخليفة العباسى واهل بيته ، وتم اسقاط الخلافة العباسية وضاع الكثير من مفاخر الاسلام وذخائره من مكتبات ومساجد وعمائر وقصور ومدن بأكملها .

أما قوبيلاي خان (٦٥٨ — ٦٩٢هـ / ١٢٦٠ — ١٢٩٤ م) فرغم ان امه كانت مسيحية الا انه لم يتأثر بها ورفض ان يتحول الى المسيحية عندما دعاه اليها بعض التجار الايطاليين وعلى رأسهم ماركو بولو عام ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م ، وفضل عليها اعتناق البوذية . وربما يعود ذلك الى أن قوبيلاي خان كان يراعى مشاعر الصينيين والخطائيين البوذيين الذين كان يعيش بينهم ، وتقع عاصمته فى بلادهم ، ولأن هؤلاء الناس كانوا ينظرون الى المسيحية على انها ديانة أجنبية لم تجذب اليها عندهم الا اتباعا قليلين . ولذلك كان تحمس قوبيلاي الشخصى مقسما بطريقة متساوية بين البوذية والمسيحية ، ولكن مراعاة لجانب والدته المسيحية وتديلا على سماحته الدينية ، فقد عين ماركو

(١٠) أرنولد : نفس المرجع ، ٢٥٧ .

(١١) الرمزى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩١ .

(١٢) عقد الجمان ، ج ٢٢ ، ورقة ١٥٣ .

(13) Saunders : op. cit., p. 181.

بولو ورفاقه الذين كانوا قد وصلوا الى بسلامته في بعض المناصب المدنية في الصين المغولية ، كما سمح لهم بأن يستقدموا الى بلاده وبسلامته مائة من القسس لنشر المسيحية ، كما سمح بفتح الكنائس في العاصمة ، واستمر تعيين المسيحيين في المناصب العالية ، وكان من بين هؤلاء المسيحيين نسطوري يدعى عيسى ، عين مديرا لمركز الاوردو ، ثم عين وزيرا للدولة . كما عين ثلاثون الفا من المسيحيين الالان Alans الاغريق حراسا في خان بانيق (١٤) .

وفي عواصم الايلخانيات أو الممالك المغولية الثلاث الأخرى كانت هذه السياسة متبعة نتيجة لنفس المؤثر وهو الزوجات المسيحيات . فـهولاكو (٦٥٤ — ٦٦٤هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٥م) ، ايلخان مغول ايران وتوابعها كانت امه مسيحية ، وكانت زوجته دوقوز خاتون Dokus Khatun مسيحية نسطورية وكان المسيحيون ينظرون الى هولاكو رغم عدم اعتناقه المسيحية — الى زوجته كما لو كانوا قنسطنطين الجديد وهيلينا ، وقد دفعته زوجته بما كان لها من نفوذ الى أن يظهر عطفا شديدا على المسيحيين وعلى النساطرة منهم بوجه خاص ، ومن ثم اعتنق بعض المغول وخاصة الذين احتلوا بلاد ارمينيا وجورجيا الدين المسيحي ، كما تحمس هولاكو لفزو بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بعد أن امده مسيحيو الأرمن والكرج بالمساعدات اللازمة (١٥) ، وبعد أن نجح هولاكو في تدمير بغداد وفتح بلاد الشام كان نائبه فيها المسمى كتبغا يميل الى النصرانية ولكنه لم يعتنقها حتى لا يكون خارجا على اليساقذ مثله في ذلك مثل هولاكو (١٦) .

(14) Prawdin ; The Mongol Empire, pp. 333-334 ;
Saunders : op. cit., pp. 125-127, 188.

(١٥) رشيد الدين المهداني : نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٢٢٠ ، ابن العبري : نفس المصدر ص ٤٦١ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ج ٧ ص ٢٢٠ ، العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ٢٥٧ ، الديار بكري : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
Saunders : op. cit., p. 129.

(١٦) العيني نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ١٥٦ .

وقد استمر بعض خلفاء هولاكو الذين حكموا مملكة إيران وتوابعها في اتباع هذه السياسة . فيذكر لنا ابن العبري المعاصر لتلك الأحداث والذي نراه يغالى في حديثه عن تأثير المسيحية على المغول وعن ارتفاع شأنها بينهم ، ان اباخان بن هولاكو والذي يعرف في المصادر العربية باسم (ابغا) والذي خلف اياه على عرش إيران (٦٦٤ - ٦٨٠ هـ / ١٢٦٥ - ١٢٨١ م) انه دخل البيعة في همذان في يوم عيد النصارى عام ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م وانه عيد معهم (١٧) ، فقد كانت امه مسيحية وكانت زوجته أيضا مسيحية ، فهي ابنة امبراطور القسطنطينية . ورغم انه لم يعتنق المسيحية ، فقد امتلا بلاطه بانتيسيين من المسيحيين وارسل السفراء الى بعض ملوك اوربا ، فكان يرسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك ارغونة ، يطلب التحالف ضد المسلمين . كما ارسل لهذا الغرض ايضا بعثة من ستة عشر سفيرا من المغول الى مجمع ليون عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م حيث دخل كبير أولئك السفراء في المسيحية وعمد مع بعض رفاقه هناك (١٨) .

وقد سار ابنه ارغون Arghun (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ / ١٢٨٤ - ١٢٩٦) الذي تولى عرش إيران بعد مقتل عمه احمد تكودار المسلم عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م على سياسة ابيه ابغا في العطف على المسيحيين الذين استردوا مكانتهم من جديد بعد القضاء على هذا الخان المسلم ، ولاقى المسلمون في عهد ارغون كثيرا من انواع الاضطهاد حيث صرفوا عن مناصبهم التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه (١٩) . وتعود هذه السياسة في الغالب الى ان هذا الخان قد تربى تربية مسيحية ، فقد كانت امه مسيحية ، كما كانت زوجته مسيحية نسطورية ، فهي بنت اخ دوقوز خاتون زوجة هولاكو النسطورية . ولذلك ربي ابن هذا الايلخان كوالده ارغون تربية مسيحية وعمد باسم نيقولا في عام ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ تيمنا باسم البابا نيقولا

(١٧) تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٥ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٤٩٧ ، رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١٢٤ ، ارنولد : نفس المرجع : ٢٦٠ .
Haworth : op. cit., v. 2, p. 1012.

(١٩) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ، ٢٦٣ .

الرابع (٢٠) . وكان من المألوف في ذلك العصر أن يربى بعض أبناء الإيلخانات تربية مسيحية ، وأن يربى بعضهم الآخر تربية إسلامية (٢١) .

وفي إيلخانية القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق حيث تقترب الامبراطورية البيزنطية بتأثيرها المسيحي وثقافتها المسيحية من هذه البلاد ، كان نفوذ المسيحية هناك ليس قليلا ، ولكن هذا النفوذ لم يكن مرجعه الى زوجات مسيحيات كن في عصمة الحكام المغول ، لأن هؤلاء الحكام اعتنقوا الاسلام قبل الحكام المغول في جميع أنحاء الامبراطورية ومنذ وقت مبكر يعود الى منتصف القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ، أي بعد فتح المغول لهذه البلاد بحوالي عشرين عاما . وعلى ذلك نفقرة الحكم الوثني لهذه البلاد تعتبر اقصر فترة في تاريخ ممالك المغول الوثنية قاطبة .

وقد سار إيلخانات بلاد القفجاق على سياسة التزوج من مسلمات ، وقد حدث أن تزوج احدهم ابنة امبراطور القسطنطينية فأصر على تحويلها الى الاسلام (٢٢) . وقد تزوج ايضا بعض الأمراء المغول بزوجات مسيحيات ، ولكن عدد هؤلاء الأمراء كان قليلا جدا ، وليس هناك من مثل يمكن أن نضربه لهم إلا الأمير نوغاي (نوغاي) قائد جيوش بركة خان (٦٥٤ — ٦٦٥ هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٦ م) الذي تزوج من ابنة الامبراطور البيزنطي باليولوجوس Palaeologus حتى يحتوى به الامبراطور من أطماع سلاطين مغول القفجاق الذين كان يتحكم في تعيينهم وعزلهم أو قتلهم هذا القائد طيلة عشرين عاما (٢٣) ، كما أراد هذا الامبراطور ايضا ان يحتوى به من ضربات سلاجقة الروم الذين استولوا على معظم أنحاء آسيا الصغرى وأصبحوا خطرا يهدد القسطنطينية ذاتها .

وقد أخبرنا ابن بطوطة انه كان بين زوجات السلطان محمد أريك خان (٧١٢ — ٧٤٢ هـ / ١٣١٣ — ١٣٤٢ م) زوجة مسيحية هي ابنة امبراطور

(20) Saunders : op. cit., p. 141.

(٢١) بارتولد : نفس المرجع ص ١٩٥ .

(22) Saunders : op. cit., p. 164.

(23) Ibid : p. 159.

القسطنطينية تكفور ، وقد زارها ابن بطوطة وسافر معها لزيارة القسطنطينية عندما أرادت تلك الزوجة أن تضع حملها هناك عند أبيها ، ويستفاد من كلام ابن بطوطة أن هذه الزوجة كانت تتظاهر بالاسلام عندما كانت في سراي ، ولما وصلت الى القسطنطينية اظهرت دينها ، وظهر ذلك لمن كان في صحبتها من المغول فعادوا الى سراي وتركوها (٢٤) . ولذلك لم يكن تأثير الزوجات المسيحيات على مغول بلاد القفجاق كبيرا مثلما كان الحال عليه عند مغول ايران . ولذلك كان الصراع بين المسيحية والاسلام في بلاد القفجاق صراعا محدودا انتهى بسرعة لصالح الاسلام عام ٦٥٣هـ / ١٢٥٦م عندما تولى عرش تلك البلاد بركة خان الذين كان يدين بالاسلام (٢٥) .

وفي ايلخانية جغتاي في تركستان وبلاد ما وراء النهر ، كان هذا الايلخان (٦٢٤ — ٦٤٠هـ / ١٢٢٧ — ١٢٤٢م) الذي تولى حكمها بعد وفاة ابيه جنكيز خان من الد أعداء المسلمين من بين خوانين وايلخانات المغول كافة . وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين انه لم يكن يجب أن ينطق احد بكلمة مسلم في حضرته الا اذا اريد بذكرها التحقير والخط من شأنها (٢٦) ، كما انه كان يعاقب بالقتل كل من يذبح الماشية على الطريقة الاسلامية (٢٧) . ولا ندرى أيرجع سر هذا العداء الى تأثير امه المسيحية ام الى ديانتها الشامانية البدائية التي كانت تتناقض مبادئها مع أي دين سماوي .

وفي الواقع كان الصراع في بلاد جغتاي يقوم أساسا بين الشامانية والبوذية من ناحية وبين الاسلام من ناحية أخرى ، ولم يكن للمسيحية نشاط تبشيري كبير كما حدث في ايلخانية ايران ، ذلك أن بلاد جغتاي كانت اقرب الى بلاد الصين والخطا حيث تسود الشامانية والبوذية والكنفوشيوسية.

-
- (٢٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ .
(٢٥) العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ١٩ ، المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٠٤ .
(٢٦) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٢٧) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١١ .
ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ .

وكان هذا القرب يؤثر على ايلخانات بلاد جفطاي ، فظلوا على دين جنكيزخان مدة طويلة حتى تركوا سكنى الجزء الصحراوي الرعوى من دولتهم ونزلوا الى بلاد ما وراء النهر وسكنوا فيها وتأثروا هناك بالحضارة الاسلامية ، فأسلموا منذ بداية الربع الثانى من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر للميلاد (٢٨) .

وحتى فعل هؤلاء الحكام ذلك كان سابقوهم فى حكم هذه البلاد يدين معظمهم بالبوذية ويناهضون الاسلام . فالفو (الكو) بن بيدار ابن جفطاي (٦٥٩ — ٦٦٤ هـ / ١٢٦١ — ١٢٦٥ م) كان يسير على سياسة جده فى اضطهاد المسلمين (٢٩) ، وأتى بعده ابن عمه مبارك شاه بن قرا هولاكو بن قوغان بن جفطاي الذى اعتنق الاسلام كما يظهر من اسمه (٣٠) ، ولكن ابن عمه براق خان غير المسلم ثار عليه وقتله (٣١) ، وتوالت هذه العملية بين الايلخانات المسلمين وغير المسلمين من البوذيين فى بلاد جفطاي وظل الصراع قائما فيها بين البوذية والاسلام حتى عصر السلطان طرماشيرين (٧٢٦ — ٧٣٤ هـ / ١٣٢٦ — ١٣٣٤ م) الذى اعتنق الاسلام ونشره بين مغول هذه البلاد وأنهى ذلك الصراع لصالح الاسلام ، وتغيرت الأحوال لصالح المسلمين منذ ذلك الحين (٣٢) .

٢ — جهود بعض الوزراء والموظفين والكهان من المسيحيين والبوذيين :

من المعروف ان جنكيز خان وأولاده من بعده اتخذوا فى فترة الحكم الوثنى لدولهم وزراء وحكام وموظفين من جميع الأديان : بوذيين ومسيحيين ومسلمين . وقد انتهز الوزراء المسيحيون والبوذيون فرصة تواجدهم فى بلاط المغول سواء فى العاصمة قراقورم أم فى عواصم ممالك المغول الأخرى فى تبريز وسراى وسمرقند ، وفرصة وجود زوجات مسيحيات لبعض الخوانين

(28) Saunders : op. cit., p. 171.

(٢٩) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

(٣٠) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٤٩ ، بارتولد : نفس

المرجع ص ١٨٨ ، هامبري : نفس المرجع ص ١٩١ .

(٣١) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

(32) Saunders : op. cit., p. 172.

والايلخانات ومارسوا دورا هاما فى التأثير على الحكام المغول فى ناحيتين :
الناحية الاولى هى دعوتهم للتحويل الى الديانة البوذية او الديانة المسيحية ،
والناحية الثانية هى تشجيعهم على ضرب الاسلام وغزو بلاده وممالكه ما امكن ،
وقام رهبان هاتين الديانتين بدور بارز فى هذا المضمار . فهذا راهب نصرانى
يشجع جنكيزخان على غزو العالم الاسلامى ويقول له « لا تخف ، افعل
ما شئت فانك مؤيد (٣٣) » ، وذاك راهب بوذى يقص على اوكتاي بن جنكيزخان
الذى خلف ابيه على عرش الامبراطورية (٦٢٦ — ٦٣٩ هـ / ١٢٢٩ — ١٢٤١ م)
بان جنكيزخان ظهر له فى المنام وطلب منه ان يبلغ ابنه اوكتاي بضرورة العمل
على القضاء على المسلمين فى جميع انحاء الاقطار (٣٤) .

وقد دعم من هذا النشاط للرهبان المسيحيين ان بعض القبائل المغولية
كانت تعتنق المسيحية قبل ظهور جنكيزخان نفسه وظلت على هذه الديانة مدة
طويلة . مثال ذلك قبائل النايماں التى كانت تقيم فى غرب منغوليا ، وقبائل
الكرايت التى كانت تقيم فى شرقها ، وقبائل الاتغوت التى كانت تقيم فى
جنوبها . وكذلك كان الايغوريون الذين يقيمون فى شرقى تركستان وفى بلاد
الخطا يشتركون فى الترويج للمسيحية بجانب المبشرين الاوربيين والنساطرة
طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد (٣٥) .

وقد استند الوزراء والموظفون المسيحيون الى هذه القوى من قبائل
مغولية مسيحية ومن رهبان مسيحيين وزوجات مسيحيات وقاموا بدورهم فى
التأثير على بعض خوانين وايلخانات المغول . وقد سبقت الاشارة الى أن
كيوك خان كان وزيره واتباعه يعتنقان المسيحية ، واستطاعا بمالهما من مكانة
عنده ان يؤثرا عليه ، فأخذ يعطف على المسيحية والمسيحيين وأصبح بلاطه
مكتظا بالقساوسة النسطوريين وبرجال الدين القادمين عليه من اوربا (٣٦) .

(٣٣) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤١ ، الرمزى : نفس المرجع
ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣٤) الصياد : نفس المرجع ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٤ .

(٣٥) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

(٣٦) أنظر ؛ ص ٢٨ ؛ براون : نفس المرجع ، ص ٧٥٤ .

وهكذا نرى أن التبشير بالدين المسيحي كان مركزا غاية التركيز ومنصبا على قراقورم عاصمة الامبراطورية المغولية لاعتقاد المبشرين بهذا الدين انه . إذا اعتنق الخوانين هذه الديانة اعتنقها المغول في كافة انحاء الامبراطورية ، ولذلك ليس امامنا مثل نضربه على نجاحهم خارج قراقرم الا الأمير (صرتق) Sartak بن باطو الذى تولى حكم ايلخانية القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق عقب موت والده عام ٦٥٣هـ/١٢٥٦م والذى تحول الى المسيحية وأعلن ذلك ، ولكن القدر لم يمهلهم فقد توفى كما سنعرف أثناء عودته من قراقورم ليعتلى عرش بلاده (٣٧) . والمدهش ان المسيحية لم تنشط في بلاد القبيلة الذهبية بسبب اعتناق هذا الأمير لها ولكن بسبب التسامح العظيم الذى أبداه بركة خان الذى تولى الحكم عقب موت صرتق ، وكان هذا الخان أول من اسلم من خوانين المغول كافة (٣٨) .

وقد وقع رهبان البوذية في نفس الخطأ فكان نشاطهم منصبا على خانية المغول العظمى أى في بلاد الصين والخطا حيث تبعد هذه البلاد عن مجال التأثير الاسلامي وتقترب من التأثير البوذي الذى كان يسود هذه البلاد وجنوب شرقى آسيا بصفة عامة . ولذلك فقد تمتعت البوذية بالعطف والمساندة من جنكيزخان الذى كان يستمد الحكمة من وزيره البوذي تشانج تشون Ch'ang Ch'un كما استطاع موكالى Mukali أحد قواد جنكيزخان ان يحصل منه على فرمان باستثناء رهبان البوذية من الضرائب . واشتد نفوذ البوذية في قراقورم وخاصة بعد أن غزا خلفاء جنكيزخان هضبة التبت معقل البوذية بعد عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وتحولت قيادة المغول الى البوذية ، وأعطى تورجين Toregene نائب الخان (٦٣٩ — ٦٤٤هـ/١٢٤١ — ١٢٤٦م) رهبان البوذية ورجالها الامضلية على منافسيهم من أصحاب الأديان الأخرى ، وأعطى طولى بن جنكيزخان ابنه اسما بوذيا فسماه قوبيلاي ، وعندما تولى هذا الابن حكم الامبراطورية (٦٥٨ — ٦٩٣هـ/١٢٦٠ — ١٢٩٤م) أصبح

(٣٧) الرمزي : ج ١ ص ٣٧٨ ، ٤٠٢ .

Saunders : op. cit., pp. 118, 169.

(38) Ibid., pp. 118, 169-170.

འཇམ་མགས་པོ་ལྷ་མོ་ (Phags-pa རྒྱ་མཚོ་ལྷ་མོ་) مكانة سامية ومركزا رسميا في الامبراطورية ، وفي النهاية أصبح قوبلاي خان بوذيا متعصبا (٣٩٠) . وقد حكم اولاده واحفاده حكم تلك البلاد (الصين والخطا) حتى انتهت دولتهم فيها وكانوا خلال حكمهم لها يدينون بالبوذية (٤٠) .

وفى ايران كان هولاء (٦٥٤ - ٦٦٤ هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م) مثل اخيه قوبيلاي الخان الاعظم يعتنق البوذية ، وكان ابنه ابغا (اباقا خان) ، (٦٦٤ - ١٢٦٥ / ٦٨٠ - ١٢٨١ م) يميل الى البوذية ، وكان مغرما بها (٤١) . وسار ارغون بن ابغا على سياسة ابيه وجده فى تعظيم البوذية ومساندتها ، وكثرت المعابد البوذية فى بلاد ايران ، واستقدم رهبانها من الهند ، ونظر المسلمون واليهود فى خوف وفزع من هذا الانتشار السريع للوثنية البوذية (٤٢) . وقام سعد الدولة اليهودى وزير هذا الايلخان باضطهاد المسلمين وسامهم . الخسف والهوان ، واراد ان يحول الكعبة الى معبد بوذى (٤٣) ، كما تحول غازان ابن هذا الايلخان والذى كان حاكما لاقليم خراسان الى البوذية ، ويقال انه بنى معابد بوذية فى هذا الاقليم قبل أن يتحول الى الاسلام (٤٤) مما يدل دلالة مؤكدة على مدى النشاط الواسع لابوذيين فى ايران والذى اثار المنافسة بينهم وبين دعاة الاسلام ، تماما كما حدث فى بلاد جفطاي فى تركستان وملا وراء النهر .

٣ - نشاط البابوية وملوك أوروبا :

ونشاط البابوية وملوك أوروبا من العوامل الهامة التي أشعلت المنافسة الى حد بعيد بين المسيحية والاسلام في امبراطورية الممّول . وقد ظهر هذا النشاط في ناحيتين : الناحية الأولى هي التبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين

(39) Saunders : op. cit., pp. 118, 179-180.

(40) Ibid., p. 97.

(41) Ibid., p. 132.

(42) *Ibid.*, p. 180.

(43) Ibid., p. 133.

(٤٤) مصطفى بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٤

المغول ، والناحية الثانية هي محاولة التحالف مع المغول ضد دولة الاسلام في مصر وبلاد الشام في عهد بنى ايوب وفي عهد سلاطين المماليك . وكان الايوبيون والمماليك قد اذاقوا الصليبيين في بلاد الشام هزائم مريرة وانتزعوا منهم بعض الامارات الصليبية واعادوا لها شكلها الاسلامي ، كما تصدوا للمغول الذين كانوا قد نجحوا في احتلال معظم بلاد الشام عقب سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وهزموهم في موقعة عين جالوت بعد ذلك بعامين ، وكانت اول هزيمة ساحقة تلحق بجيوش المغول العاتية (٤٥) ، ولذلك كان لالتحالف بين المغول وبين الصليبيين في بلاد الشام وفي بلاد اوربا امرا متوقعا .

واذا كان سقوط دولة خوارزم ثم سقوط الخلافة العباسية قد مهد الطريق امام اطماع المغول في بلاد الشام ، فانه مهد الطريق ايضا للاطماع الاوربية التي كانت تتجه الى اواسط آسيا وغربها ، واصبح في امكان مسيحيي الشرق والغرب ان يكتفوا بنشاطهم في التبشير بالمسيحية بين المغول . وامن الشرق جميعا ، وان يقيموا علاقات مع القبائل التركية المسيحية في اقصى انحاء آسيا ، كما اصبح التحالف المغولي المسيحي امرا ممكن التحقيق ، وظهرت بوادر هذا التحالف فعلا أثناء الغزو المغولي لبلاد العراق والشام وفي تهديد مصر (٤٦) .

ولتحقيق هذه الاهداف نشطت البابوية من ناحية وملوك اوربا من ناحية اخرى في ارسال البعثات والرسائل وفي تكثيف الاتصالات بقراقرم وبعواصم . ممالك امبراطورية المغول ، فلم يكذب يمشي على غزو المغول للمشرق الاسلامي زمن قصير حتى بلغت مسامع الغرب الأوربي شائعة تقول بأن هؤلاء المغول اعتنقوا المسيحية ، ولهذا قرر البابا انو سنت الرابع Innocent IV

(٤٥) ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ٢٠٧ ،
رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٣١٠ — ٣١٦ ، ابن كثير :
البدء والنهاية ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٣
ج ١٣ ، ص ٢٢٠ .

(٤٦) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٤ ، ج ١ ق ٣ ص ٦٩٢
Saunders : op. cit., p. 80.

عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م أن يبذل ماغى وسعه لتحقيق هذا الحالم ولحصر العالم الاسلامى بين قوتين مسيحيتين تتمثلان فى هؤلاء المغول الذين اشرفوا — فى نظره على الدخول فى النصرانية ، وفى اوربا المسيحية التى كانت فى صراع مع الاسلام قبل ظهور المغول بزمان طويل ، ولذلك ارسل هذا البابا فى العام التالى بلانو دى كاربينى وراهبا آخر من رهبان الفرنسيسكان الى بلاط الخان الأعظم فى قراقورم ليشهدا حفل تنصيب كيوك خان . وقد نجح هذان الراهبان فى التأثير على وزيرين من وزراء كيوك فاعتنقا الديانة المسيحية وأثرا بدورهما على ذلك الخان ، فآخذ كما اثرنا سابقا بيدى مظاهر العطف على المسيحيين ولكنه لم يعتنق المسيحية ، ولم يتم التحالف بينه وبين ملوك اوربا ، لأن كيوك طالب من كاربينى أن يبلغ البابا وملك اوربا أن عليهم أن يعطوا خضوعهم له أولا (٤٧) .

ويبدو أن المسيحيين جميعا كانوا على استعداد للتغاضى عن الأمور الشنيعة التى ارتكبها المغول ضد أبناء دينهم فى روسيا وبولندا طالما أن هؤلاء المغول سوف يسиров معهم فى الطريق التى تؤدى الى تحطيم ما بقى من قوة الاسلام والمسلمين ، ذلك لأننا نجد أنه بالرغم من الفشل الجزئى لبعثة كاربينى فاننا نرى بعثات أخرى مسيحية تتوافد على قراقورم وعلى عواصم الممالك المغولية الأخرى . ففي عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م وفدت على ايران بعثة دومنيكية أرسلها البابا انوسنت الرابع وعلى رأسها راهب يدعى اسلين Ascelin حيث واجهت نفس المصير الذى انتهت اليه رحلة كاربينى . وقد عاد هذا الراهب ومعه رسولين مغوليين من المحتمل أنهما كانا مسيحيين. نسطوريين وقابلا موظفى البابا فى إيطاليا (٤٨) .

(٤٧) اربرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٦ ، براون : نفس المرجع ، ص ٧٥٤ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٩٤ .
Saunders : op. cit., pp. 91, 94, 188.

(٤٨) الرمزى ج ١ ص ٣٦٦ ، ٣٧٧
Saunders : op. cit., pp. 95-97.

وقد واصلت أوربا اتصالاتها بالمغول ، فأوفد لويس التاسع ملك فرنسا قى عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بعثة من نيقوسيا عاصمة جزيرة قبرص كان على رأسها مبشر آخر هو الراهب الفرنسيسكى وليم روبروك ، ولكن هذه البعثة لم تصل الى قراقورم الا فى نهاية عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م حيث كان كيوك خان قد مات وتولى بعده منكوخان (منجو خان) (٤٩) . ولم تحقق هذه البعثة أيضا نجاحا يذكر لاشتراط منكوخان ان يدخل ملوك أوربا فى طاعته اذا ما ارادوا التحالف معه ، ولكن هيثوم ملك أرمينيا المسيحي نجح فيما فشل فيه لويس التاسع ، اذ قدم الى قراقورم عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م وقدم نفسه كتابع للخان الكبير ، فأحسن الخان استقباله واقتنع بوجهة نظره فى غزو بغداد ، وكلف أخاه هولاكو بتنفيذ هذه المهمة ، وتم ذلك فعلا وسقطت بغداد فى يد هولاكو عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وابتهج المسيحيون فى كل مكان بتدمير بغداد وبرزت أوجه التعاون بين هولاكو وبين المسيحيين فى آسيا أثناء غزوه لبلاد العراق ، فقد ضمت جيوشه وحدات عسكرية من الأرمن والكرج المسيحيين الذين كانوا أول من اقتحم اسوار بغداد واشتهروا بشدتهم وقسوتهم فى التخريب والتدمير . واستمر هذا التعاون أثناء غزو هولاكو لبلاد الشام . فقد دخل هيثوم ملك أرمينيا المسيحي ومعه حليفه وزوج ابنته بوهيمند السادس ملك أنطاكية الصليبي فى حلف مع هولاكو ورسما خطة الغزو فى لقاء جمع بينهما ، وانضمت جيوش هيثوم الى هولاكو وقدم البطريق الأرمنى لمنحه البركة ، مما أعطى صفة الطابع الصليبي لحملة حفيد جنكيزخان المغولية الأرمنية على بلاد الشام ، وانتهاز هذه الفرصة البابا اسكندر الرابع فأرسل الى هولاكو بعثة تحرب اليه اعتناق المسيحية (٥٠) .

(٤٩) ابرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٦ ، براون : نفس المرجع ، ص ٥٧٥ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٩٥

Saunders : op. cit., pp. 95-96.

(٥٠) النوبرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ١٠ ، مصطفى بدر : مغول إيران بين المسيحية والاسلام ، ص ٧ ، ارنولد ، نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، الصياد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢٨١ — ٢٨٢ ، ٢٩٤ — ٢٩٥

Saunders : op. cit., pp. 79-80, 98.

==

ورغم عدم اعتناق هولاء للمسيحية الا ان مظاهر التعاون والتحالف استمرت قائمة بين اوريا وصلبيي الشام وملوك ارمينيا وجورجيا (الكرج) من جهة وبين المغول في ايران من جهة اخرى ، وخاصة بعد هزيمة المغول في عين جالوت عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ا وقيام النزاع والصراع بين هولاء وبين بركة خان سلطان المغول في بلاد القفجاق ، مما اضعف من مغول ايران وزود سلاطين مصر بحليف جديد تمثل في بركة خان المسلم ، فقوى المسلمون في بلاد الشام ومصر على التصدي لهجمات مغول ايران ، ووجدوا الفرصة سانحة للقضاء على بقايا الصليبيين في بلاد الشام ، مما اثار مخاوف جماعات المسيحيين الشرقيين مثل الأرمن والمارون والقبط والنساطرة ، ولذلك فقد عاضدوا اخوانهم في الدين من المسيحيين الغربيين كما عاضدوا المغول في زحفهم على بلاد الشام أيام هولاء حتى يستعيدوا اورشليم مرة اخرى ويوجهوا ضربة قاضية للإسلام ويعيدوا ديانة المسيح الى بلاد الشرق الأدنى كما كانت قبل ظهور الاسلام (٥١) .

استمر التعاون بين المسيحيين في الشرق والغرب وبين المغول بعد وفاة هولاء وقيام ابنه ابغا في حكم ايران (٦٦٤ — ٦٨٠هـ / ١٢٦٥ — ١٢٨١م) ودعم هذا التعاون المغولي المسيحي بابوات روما ، فقد ارسل اربعة منهم وهم كليمنت الرابع عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م وجريجورى العاشر عام ٦٧٣هـ /

وتجدر الإشارة هنا ان الأرمن كانوا يقدمون مساعداتهم ايضا للصليبيين منذ ان قدموا في حملتهم الأولى على بلاد الشام عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م ، فهم في عدااء مع المسلمين على الدوام .
انظر : السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢١٤ اما الكرج فهم شعب نصراني كانت يسكن المنطقة التي تقع شمال ارمينية وتجاور بحر قزوين من الشرق وحدود دولة الروم البيزنطيين من الغرب ، وكانت عاصمتهم مدينة تفليس ، وقد خضعوا للمغول وصاروا يحاربون معهم ضد المساميين . وبلادهم تسمى الآن كرجستان او جورجيا .
انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٠٦ ، ٤٤٦ ، ابن خلدون : تاريخه ج ٥ ص ١١٠٦ ، ١١٠٧ .

١٢٧٤م ويوحنا السادس والعشرون عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م ونيقولا الثالث عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م وهودا ورسائل الى ابغا بن هولكو يحجبون اليه اعتناق المسيحية ومساعدة الصليبيين في بلاد الشام (٥٢) ، مما اثار المعارك الطاحنة بينه وبين الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام ، تلك المعارك التي كان يشارك فيها الفرنج . وقد اثار المؤرخون الى هذه المشاركة مرات عديدة ، منها ما اشار اليه النويرى والعينى من ان الاخبار وصلت الى الظاهر بيبرس عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩ « بتحرك التتار وانهم تواعدوا مع فرنج الساحل وانهم اغاروا على الساجور قرب حلب واستاقوا مواشى العريان » (٥٣) ، وفي واقعة حمص عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م كان جيش التتار مكونا من ثمانين الفا منهم خمسون الفا من التتار والمغول والباقي من الكرج والروم والارمن والفرنج (٥٤) وكان ملك الارمن يحارب بنفسه مع جيوش المغول في تلك الموقعة التي هزم فيها هؤلاء الحلفاء ، ومات ابغا غما وكيدا بسبب هذه الهزيمة (٥٥) .

وقد انفصلت مؤقتا عرى التحالف الذى كان قائما بين مغول ايران ومسيحيى الشرق والغرب حينما آلت السلطة في ايران الى الخان المسلم وكان ملك الارمن يحارب بنفسه مع جيوش المغول في تلك الموقعة التي سلاطين مصر وراسلهم يطلب ودهم ومساعدتهم حتى ينجح في نشر الاسلام

(٥٢) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٧ ، ٩ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٥ .

(٥٣) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٨ ورقة ٥٢ ، العينى : نفس المصدر ج ٢ ورقة ٣٠٩ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٨٤ .

(٥٤) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥٠٤ ، النويرى : نفس المصدر ج ٢٩ ورقة ٨ ، العمرى : مسالك الابصار ، ج ١٦ ، ق ٣ ورقة ٦٣٢ ، ٦٣٤ . المقرئى : نفس المصدر ج ١ ق ٣ ص ٦٩١ — ٦٩٥ .

(٥٥) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥٠٤ ، ابن حبيب : تذكرة النبىه في ايام المنصور وبنيه ، ج ١ ص ٦٢ — ٦٣ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٤٨

Saunders : op. cit., p. 131.

دين مغول ايران وختى لا راق دم المسلمين فى كلا البلدين : مصر وايران (٥٦).
ولكن هذا الخان سرعان ما قتل وتولى العرش بعده ارغون بن ابغا بن
هولاكو (٦٨٣ — ١٢٨٤/٦٩٠ — ١٢٩١ م)، وكان الخان الجديد يطمح فى
تحقيق السيطرة على بلاد الشام بمساعدة أوروبا ، فأتجه الى البابوية يطلب
التحالف معها وأرسل الى البابا أونريوس الرابع Honorius IV فى عام ٦٨٧هـ/
١٢٨٨م يقترح القيام بهجوم مشترك ضد سلاطين المماليك فى بلاد الشام ،
وعادت رسله بخطابات ووعود ولم تعد كما كان يأمل بجيوش تساعد فى طرد
عدوه وعدوهم من بلاد الشام (٥٧) .

وقد قام هذا الخان بآخر محاولة مع الغرب المسيحى فى هذا المجال ،
ولم يياس من النتيجة السلبية التى عادت بها السفارة السابقة ، فأرسل
سفارة أخرى على رأسها رجل من اهل جنوة يعلن نيته وتصميمه على مهاجمة
دمشق فى بداية عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م كى يسترد اورشليم ويسلمها للفرجة ،
وانه سوف يزود جيش الغرب عند هبوطه أرض سوريا بثلاثين ألف حصان .
ولكن هذا المشروع فشل هو الآخر ، وتأكد هذا الفشل عندما نجح المماليك فى
الاستيلاء على آخر حصن للصليبيين فى عكا فى أول ربيع الأول عام ٦٩٠هـ/
٣ مارس ١٢٩١م ، ومات ارغون نفسه بعد ذلك بسنة ايام بعد مرض
طويل (٥٨) . كما فشلت محاولات التحالف فى عهد خلفه وابنه غازان
(٦٩٤ — ٧٠٤هـ/١٢٩٥ — ١٣٠٤م) لأن غازان تحول الى الاسلام وأصبحت
خانية ايران اسلامية منذ ذلك الحين (٥٩) .

(٥٦) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ص ٢٨٠ ، ابن حبيب : نفس
المصدر ج ١ ص ٧٢ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٢ ،
المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ ج ١ ق ٣ ص ٧١١ ،
ص ٩٧٨ — ٩٨٤ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣٦٢ .

(٥٧) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٧١٤
Saunders : op. cit., p. 134.
(58) Ibi., p. 134.

(٥٩) ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٣ ، أبو المحاسن : نفس
المصدر ، ج ٨ ص ٧١ ، ٢١٣ .

ولكن التعاون والتقارب الذى تم فى المرحلة السابقة بين مغول ايران وبين مسيحيى الشرق والغرب خلف نتائج لابد من الاشارة اليها . فقد ارتفع شأن المسيحيين الشرقيين كثيرا فى امبراطورية المغول ، وظهر عطف المغول عليهم واضحا عندما فتح هولاكو بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، فقد قتل اهلها من المسلمين عدا القليل ، ولم يفعل ذلك بالنصارى ، بل ساعدهم وعين لهم من يحرسون بيوتهم ، فلجأ اليهم عدد كبير من المسلمين يطلبون الحماية فى هذه البيوت الآمنة (٦٠) . وعندما فتح المغول مدينة دمشق عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م عينوا فى حكمها اميرا مغوليا يميل الى المسيحية ويدعى ايل سنان ، فاستهز مسيحيو دمشق هذه الفرصة واجتمع اساقفتهم بهذا الحاكم الذى اعلى من شأنهم وزار كنائسهم ، وصارت لهم بذلك صولة وجولة على المسلمين ، وأرسلوا وفدهم الى هولاكو محملا بالهدايا لتأكيد هذه الصولة ، وفعلا عاد هذا الوفد الى دمشق يحمل فوق رأسه صليبا كبيرا واخذ يصيح بضم المسلمين ، وقام نصارى دمشق يدقون نواقيسهم ويرشون وجوه المارة من المسلمين بالخمر ، ويأمرون كل من يمرن به منهم فى الطرقات والأسواق بالوقوف تحية لهم واحتراما لصليبيهم ، واحتدت مشاعرهم حتى دخلوا بعض المساجد بظهورهم وعقدوا العزم على هدمها ان طال بقاء المغول فى بلاد الشام ، ولما اشتكى فقهاء دمشق الى ايل سنان هذا السلوك المشين اهانهم وطردهم . ولذلك كان رد الفعل عنيفا عندما هرب المغول من دمشق عقب هزيمتهم فى عين جالوت عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، فقد اتجه الناس الى دور النصارى وكنائسهم ينهبونها ويخربون منها ما استطاعوا ، كما اعتدوا بالقتل على بعض المسيحيين حتى لاذ كثيرون منهم بالفرار والاختفاء (٦١) .

ويبدو أن النصارى فى الموصل قد أساءوا الى المسلمين ايضا عندما احسوا بزحف المغول عليها عام ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م ، ولذلك قتلت جيوش الظاهر بيبرس كثيرا منهم ونهبوا أموالهم ، ولما استعاد المغول مدينة الموصل عام

(٦٠) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٩ .

(٦١) أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، العمري :

نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٥٩٣ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢ ،
ورقات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ .

٦٦٠هـ/١٢٦١م قتلوا من ساعد على قتل نصاراها ، ولولا عليها حاكمها نصرانيا عندما فتحوها للمرة الثانية عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م وتركوا معه شحنة (٦٢) من المغول ، وفعلوا نفس الشيء في جزيرة ابن عمر (٦٣) .

وفي بغداد استطال أمر النصارى بعد غزو هولاكو لها ، واهان الجائليق النصراني سكانها من المسلمين وأفسد أمورهم « وسكن مواطن الخلافة » . ولذلك دبر الظاهر بيبرس حيلة جعلت ابغا بن هولاكو يقتله عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م ، كما أمر الظاهر بيبرس أيضا بنهب اموال نصارى قيسارية وسبى اولادهم عندما خلصها من حكم المغول عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م (٦٥) ، مما يدل دلالة مؤكدة على مدى الصلة التي كانت تربط هؤلاء النصارى سواء في بلاد الشام او في العراق بالمغول ، هذه الصلة التي دعمتها البابوية وملوك اوربا ببعوثهم التي كانوا يرسلونها تباعا الى تبريز .

وكما ظهر نشاط البابوية وملوك اوربا واضحا في ايران وادى الى ما اشرنا اليه من عطف على مسيحيي الشرق والى تحالف مع مغول ايران ضد سلطنة الممالك في مصر والشام ، وخاصة في عصر هولاكو وابنه ابغا ، فقد ظهر نشاط البابوية واوربا ايضا في خانية القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق . فقد ارسالت البابوية برجالها من الفرنسيسكان الى تلك البلاد منذ وقت مبكر ، فممنذ عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وصلت بعثات كان هدفها نشر المسيحية وبناء الكنائس ، ونتج عن ذلك ان قوى نفوذ الكاثوليك وتكاثف باشتداد نشاط تجار جنوة الذين ازدادت اعدادهم في تلك البلاد وخاصة في المراكز التجارية التي اقاموها على سواحل شبه جزيرة القرم ، وارسل البابوات الى خوانين القبيلة الذهبية يعلنون مساندتهم للمبشرين الكاثوليك

(٦٢) شحنة لفظ تركي معناه رئيس الشرطة والموكل بالامن في بلد من البلاد . انظر : المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٧٩ حاشية (٣) ، سعيد عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام ، ص ٤٢٧ .
(٦٣) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٦١ .
(٦٤) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٨ ورقة ٤٤ .
(٦٥) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٣٨٩ .

ويطلبون السماح لهم بمد نشاطهم الى أقصى ما يستطيعون حتى ايران وآسيا الوسطى وبلاد الصين (٦٦) .

وقد نتج عن هذا النشاط التبشيري الأوربي في بلاد القفجاق ان ازداد التواجد المسيحي فيها وتدعمت المدن ذات الأغلبية المسيحية وخاصة في شبه جزيرة القرم مثل مدينة الكفا التي كان يسكنها تجار جنوة النصارى والذين كانوا يشكلون أغلبية السكان فيها ، ومثل مدينة صوداق (سرداق) التي كان يتقاسمها الترك المسلمون والروم المسيحيون (٦٧) . والمعروف ان خانية بلاد القفجاق كانت تضم بين سكانها أعدادا كبيرة من الجركس والروم والروس ، وكان كل هؤلاء يدينون بالنصرانية ، وكان بابوات روما لا يفتأون يدعمون هذا الوجود النصراني في دولة القفجاق (٦٨) ، مستغلين في ذلك الساحة الدينية التي تميز بها خوانين القبيلة الذهبية والتي يأمر بها الاسلام ، ورغم ذلك غقد كان الاسلام ينتشر في هذه المدن بالتدريج ، وعندما زارها ابن بطوطة عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وجد فيها مساجد خاصة بالمسلمين ، كما لاحظ ازدياد التواجد الاسلامي بازدياد عدد سكانها المسلمين الذين كان يحدث بينهم وبين سكانها من المسيحيين بعض النزاع والمشاحنات (٦٩) لخوف هؤلاء المسيحيين من ازدياد أعداد المسلمين .

وفي مملكة المغول في بلاد جفطاي (تركستان وما وراء نهر وغزنة) كانت البوذية كما أشرنا غالبية على حكامها قبل تحولهم الى الاسلام ، ولذلك لم يظهر نشاط مسيحي أوربي ذو بال في هذه البلاد الا في فترات بسيطة منها تلك الفترة التي أعقبت موت طرماشيرين عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م والذي كان قد اعتنق الاسلام واراد ان يحول مغول بلاده كلهم الى هذا الدين ، ولكن ابن اخيه الذي تولى عرش البلاد بعده بقليل وهو جنكشى خان كان بوذيا

(66) Saunders : op. cit., pp. 118, 169-170.

(٦٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٩ .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤

ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(٦٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، ٢٢٩ ، القلقشندي :

نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

وكان بهيل الى المسيحيين فطغى نفوذ النساطرة على المسلمين في سمرقند وتوهجت حركة التبشير بالمسيحية في عهده (٧٠) ولكنها انتهت بثورة قام بها المسلمون وقتلوا المطران في المايق عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م (٧١) .

ورغم هذه الهزيمة فقد واصل بابوات وملوك أوروبا ارسال المبشرين الى دولة المغول وحتى اقصاها في بلاد الصين ، ونجح احد المبشرين المسيحيين هناك في أن يحول الى المسيحية خلال سنوات قليلة عشرة آلاف مغولي ، كما حول امير قبيلة عنقوت Ongut من النسطورية الى الكاثوليكية ، وترجم الصلوات المسيحية الى اللغة المغولية ، فكافأه البابا كليمنت الخامس بأن عينه مطرانا لمطرانية خان بالق الجديدة عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م (٧٢) .

هذه في ايجاز هي العوامل الثلاث التي دعمت جانب النصرانية والبوذية في منافستها للاسلام نحو اكتساب المغول في ممالكهم الثلاث التي يعيننا الحديث عنها ، وهي مملكتهم في بلاد ايران والعراق وآسيا الصغرى ، ومملكتهم في بلاد القفجاق وخوارزم ، ومملكتهم في تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة . وقبل أن نتحدث عن العوامل التي رجحت كفة الاسلام في هذا التنافس لا بد أن نشير الى بعض العوامل التي ادت الى فشل النصرانية والبوذية في هذا الصراع او هذا التنافس في هذه الممالك الثلاث .

(ب) عوامل فشل النصرانية والبوذية في اكتساب المغول :

اول ما نشير اليه في هذا الصدد هو موقف المغول الرسمي من الأديان اذ ان هذا الموقف — كما سنرى — سوف يساعد على فشل النصرانية والبوذية في منافستها للاسلام في تبريز ، وسراي ، وسمرقند ، وما رايناها من ميل بعض الايخانات وخاصة في تبريز وسمرقند الى المسيحيين او البوذيين

(٧٠) هامبري : نفس المرجع ، ص ٥٤ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٩ .

Saunders : op .cit., pp. 172-173.

(71) Ibid., p. 172.

(72) Ibid : p. 153.

فى بعض الأحيان ، وقيام بعضهم باعتناق البوذية ، لم يؤثر كثيرا فى هذا الموقف الذى سوف نراه ، ولم يكن ميل بعضهم الى المسيحيين واعتناق بعضهم للبوذية إلا أمرا شخسيا ولم يكن اتجاهها عاما كما وضع من احداث التاريخ ، اذا انهم لم يحملوا الناس على ما ذهبوا اليه من مسيحية او بوذية ، ولأن هذا الميل كان لاهداف سياسية سوف نشير اليها فى نهاية هذا الحديث .

وموقف المغول الرسمى من الأديان وسياتهم العامة تجاه أصحابها يتلخص فى أنهم وقفوا موقف الحياد بينها ولم ينحازوا الى دين معين منها . وقد أشار الى هذا الموقف المحايد الكتاب المسلمون وغير المسلمين ، وقالوا ان جنكيزخان ومعظم اولاده واحفاده الذين تولوا حكم الامبراطورية قبل تحولهم الى الاسلام ، كانوا يقدرّون العلماء والمتدينين من سائر المذاهب والأهم سواء كانوا من الوثنيين ام من النصارى ام من المسلمين ، وانهم اسقطوا عنهم « جميع المثونات والأوزان والتكاليف » وأحسنوا اليهم (٧٣) . وامتاز جنكيز خان على وجه الخصوص بمساواته بين الأديان جميعا دون ان يعتنق واحدا منها (٧٤) ، وظل على عقيدته الشامانية التى لم يفرضها على الآخرين ، ومنح كل الحرية لجميع العقائد والمال والنحل ، وتمتع المسيحيون والمسلمون واليهود والبوذيون بكامل حريتهم فى إقامة شعائرهم الدينية (٧٥) ، وجرى خلفاؤه على هذه السياسة وعلى إقامة المساواة بين الناس جميعا بصرف النظر عن اختلاف عقائدهم وطبقاتهم (٧٦) ، فهم « لا يتعصبون لمذهب » ، « وكان من عادتهم ان كل من انتحل منهم مذهباً لم ينكره الآخر عليه » (٧٧) . ولذلك كان المغول أحراراً فى اعتناق ما يرونه او يميلون اليه من الأديان دون خوف من الخوانين او الحكام الذين كانوا على غير دين الاسلام .

(٧٣) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٥٩ ، ٤٩١ ، ابن الفوطى نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤١١ .

(٧٤) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦١ .

(75) Saunders : op .cit., p. 68.

(٧٦) هامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨١ ، ١٨٢ براون : نفس

المرجع ، ص ٥٦١ .

(٧٧) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣١٠ ، ٣١٢ .

هذا وقد اعطيت هذه السياسة وهذا الموقف الحيادي للدولة تجاه الأديان وتجاه أصحابها والداعين لها الفرصة كاملة للمنافسة الحرة بين الاسلام دين الأغلبية في النصف الغربي من الامبراطورية الذي نعتيه بحديثنا ، وبين غيره من الأديان التي كانت تنافسه في اكتساب المغول في هذا الجزء من الامبراطورية ، كما اضعفت هذه السياسة من غلواء بعض الخوانين والأمراء والحكام من المغول الذين كانوا واقعين تحت تأثير زوجاتهم المسيحيات أو تحت تأثير وزراءهم المسيحيين ، كما انها اتاحت الفرصة لاقامة المناظرات الدينية بين علماء الاسلام وعلماء المسيحية أو البوذية أو الشامانية في حضرة الخوانين والحكام من المغول . وكان لهذه المناظرات تأثيرها في تحول بعض المغول الى الاسلام ، اذ كان النصر في هذه المناظرات من نصيب علماء الاسلام ، وكان يعقب هذا النصر في غالب الأحيان تحول الكثيرين الى هذا الدين (٧٨) .

وفي الوقت الذي وقف فيه معظم خوانين المغول وملوكهم من الأديان على هذا النحو . نرى المبشرين المسيحيين شرقيين وغربيين لا يدركون هذا البعد في سياسة المغول ، ويظنون خطأ أنهم على وشك التحول الى المسيحية فآخذوا يركزون نشاطهم في معظم الأحيان على قراقورم عاصمة الامبراطورية وعلى الخوانين العظام أنفسهم ، ربما لاعتقادهم انه اذا اعتنق احد الخوانين هذه الديانة ، لاعتنقها المغول في جميع انحاء الامبراطورية ، ولم يدروا ان هذه الامبراطورية قد انقسمت في الواقع الى ممالك اربع لكل منها بيت بحكمها ، ولا بد ان يراعى هذا البيت الحاكم مصالحه الذاتية اولا ثم مصالح الامبراطورية ثانية . وكانت هذه المصالح لا بد ان تتلاقى يوما ما مع الاسلام حين الأغلبية العظمى للشعوب والبلاد التي قامت فيها ثلاث من دول المغول في تبريز وسراي وسمرقند . وعلى ذلك لم ينجح المبشرون خارج قراقورم في تنصير احد من خوانين او ملوك المغول فيها عبدا صرتق Sartak ابن باطو خان ، وفي قراقورم ذاتها لم ينجحوا في تنصير خان واحد رغم نجاحهم في تنصير بعض الوزراء والزوجات (٧٩) .

(٧٨) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥١ ، فامبري : نفس المرجع ،

جس ١٨١ ، ١٨٢ .

(79) Saunders op. 181-182.

ويرجع السر في ذلك الى أن المبشرين المسيحيين لم يكونوا فيما بينهم على وفاق . فقد كانت البعثات التبشيرية الأوروبية تنظر الى النسيطرة على انهم هراطقة ، ولذلك تنافسوا ههنا بينهم في أن يجذب كل منهم اتباع الآخر نحو مذهبه أكثر من أن يجذبوا معا المغول الوثنيين الى المسيحية . وقصة العنجوت أو التتار البيض الذين استطاع جون مونتي كاربنى أن يقنع اميرهم جورج بترك النسطورية والتحول الى الكاثوليكية (٨٠) تعلن بجلاء عن هذا الصراع الداخلى الذى كان دائرا بين المبشرين الغربيين والشرقيين مما اضعف كلا الفريقين امام نشاط الدعاة من المسلمين .

يضاف الى ذلك أن هذه البعثات التبشيرية الأوروبية لم تتصف في عملها أو في دعوتها للخوانيين بالحيلة والدهاء (٨١) الذى تتصف به في الوقت الحاضر . فقد كانت تطلب من الخوانيين باسم البابا التحول الى المسيحية ، وهذا التحول معناه انهم سوف يخضعون للبابا الذى كانت له سلطة زمنية في أوربا في ذلك الحين ، فهو الذى كان يضع التاج على رعوس ملوكها وابطارتها كما هو معروف ، ولم تفهم هذه البعثات أن نفسية هؤلاء الحكام الذين حكموا أكثر من نصف العالم المعروف وقتذاك كانوا يأنفون من أن يخضعوا لأحد ، بل كانوا يأنفون من مصاهرة الملوك الآخرين ولا يزوجونهم من بناتهم المغوليئات . على اعتبار انهم أقل منهم شأنا ، وعلى أساس أن هؤلاء الملوك لابد انهم سيدخلون في طاعتهم يوما ما فيصبحون اتباعا لهم ، ولا يصح في نظرهم أن تقوم مصاهرة بين التابع والمتبوع على هذا النحو (٨٢) .

ولذلك فضل خوانيين المغول في قراقورم اعتناق البوذية ، وكذلك فعل معظم ايلخانات المغول في سمرقند وتبريز قبل تحولهم الى الاسلام . وبذلك قضى نهائيا على أمل المسيحيين في تحويل شعب المغول الى المسيحية وفشلت بعثاتهم في ذلك فشلا ذريعا ، ولم تنجح الا في استدراج عطف الخوانيين على

(80) Saunders : op. cit., pp. 152-153, 182.

(٨١) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٢ .

(٨٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ ، محمد جمال الدين سرور

دولة بنى قلاوون في مصر ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

المسيحيين القليلين الذين كانوا يعيشون في كنفهم (٨٣) ، كما فشلت بعثاتهم أيضا في إيجاد تحالف بين المغول وأوروبا ضد الإسلام والمسلمين ، ذلك أن خوانين المغول في قراقورم أخبروا رجال تلك البعثات بأن عليهم أن يبلغوا البابوات وملوك أوروبا وأمرائها أن يعلنوا الطاعة للمغول قبل أن يطلبوا التحالف معهم (٨٤) . أما التحالف الذي أبرم بين الصليبيين وبين مغول إيران بالذات فقد أصبح ضعيف الأثر بعد هزيمة المغول في عين جالوت عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م وفيما تلى ذلك من معارك نشبت بينهم وبين الظاهر بيبرس الذي تحالف مع مغول التتار الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام ، مما دفع بمغول إيران إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة وانصرفوا إلى حد كبير عن تأييد المسيحية (٨٥) .

ويعود فشل هذه البعثات أيضا إلى عوامل أخرى منها أنها لم تكن عديدة وكافية ، فلم نسمع إلا عن بعثة كارييني وبعثة روبروك وبعض البعثتين الآخرين القليلين ، ولم يكن من السهل تزويد هذه البعثات بمطوعين يحدد يصلحون لذلك العمل الشاق ، ونادرا ما كانت تجد مساندة من حاكم الدولة أو الإقليم الذي كانت تعمل فيه . يضاف إلى ذلك أن هذه البعثات كانت في تنافس شديد مع اثنتين من الديانات المنافسة وهما البوذية والإسلام وكانت البوذية يدين بها أغلبية الناس في شرقي الإمبراطورية المغولية ، وكان الإسلام يدين به غالبية الناس في غربي تلك الإمبراطورية ، وكان حكام المغول يعلمون تماما عدم الحكمة في معاداة الغالبية العظمى من سكان هذه الشعوب التي أصبحوا يحكمونها (٨٦) . ولذلك اعتنق هؤلاء الحكام البوذية في شرقي الإمبراطورية والإسلام في غربيها ، ولاقت المسيحية هزيمة قاسية لم تتفق منها أبدا ، ولم تفشل فقط في فتح ميادين جديدة لها في شرقي آسيا ، بل أنها فقدت الأرض التي كانت تقف عليها في العالم الإسلامي ، حيث ضعفت الكنائس

(٨٣) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٢ ،

Saunders : op. cit., p. 181-182.

(84) Saunders : op. cit., pp. 94-96.

(٨٥) أرنولد : نفس المرجع : ص ٢٥٤ .

(86) Saunders : op. cit., p. 182.

التي كانت ذات يوم مزدهرة ، ونزل اتباعها الى مستوى الاكثليات الصغيرة وخاصة بعد أن تحول خوانين المغول الى الاسلام (٨٧) .

ومن الأمور التي أدت الى هذه النتيجة أيضا ما قام به المسيحيون في غربى آسيا من مظائع في دمشق وغيرها من مدن الشام وإيران والعراق ووسط آسيا ضد المسلمين أبان غزوات المغول لتلك البلاد وأبان حكمهم لها . فقد أساء هذا العمل الى هؤلاء المسيحيين وإلى سمعتهم كثيرا ، وأدى الى تعرضهم لرد الفعل المضاد عقب انسحاب المغول من بلاد الشام ، أو عقب تحول هؤلاء المغول الى الاسلام في البلاد التي بقيت تحت حكمهم مثل إيران وبلاد القفجاق وآسيا الوسطى ، مما أضعف من كيان المسيحية في تلك البلاد وأدى الى فشلها في جذب المغول اليها (٨٨) .

يضاف الى ذلك أيضا أن كثيرا من رجال الدين النساطرة انشغلوا عن نشر المسيحية بتكالبهم على بيع المناصب الدينية وبناحرافهم عن تعاليم المسيحية . وقد وصفهم بذلك وليم روبروك الذي كان قد أرسله القديس لويس سفيرا من قبله الى الخان الأعظم في قراقرم عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م لحثه على نشر المسيحية في بلاده بعد أن كانت أخبار كاذبة قد وصلت من قبل الى أوربا تفيد باعتناق هذا الخان للمسيحية . وقد قال هذا المبشر أكثر من ذلك ورمى النساطرة هناك بالجهل بتعاليم دينهم وبشرب الخمر والفسق والجشع وعدم الاكتراث إلا بجمع المال (٨٩) .

والأمر المثير للدهشة هو فشل المسيحية في بلاد القفجاق حيث كانت تلك البلاد قريبة من مواطن النصرانية سواء في بيزنطة أم في أوربا والحدود بينهما مشتركة ، والتلاصق شديد ، وشعوبها أكملها ممن كانت تدين بالطاعة للمغول القفجاق كانت شعوبا نصرانية مثل الجركس والروس وبلغار الدانوب ومعظم سكان شبه جزيرة القرم ، ورغم ذلك فقد فشلت النصرانية في جذب مغول

(87) Ibid., p. 182.

(٨٨) انظر ما سبق ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٨٩) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

القنفجاق اليها (٩٠) ، ويعود هذا الفضل الى ان خوانين هؤلاء المغول كانوا اول من اعتنق الاسلام من خوانين المغول كافة وعملوا على نشره في بلادهم ، كما ان المستوى الثقافى للسكان المحليين من المسيحيين في تلك البلاد لم يكن كافيا لاثارة احترام المغول وجذبهم الى هذه الديانة ، في الوقت الذى كان المسلمون يحظون فيه بمستوى ثقافى واجتماعى ارقى وافضل ، وفي الوقت الذى كان ضغط الاسلام يتدفق قويا ومؤثرا على هؤلاء المغول من ثلاث نواح : من الشرق حيث خوارزم وتركستان الاسلامية (٩١) ، ومن الشمال حيث شعب البلغار (بلغار الفولجا) المسلم ، ومن الجنوب حيث سلاجقة الروم المسلمون . كما ان تحالف القنفجاق مع مصر قوى من الحركة الاسلامية واضعف من التبشير المسيحى في تلك البلاد ، وكان هذا التحالف مبكرا وذا اثر عظيم من هذه الناحية التى سوف نتناولها بتفصيل عندما نتحدث عن مظاهر انتشار الاسلام بين المغول في فصل قادم من هذا الكتاب .

هذا عن المسيحية وفشلها في جذب المغول اليها في ممالكهم الاربع ، أما البوذية فقد حققت نصرا في دولة واحدة من دول المغول الأربعة ، وهي دولتهم في بلاد الصين والخطا ومنغوليا حيث يدين اغلبية الناس هناك بالبوذية وغيرها من الأديان الوثنية المنتشرة في تلك البقاع مثل الشامانية والهندوسية والكونفوشيوسية . أما في باقى انحاء الامبراطورية فقد فشلت البوذية في جذب المغول اليها مثلها في ذلك مثل المسيحية ، ذلك لأن البوذية انقسمت على نفسها الى فرق متنافسة ، ولم تقو هذه الفرق المتنافسة على الصمود امام الاسلام كديانة يعتنقها معظم السكان في غربى ووسط آسيا . ورغم انتشار البوذية المحدود في تلك المناطق ايام هولاكو ومن اتى بعده من الايلخانات البوذيين ، فقد انتهى هذا المد البوذى في ايران باعتلاء غازان بن ارغون بن ابغا بن هولاكو العرش عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م حيث اعتنق الاسلام وعمل على نشره بين قومه من المغول (٩٢) . كما فشلت البوذية أيضا

(٩٠) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ،

٤٦٦ .

(٩١) Saunders : op. cit., pp. 182-183.

(٩٢) ابن حبيب ، نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٣ .

ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ،

Ibid., pp. 179-181

فى بلاد القفجاق ، لأن الاسلام كان قد استقر فى قلوب سكانها وحكامها من المغول ، فهم أول من اعتنقوا الاسلام بين المغول كافة كما سبق القول . ، وكان ذلك بعد مضى حوالى عشرين عاما من فتحهم لتلك البلاد ، هاضمحت البوذية وهجرت معابدها هناك واختفى كهنتها وعاد معتنقوها الى ديانتهم السابقة وتحولوا الى الاسلام فى النهاية (٩٣) .

واذا كانت المسيحية والبوذية قد فشلتا فى جذب المغول اليهما فيما عدا مغول الصين والخطا الذين تحولوا الى البوذية ، فبماذا نفسر مظاهر العطف الذى أظهره المغول على المسيحيين المقيمين فى امبراطوريتهم ، والتعاون الذى ظهر بين مغول ايران ومسيحيى الشرق والغرب ؟ وتفسير ذلك ليس بالأمبر العسير اذا عرفنا ان المغول اساسا كانوا يهدفون من وراء ذلك الى اقامة توازن — بقدر المستطاع — بين الاسلام الذى يدين به غالبية سكان لامبراطورية فى نصفها الغربى ، وبين البوذية التى يدين بها غالبية سكان نصفها الشرقى ، وبين المسيحية ذات الفعالية فى أجزاء كثيرة من الامبراطورية وخاصة فى ارمينيا وجورجيا وبلاد الروس والجرىس والبلغار . وربما اراد المغول ان يضربوا معتنقى هذه الديانات ببعضهم حتى يستقر سلطانهم ويتوطد حكمهم فى تلك البلاد الشاسعة المتعددة الجنسيات والالوان والديانات ، فكانوا يقربون المسلمين والمسيحيين فى قراقرم حيث تسود البوذية وكانوا يقربون المسيحيين والبوذيين فى تبريز وسمرقند حيث يسود الاسلام ، كما اقام مغول سراى فى بلاد القفجاق هذا التوازن بين المسلمين والمسيحيين نظرا لكثرة عدد الاخيرين فى بعض اقاليم دولتهم التى تدخل فى نطاق اوريا الشرقية المسيحية فى ذلك الوقت .

اذن فهذا العطف الذى أبداه المغول تجاه بعض الديانات فى اقاليم بذاتها كان هدفه هو توفير الاستقرار الداخلى باقامة نوع من التوازن بين عناصر السكان وطوائفهم واديانهم . أما توفير الأمن الخارجى لدولتهم وخاصة فى مملكة ايران ، فقد اضطرهم الى اقامة بعض الاتصالات مع بابوات وملوك اوربا لاستغلال تلك القوى الكارهة والمعادية للاسلام فى ضرب سلاطين مصر والشام الذين كانوا قد تصدوا للبد المغولى وقضوا عليه فى موقعة عين

جاءت ووقفوا له بالمرصاد بعد ذلك عندما حاول ان يعيد الكرة عدة مرات طوال النصف الأخير من القرن السابع الهجرى / النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد (٩٤) . وبعبكس ذلك فقد رأى مغول القفجاق ان تحقيق أمن بلادهم يكمن فى التحالف مع مصر لأن هؤلاء المغول كانوا قد اسلموا ورأوا فى اخوانهم من مغول ايران الوثنيين ما يهدد أمن بلادهم وعقيدتهم .

اذن فتحالف مغول ايران مع الغرب الأوروبى ومسيحيى الشرق فى جورجيا وأرمينيا والامارات الصليبية فى بلاد الشام، لم يكن نابغا عن كراهيتهم للاسلام. بقدر ما كان نابغا من الخوف من التحالف الذى تم بين مصر ومغول القفجاق . وقد رأى مغول ايران بعد ذلك ان اعتناق الاسلام سوف يتقدم من هذا الوضع الذى اصبحوا فيه يقعون بين سطوة الاسلام فى الشمال حيث مغول القفجاق المسلمون ، وفى الغرب حيث سلاطين المماليك فى مصر والشام . وقد حدث هذا التحول اخيرا عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٥ م عندما اعتنق ايلخان ايران السلطان غازان الاسلام وتعاقب بعده فى حكم ايران سلاطين من المغول المسلمين منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية دولتهم (٩٥) .

وتطورت الأحوال فى مملكة جفطاي فى تركستان وما وراء النهر أيضا على هذا النحو بعد أن اشتد ضغط الاسلام عليها من الجنوب بعد تحول مغول ايران الى الاسلام ، ومن الشمال والغرب حيث مملكة مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق الذين كانوا أول من اعتنق الاسلام بين المغول كافة . وانتهى الأمر بدخول ماوك الجفطانيين فى الاسلام منذ عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٥ م عندما

(٩٤) عن محاولات غزو المغول لبلاد الشام ، انظر : ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٢ — ٦٣ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٢٤٢ ، ٦٢٩ ، ج ١ ق ٣ ص ٦٩١ — ٦٩٥ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٨٦ ، ٨٨٨ ، ٨٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٣٩ ، ابو الحسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٧٩ — ٨٠ ، ٢٩٨ — ٣٠٦ ، ج ٨ ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣٦ — ١٣٩ .

(٩٥) ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٣ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٨٠٥ ، ابو الحسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٧١ .

أفتتق طرماتشيزين الاسلام وتعاقب فى حكم بلاد جغتاي مغول مسلمون منذ ذلك التاريخ (٩٦) .

وهكذا حقق الاسلام نصرا ساحقا فى هذه الممالك الثلاث ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لفشل النصرانية والبوذية الذى اشرنا اليه فى كسب مغول تلك الممالك ، ولعوامل اخرى معينة ادت الى نجاح الحركة الاسلامية فى كسب هؤلاء المغول والى ضمهم لمعسكر الاسلام . فيا ترى ما هى هذه العوامل التى ادت الى هذه النتيجة ؟ انه لحق علينا ان نتحدث عن هذه العوامل بعد ان تحدثنا من قبل عن العوامل التى ادت الى عطف بعض حكام المغول على المسيحية والى اعتناق بعضهم للبوذية ، والى رفع حرارة المنافسة بين هاتين الديانتين وبين الاسلام فى هذه الممالك الثلاث .

الفصل الثاني

عوامل انتشار الاسلام بين المغول

هناك عوامل عديدة أدت الى تغلب الحركة الاسلامية في ممالك المغول الثلاث : في بلاد ايران وآسيا الصغرى والعراق ، وبلاد القفجاق وخوارزم ، وفي بلاد تركستان وما وراء النهر وغزنة ، بمعنى أن مغول هذه الممالك اعتنقوا الاسلام بعد صراع طويل ومنافسة شديدة طال زمنها مع البوذية والنصرانية حتى تراوح ما بين العشرين عاما الى المائة عام ، وهى الفترة التى يمكن ان نطلق عليها فترة الحكم الوثنى المغولى لهذه الممالك الثلاث ، لأن أغلب حكامها كانوا من الوثنيين : بوذيين او شامنيين وان تخللها بعض الحكام المسلمين الذين لم يستطيعوا الصمود امام المنافسة وامام مؤامرات البلاط التى كانت تدفع بحاكم الى العرش وبآخر الى القبر . ولكن الاسلام تغلب فى النهاية على الجميع ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لعوامل عديدة ، اولها احوال المغول الدينية والحضارية وتدنيها وما كان لذلك من اثر فى قبولهم للاسلام وحضارته ، وثانيها زواجهم من مسلمات وما كان لذلك من اثر فى اسلامهم ، وثالثها استخدامهم لوزراء وموظفين من المسلمين فى معظم مناصب الدولة العليا واداراتها فى العاصمة والاقاليم ، ورابعها ما كان من اثر الأغلبية المسلمة من الفرس والترك الذين عاش المغول بينهم ، وخامسها هو تأثير الطرق الصوفية البالغ فى تحويل خوانين المغول وامرائهم الى الاسلام ، وساسها ما كان للتجارة والتجار من اثر لا يفكر فى هذا التحول الهام والانتقال العظيم فى حياة المغول فى هذه الممالك الثلاث .

ولا بد لنا من افراد كل ناحية من هذه النواحي ، او كل عامل من هذه العوامل بحديث خاص نجلو به ما غمض فى كيفية تحول هؤلاء المغول الى الاسلام ، وكيفية تغلب الاسلام على البوذية والنصرانية فى هذا المجال .

١ — أحوال المغول الدينية والحضارية :

سبقنت الإشارة الى ان المغول كانوا بصفة عامة قبائل من البدو الرحل ، وحياة البادية كما هو معروف لا توفر للناس حياة الاستقرار وما تؤدي اليه هذه الحياة من ظهور انماط من المدنية والحضارة كانت لا تظهر عادة فى تلك العصور الا فى احواض الأنهار وأوديتها حيث يسود الاستقرار ويزدهم العمران ، وعلى ذلك فلم يعرف المغول شيئاً ذا قيمة عن الحضارة سواء فى مظاهرها المادية او الفكرية كما عرفها المسلمون وقتذاك سواء كانوا عرباً ام فرساً ام تركاً ، ذلك ان المغول أتوا من اقليم جدد موحش لا يتحمل مزيداً من السكان ولا تطيب الحياة للناس فيه بسبب فقره وعدم توفره لما يقيم أود الناس وما يكفيهم من طعام وشراب (١) . ولذلك كانوا دائماً فى حل وترحال ، لا يقر لهم قرار ، ولا يرتفع لهم جدار ، لا يعرفون للحضارة معنى . . أميون أغبياء ، يتمرنون على ركوب الخيل منذ نعومة أظفارهم . . ليس عندهم طقوس دينية ولا شرائع قضائية (٢) .

ولذلك وقفوا مذهولين امام حضارة الاسلام بعد ان هدأت ثورة فتوحاتهم وغزواتهم ، شددتهم حياة الاستقرار وجذبتهن مدن الاسلام بما فيها من قصور ودور وحمامات ومدارس ومساجد وحدائق لم يعرفوها من قبل ، رأوا حياة اجتماعية واساليب معيشية رائية لم يسمعوها بها فى حياة البادية المليئة بالشظف والمعاناة ، رأوا مثلاً وقيماً اسلامية فاقت ما كان لديهم من قيم ومثل لا تعبر الا عن الهمجية والوحشية والقسوة وسفك الدماء ، وتغلب القوى على الضعيف وخضوع الأصغر للأكبر وطاعته له دون منافسة والا كان مصيره القتل . فما بالك يقوم يتزوج الابن منهم نساء أبيه بعد وفاته ، ولا يرون غسل ثيابهم البتة حتى تبلى ، ولا يميزون بين طاهر ونجس ، ويقتلون

(١) هامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦١

Saunders : op. cit., p. 776.

(٢) باسيلبوس خرباوى : تاريخ روسيا ، ص ٥٩ .

من أعلى بضاعة وخسر فيها ، ويقتلون الأسير ومن أطعمه أو سقاه أو كساه بغير إذنهم (٣) .

فإذا اتينا الى الاسلام نجده ينهى عن ذلك كله ، فهو دين الرحمة والعدالة والمساواة ، فلا فرق عند الحاكم المسلم بين قوى وضعيف أو صغير وكبير ، والحاكم نفسه لا ميزة له على الناس وليس بخيرهم وإنما هو رجل يحمل عبء سياستهم ويسهر على مصالحهم ، وطاعة الناس له مرتبطة ومشروطة بطاعته وتنفيذه لأوامر الله وسنة نبيه ، وللمسلمين عزله إذا خالف ذلك أو إذا لم يحسن عمله (٤) ، والاسلام يجعل النظام من الايمان ويجعل الطهارة شرطاً أساسياً لأداء بعض الشعائر الدينية كالصلاة ، ولا يأمر بقتل الأسرى ويجعل معاملتهم حسبما جاء في الآية الكريمة التي تشير بالإن عليهم باطلاعتهم أو قبول الفدية نظير ذلك (٥) .

وما بالك بأقوام يتباهون ويعلنون هي كتبهم ورسائلهم التي كانوا يبعثون بها الى ملوك الاسلام انهم أبادوا الأمم واهلكوا الشعوب وأحرقوا المدن ، ولا ينجو منهم أحد حتى ولو صعد الى السماء أو نزل الى اعماق الأرض ، وانهم لا يرحمون من بكى ولا يرقون لمن شكى وانهم أخرجوا البلاد وأمنوا العباد وابتغوا الأولاد وتركوا في الأرض الفساد (٦) . وكانوا فعلاً ينفذون تهديداتهم ويقتلون جميع السكان سواء قاوموهم أو استسلموا لهم لا فرق عندهم بين طفل وكبير وامرأة ورجل ، وشيخ هرم وشاب فتى (٧) .

(٣) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٦ ، ٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ١٧٠ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١١ ، ٣١٢ ، ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) ابن قتيبة الدينوري : الامامة والسياسة ، ج ١ ص ١٦ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة محمد ، آية رقم ٤ .

(٦) ابن العبري : نفس المصدر ، ص ٤٨٤ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ .

(٧) ابن العبري : نفس المصدر ، ص ٤٨٨ ، باسيلئوس خرباوى : نفس المرجع ، ص ١٠ .

وما بالك بأقوام لم يكتفوا بذلك بل اقدموا على اطفاء شعلة المدنية والحضارة بقتلهم لآلاف العلماء والفقهاء وتخريبهم للجوامع والمساجد والمشاهد واحراقهم للمكتبات والقضاء ما لم تلحقه النار مما كان بها من كتب فى الانهار ، كما حدث لمكتبات بغداد وغيرها ، وكما حدث لعلمائها وعلماء المدن الاسلامية الأخرى من قتل وذبح حتى فر منهم الآلاف الى مصر والهند وغيرها يلتمسون المأوى والأمان من هذا الطوفان الوثقى الذى طم وعم ونكب الاسلام بما لم يحدث من قبل (٨) .

هذا فى حين ان الاسلام وحضارته ينهى عن ذلك كله ويأتى بما يناقضه تماما . ففى القتال يقول سبحانه وتعالى : « وقتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٩) فالقتال للدفاع وليس العدوان ، واثناء القتال لا يصح للمسلمين ان يقتلوا شيخا او عجوزا او طفلا او امرأة ، وعليهم الا يتعرضوا بسوء للكتابيين الذين فرغوا انفسهم للعبادة فى اديرتهم ومعابدهم . وعليهم الا يهدموا منزلا ولا يقتلعوا زرعاً ولا يحرقوا نخلاً ، كما جاء فى وصايا الخلفاء الراشدين لجيوشهم جندا وقوادا (١٠) .

ولذلك اعتنق الناس الاسلام فى كل بلد دخله هذا الدين ، والتحم المسلمون الجدد فى هذه البلاد بالمسلمين الوافدين من شبه جزيرة العرب وتعاونوا سوياً فى اقامة صرح الحضارة الاسلامية ، وضربت شعوب الاسلام بصقعة عامة من عرب وفرس وترك ومصريين ومغاربة واندلسيين بسهم واغر فى هذا الميدان فى العصور الوسطى . وكان على المغول ان يتأثروا ، وكان عليهم ان تالين قلوبهم التى قدت من الصخر ، وكان عليهم ان يتعلموا او يتثقفوا بثقافة الاسلام ويلتحفوا بحضارته ، وكان عليهم فى النهاية ان يتحولوا الى دين هذه الحضارة التى بهرتهم وجعلتهم يلقون سلاحهم لأول مرة ، والى دين هذه الأغلبية المسلمة المتحضرة التى عاشوا بينها وحكموها ،

(٨) المقرئى : نفس المصدر : ج ١ ق ٢ ص ٤١٠ ، ٤٢٢ .

(٩) سورة البقرة آية رقم ١٩٠ .

(١٠) الكاندهلوى : حياة الصحابة ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

والتي جعلتهم يضعون يدهم على ما فى ديانة الاسلام من قيم ومثل ونظم اجتماعية راقية (١١) .

ولذلك لم يكن تحول المغول الى الاسلام الا مسألة وقت ، خصوصا وأن ديانة المغول وهى الديانة الشامانية كانت ديانة بدائية وثنية لا تقوم على اسس اخلاقية ولا تستطيع أن تقاوم طويلا جهود الاسلام صاحب الاتباع والانصار وصاحب الأعداد الكبيرة من الفقهاء والعلماء الذين يملكون قوة الاقتناع وسد حاجات العقل . فكيف يقف المغولى الذى يعبد الشمس او الاصنام او ارواح الأجداد القدامى امام ديانة الاسلام (١٢) ، وكيف تقف الشامانية أمام هذا الدين الذى كان دينا عالميا ولم يكن قاصرا على جنس او شعب بذاته والذى يتلاءم مع كافة العناصر والشعوب والأمم والبلدان ، والذى كانت شعوبه متفوقة على الأقل من الناحية المادية والمعنوية على غيرها من كل البلدان المتقدمة فى ذلك الحين (١٣) .

ولذلك هان جموع المغول المخربة لم تضطهد دين الاسلام الا فى بعض الأحيان التى أثرت فيها ونتيجة لعوامل سياسية ، ولم تلبث تلك المجموع ان تأثرت به فى النهاية وتحولت اليه وانفعلت بالحضارة الاسلامية التى عاشت فى ديارها وتذوقت ثمارها وتحولت الى بناء للمدنية التى ازدهرت على أيديهم ازدهارا ملحوظا حتى أن كثيرا من المؤلفات الاسلامية ظهرت وترجمت فى عصر ايلخانات فارس (١٤) ، ومن عجب ان هولاء الذين حطم الخلافة العباسية فى بغداد والذى يعتبر أكبر عدو للإسلام كان يشمل برعايته اثنين من كبار الكتاب

(١١) رشيد الدين الهمداني : ج ١ م ٢ ص ٨٤ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ١٢ .

Saunders : op. cit., pp. 182-183.

(١٢) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٣٦٠ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١٠ — ٣١١ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٤ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥١

Saunders : op. cit., p. 68.

(١٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٧٠ ، محمد عبد المنعم الشرقاوى : أفغانستان ، ص ٤٠ .

(١٤) محمد عبد المنعم الشرقاوى : نفس المرجع ، ص ٤٠ .

المسلمين في زمانه ، أحدهما نصير الدين الطوسي والآخر عطا ملك الجويني (١٥) .

وقد سبقنا الإشارة إلى ما تميز به المغول بصفة عامة من سماحة دينية وعدم انحيازهم لدين معين ، وأن ذلك أتاح حرية المنافسة بين الإسلام وبين المسيحية والبوذية ، وأدى ذلك في النهاية إلى تغلبه على هاتين الديانتين اللتين كان مبشروهما يتجهون بنشاطهم إلى الطبقة العليا من المجتمع المغولي ، بينما كان دعاة الإسلام يتجهون إلى هؤلاء وإلى غيرهم من طبقات المغول الأخرى ، فأخذ الإسلام ينتشر بينهم دون أن يشعر به الناس . وقد ساعد على ذلك عامل آخر هو اختلاط المغول بالفرس والترك المسلمين ومصاهرتهم ، وهنا يبرز أثر الزوجات المسلمات .

٢ — أثر الزوجات المسلمات :

ذلك أن كثيرا من خوانين وإيلخانات وأمراء وقواد المغول تزوجوا بتركيات وفارسيات مسلمات ، واتخذوا من الأسيرات المسلمات سراري وحظيات ، وكان لذلك بالطبع أثره الكبير في بلاط المغول وفي الأسرات المغولية بصفة عامة ، فقد أصبح البلاط المغولي يهوج بالعديد من النساء المسلمات اللاتي كان لهن تأثير كبير على رجال هذا البلاط ، فتحول كثير من الأمراء إلى الإسلام قبل أن يصبح هذا الدين هو الدين الرسمي للمغول . كما أن البيت المغولي ضم العديد من المسلمات اللاتي كن يشرفن على تربية الأولاد ويقمن بشئون الخدمة في البيت ، وكان لهذا أثره أيضا في انتقال أساليب الحضارة الإسلامية في المعيشة والعادات والتقاليد إلى هذه الأسر المغولية البدائية ، وكان هذا — بجانب العوامل الأخرى — ممهدا لتحويلها إلى الإسلام .

وقد ذكر لنا المؤرخون أن جنكيزخان بعد أن تغلب على خوارزمشاه عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م ، أسر أمه وبناته وتزوج ابنه جوجي واحدة منهن ، وتزوج بعض أمراء المغول باقيهن . ويذهب إلى أن جوجي هذا هو جد بركة خان سلطان القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق ، والذي كان أول من أسلم من ملوك

(١٥) ابن الفوطي : نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، براون : نفس المرجع

المغول كافة حوالى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، وغضب لغزو هولاكو لبغداد وتوعدده بالقتال جزاء ما أصاب خليفة المسلمين وبغداد من دمار وقتل وتخريب (١٦) .

ويخبرنا ابن العبرى المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث وكذلك رشيد الدين الهمداني أن هولاكو عندما فتح بغداد ووقع الخليفة العباسى المستنصر فى يديه ، تظاهر فى البداية بالابقاء على حياته وسمح له باختيار مائة من نسائه السبعمائة ، وأخذ هولاكو باقيهن . ثم صار كل هذا العدد الكبير من النسوة بأجمعه تحت حوزة هولاكو وتصرفه بعد قتل ذلك الخليفة . ويخبرنا رشيد الدين الهمداني بأن ابغا (اباثا خان) الذى خلف اياه هولاكو على عرش ايران كانت احدى زوجاته مسلمة ، وأن احمد تكودار بن هولاكو والذى كان اول من اسلم من ايلخانات ايران كانت زوجاته مسلمات ، كما كانت احدى زوجات ارغون خان بن ابغا خان بن هولاكو مسلمة ، وربما كانت هذه الزوجة المسلمة هى المحظية الى اثار اليها رشيد الدين الهمداني باسم قولناق ايكاجى والتي كانت اما لابنه غازان الذى اسلم ، واسلم باسلامه معظم المغول ، وقد اتخذ الابن الثانى لأرغون وهو اولجايتو خان زوجاته ايضا من المسلمات (١٧) بل ان هذا الخان نفسه الذى اسلم وتسمى باسم السلطان محمد خدا بنده وحكم ايران وما يتبعها من بلاد الاسلام (٧٠٣ — ٧١٦ هـ / ١٣٠٤ — ١٣١٦م) لم يعتنق الاسلام الا بتثير زوجته المسلمة . وكان هذا الايلخان قد شب على المسيحية بتأثير امه المسيحية ، وعهد فعلا باسم نيقولا ، ولكن زوجته تمكنت من التأثير عليه بعد وفاة أمه (١٨) ، وكانت هذه الزوجة ابنة لصاحب ماردین المالك المنصور غازى بن قرا ارسلان (١٩) .

واستمر خوانين المغول بعد اسلامهم فى طلب الزواج من بنات الملوك المسلمين . مثال ذلك السلطان اوزبك خان سلطان القبيلة الذهبية فى بلاد

(١٦) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، المجلد الثانى ، ج ١ ص ٣٣٢ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٠٦ ، ١١٢٤ .

(١٧) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٧٥ ، رشيد الدين الهمداني ، نفس المصدر ج ٢ ص ١ ، ٢٩٢ ، م ٢ ج ٢ ص ٦ ، ٩٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٧٠ .

(١٨) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٩) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦١ .

القفجاق (٧١٢ — ٧٤٢هـ / ١٣١٣ — ١٣٤٢م) الذى تبادل المصاهرة مع سلطان مصر الناصر محمد بن قاوون ، والسلطان أبو سعيد بهادر خان بن السلطان محمد خدا بنده (٧١٦ — ٧٣٦هـ / ١٣١٦ — ١٣٣٥م) الذى أرسل رسوله الى سلطان مصر الناصر محمد يطلب منه أن يشرفه بأن يزوجه بأحدى بناته (٢٠) .

وهكذا أصبح البيت المغولى الحاكم يدين بالاسلام مما ادى الى نشأة جيل جديد من حكام المغول من اب مسلم وأم مسلمة . وقد عمل هذا الجيل على تقوية الروابط بينه وبين حكام المسلمين فى البلدان الاسلامية الأخرى كما سنرى فى حينه ، مما دفع بالحركة الاسلامية بين المغول دفعا شديدا .

واذا كانت قمة السلطة المغولية قد تزوجت من مسلمات فلا شك ان زواج الجنود المغول كان اكثر واشد ، خاصة وان هؤلاء الجنود قد حازوا آلاف السبايا المسلمات اللاتى وقعن فى أيديهم اثناء المعارك وبعدها ، وقامت هؤلاء السبايا مع المغول بنفس الدور الذى قامت به السبايا الفارسيات والروميات فى صدر الاسلام ، فكما قربت سبايا الفرس العنصرين العربى والفارسى ودعمت الصلة بينهما مما ساعد على نشر الاسلام فى ايران ، قربت السببيات المسلمات بين المغول وبين المسلمين ونتج عن زواج هؤلاء السببيات بالمغول جيل جديد من المغول اعتنق الاسلام تدريجيا حتى عم جميع المغول تقريبا فى اقل من قرن من الزمان (٢١) .

ويؤكد القلقشندى هذه الحقيقة بقوله : « ان أهل مملكة ايران من التتر كانوا قد داخلوا العجم وزوجوهم وتزوجوا منهم ، وخطبواهم بالنفوس فى الأمور ، فتفخمت قواعدهم ، وجرت على عوائد الخلفاء والملوك فى غالب الأمور قوانينهم » (٢٢) . ويحدثنا السير توماس أرنولد ان وليم

(٢٠) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦١ ، الخريزى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٢١) ارنولد : نفس المرجع ، حاشية (١) ص ٢٦٥ .

(٢٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٢٦ .

روبروك مبعوث البابا الى خان المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى / منتصف القرن الثالث عشر للميلاد شاهد بنفسه تأثير احدى النساء المسلمات على زوجها وكيف وقف هذا التأثير عقبة امام تحويله الى النصرانية ، اذ بعد ان تم شرح العقيدة المسيحية لهذا الزوج واعدت العدة لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غرة ، قائلا، انه لا بد من ان يذهب الى داره لاستشارة زوجته التى اقنعتة بعدم الدخول فى المسيحية (٢٣) .

وكان المغول بصفة عامة يحتفظون لزوجاتهم بقدر كبير من الاحترام والمنزلة السامية ، لدرجة ان خوانين المغول وماوكهم كانوا اذا كتبوا امرا او فرمانا (٢٤) (يارليغا) كانوا يقولون فيه « عن امر السلطان والخواتين » (٢٥) ، وكانت كل خاتون (٢٦) تمنح عددا من البلاد التى كانت تجبى لحسابها ، او تمنح راتبا سنويا كبيرا لا يقل عن راتب بكلارى بك ، أى امير الامراء ونائب الخان ، ويزيد عن راتب الوزير ، اذ كان راتب الاول ثلاثمائة تومان ، وراتب الثانى مائة وخمسون تومان ، اما راتب الخاتون فكان مائتى تومان ، والتومان عشرة آلاف درهم (٢٧) .

وبلغ من علو شأن الخواتين ان مجمع القوريلتاى (٢٨) كان لا يتم انعقاده

-
- (٢٣) ارنولد : نفس المرجع ، حاشية (١) ص ٢٦٥ .
(٢٤) الفرمان ، وجمعه فرمانات : ما يصدره السلطان او الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاص يعلن فيها تقليدهم مناصبهم او تعيينهم فيها .
انظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٣٧ .
(٢٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٤ .
(٢٦) خاتون لقب لقيت به الملكات والاميرات .
انظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤١٠ .
(٢٧) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٩٣ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢٥ ع ٤٢٦ .
(٢٨) القوريلتاى فى الاصطلاح المغولى عبارة عن مجلس عظيم هافل يضم جميع الامراء واركان الدولة ، وينعقد عند تنصيب احد اعضاء الاسرة المالكة امبراطورا اعظم على جميع المغول .
انظر : رشيد الدين الهمدانى : جامع التواريخ ، م ٢ ج ١ ، حاشية (١) ص ٢٣٤ .

٢٩) لا بحضورهن ، كما كن يتدخلن فى عزل بعض الخوانين ويساعدن البعض فى ارتقاء العرش ، وتاريخ المغول حافل بذلك (٢٩). وكن يتمتعن بمظاهر الملوكية ، فكان للخاتون الكبرى ، أى زوجة الخان المفضلة ، طبل يدق عقب طبل الخان نفسه ، ثم تدق سائر طبول الخواتين ، ثم طبل الوزير وبقية الوزراء (٣٠) . وقد زار ابن بطوطة هذه البلاد وأشار الى ما كانت تتمتع به النساء عند المغول من علو شأن حتى انه تعجب من ذلك وقال انهن اعلى شأنًا من الرجال ، ووصف لنا نساء الخوانين والأمراء وصفًا مذهلًا يدل على مدى الحظوة التى كانت لهن ، وأشار الى نساء العامة من المغول وقال انهن يتمتعن بنفس القدر من المنزلة عند أزواجهن ، وقال انهن كن يذهبن الى السوق تحيط بهن الجوارى والعبيد وتتزين بالحلى والجواهر ، وربما كان مع المرأة زوجها فيظن من يراه انه احد خدامها نظرًا لما كان يرتديه من ملابس لا تتناسب مطلقًا مع ملابس زوجته (٣١) .

ولك أن تتخيل مدى التأثير الذى كانت تتمتع به زوجات المغول اللاتى كن على هذا القدر من علو المنزلة ورفعة الشأن عند أزواجهن ، واللاتى كن فى الغالب مسلمات . فلا شك انه كان لهن اثر كبير فى تحويل أزواجهن الى الاسلام ، وما سقناه فى هذا السبيل ليس الا مجرد امثلة ذكرها المؤرخون ، وما لم يذكروه لا شك انه اكبر واعظم لأنهم لم يهتموا الا بالاشارة الى زوجات الخوانين والأمراء ، اما زوجات العامة من المغول واللاتى كن بالطبع اكثر عددا لم يظفرن من هؤلاء المؤرخين بشئ يذكر .

٣ — تأثير الوزراء والموظفين المسلمين :

كان معظم وزراء المغول وكتابهم وموظفيهم من المسلمين نظرًا لبدأة المغول وافتقارهم لمعرفة وسائل الادارة المالية لهذه البلدان المفتوحة خصوصًا وان كثيرًا من زعماء المسلمين ومثقفهم وفقهائهم أيدوا الرغبة فى التعاون مع المغول على اعتبار ان الحكم المغوى لبلادهم أصبح أمرًا واقعًا ، ولأن

(٢٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، ٢٢٢ — ٢٢٤ .

تعاونهم مع هؤلاء الغزاة قد يخفف من غلوئهم فى معاملة المسلمين ويكبح جماحهم ، ويجنح بهم فى النهاية الى سياسة المسالمة والتعايش السلمى مع هذه الأغابية المسلمة فيستفيد الطرفان حكما ومحكومين . وقد تحقق هذا الهدف فعلا وانتعشت احوال المسلمين فى النهاية وصمدوا امام تغفل الدين المسيحى بين بعض زعماء المغول وأمرائهم ، وأصبح لهؤلاء الموظفين المسلمين نفوذ كبير فى دولة المغول بعد أن استخدمهم الخوانين فى وظائف الحكم والادارة والمالية ، وقد أدى هذا امر الى تحول الكثيرين من المغول الى الاسلام (٣٢) .

فى ايران استفاد ايلخاناتها من البيروقراطية الفارسية استفادة كاملة ، نعين هولاءكو مؤسس دولة المغول فى ايران والعراق وآسيا الصغرى. نصير الدين محمد الطوسى مستشارا ووزيرا له ، وكان هذا الرجل قد دخل فى خدمة هولاءكو وكان مسموع الكلمة عنده ، وكان من العلماء البارزين فى شتى العلوم فى عصره وخاصة علم الفلك ، ولذلك سمح له هولاءكو ببناء مرصد ضخم فى مدينة مراغة بأذربيجان ، نقل اليه عددا كبيرا من كتب ووثائق الأوقاف التى لم يصبها التلف ببغداد ، كما بنى هذا الوزير العالم دار حكمة وعين فيها بعض الفلاسفة ورتب لكل واحد منهم راتبا مقداره ثلاثة دراهم فى اليوم ، كما بنى دار طب عين فيها الأطباء ورتب لكل واحد منهم درهمان ، ومدرسة رتب لكل فقيه فيها درهما ، ودار حديث رتب لكل محدث فيها درهما أيضا (٣٣) . وقد امتدت سلطة هذا الوزير العالم حتى صار تحت حكمه جميع الأوقاف فى جميع البلاد التى كانت تحت حكم المغول فى ايلخانية ايسران (٣٤) .

ولا شك ان هذا الرجل الذى امتد به العمر حتى عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م كان له تأثيره على هولاءكو وعلى ابنه ابغا (اباخان) ، وقد سبقت الإشارة

(٣٢) التلشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

Saunders : op. cit., p. 140.

(٣٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، العينى : نفس المصدر ج ٢٢ ورقة ١٠٩ .

(٣٤) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥٠٠ .

إلى حبهما للعلماء ورجال الدين من كافة الملل والنحل ، كما ان ما قام به هذا العالم فى مراغة (٣٥) قد اثار نهضة فى العلوم الاسلامية التى كانت قد تعرضت لضربة شديدة عقب القضاء على عدد كبير من العلماء والفقهاء اثناء غزو هولاكو لبغداد وغيرها من مدن الاسلام فى ايران والعراق والشام .

ولم يكن نصير الدين الطوسى هو المستشار المسلم الوحيد الذى استعان به هولاكو ، فقد عين هذا الملك المغولى معين الدين بروانة وزيرا له فى بلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى بجانب حكامها من السلاجقة الذين كانوا قد اعلنوا الطاعة والخضوع للمغول ، كما عهد هولاكو ، بحكم بغداد الى الامير على بهادر ، وعين معه مؤيد الدين بن العلقمى وزيرا له ، ولما توفى هذا الوزير تولى ابنه عز الدين ابنى الفضل الوزارة فى بغداد ، اما منصب صاحب الديوان بها فقد عين فيه هولاكو المؤرخ صاحب علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب كتاب « تاريخ جهانكشاي » اى تاريخ فاتح العالم ، والمقصود به جنكيز خان ، كما عين هولاكو اخاه شمس الدين محمد الجوينى فى منصب صاحب الديوان للبلاد كلها واطلق يده فى حل الأمور وعقدها (٣٦) .

وقد استمر هذان الاخوان فى منصبيهما فى عهد ابغا بن هولاكو (٦٦٤ — ٦٨٠ هـ / ١٢٦٥ — ١٢٨١ م) ، وأمر بأن يكون علاء الدين الجوينى حاكما مطلقا فى بغداد (٣٧) . ولما عزل هذا الرجل عن منصبه نتيجة لتآمر

(٣٥) مراغة مدينة مشهورة فى بلاد اذربيجان كثيرة السكان غزيرة الأشجار كثيرة الاتهار كانت مشتهى لایلخانات ايران ، وهى مدينة محدثة اتخذت اسمها هذا ايام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . انظر ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، حاشية (١) ص ٢٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٣٦) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، المجلد الثانى ج ١ ص ٣٣٨ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ابن الوردى : تاريخه ، ج ٢ ص ٢٢٩ ، الصياد : نفس المرجع ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، ٣٢٤ .

(٣٧) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٩٧ .

شحنة بغداد ونائبه اسحاق الأرمني ضده ، عين أبغا فى هذا المنصب واحداً من نفس اسرة الجوينى (٣٨) ، كما عين حكاما مسلمين فى باقى انحاء مملكته : فى فارس وديار بكر وأصفهان ومعظم ولايات العراق العجمى وقزوين وديار ربيعة وكرجستان ، وانعم على ما يقرب من مائة عالم كبير من تلاميذ نصير الدين الطوسى ممن كانوا مقيمين فى تبريز ، كما اتخذ قائدا مسلما يسمى عبد الله آقما ضمن قواده الآخرين (٣٩) .

استمر ايلخانات ايران فى اسناد منصب الوزارة والمناصب العليا الأخرى الى المسلمين وخاصة فى عهد الايلخان المسلم احمد تكودار ابن هولكو (٦٨٠ — ٦٨٣ هـ / ١٢٨١ — ١٢٨٤ م) ، ولما اسند ارغون بن ابغا بن هولكو (٦٨٣ — ٦٩٠ هـ / ١٢٨٤ — ١٢٩١ م) الوزارة الى اليهودى سعد الدولة اضطهد هذا الوزير المسلمين اضطهادا كبيرا ، ولكن هذا الاضطهاد انتهى بموت هذا الوزير وذلك الايلخان ، واستأنف المسلمون توليهم لمنصب الوزارة فى عهد الايلخان الجديد المسمى كيخاتو بن ابغا (٦٩٠ — ٦٩٤ هـ / ١٢٩١ — ١٢٩٥ م) . فقد تولاهما الخواجا (٤٠) صدر الدين احمد بن عبد الرزاق الخالدى الزنجائى الذى لقبه كيخاتو بلقب (صدر جهان) ، أى صدر العالم ، كما عين اخاه قطب الدين احمد قاضيا للقضاة ، وولاه نظارة اوقاف الممالك التابعة لخانية ايران ، ولقبه باقرب قطب جهان ، أى قطب العالم ، واسند اليه حكم مدينة تبريز عاصمة الدولة واسند الى ابن عمه حكم العراق ولقبه بلقب قوام الملك . وبلغ نفوذ صدر الدين حدا جعله يستبد بالسطة السياسية والادارية والعسكرية فى الدولة دون الأمراء والقواد ، مما حملهم على التآمر ضده والوشاية به عند كيخاتو ، الذى سرعان

(٣٨) ابن الوردي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣٩) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ، ص ١٢ ، ٤٠ .

٤٢ .

(٤٠) الخواجا (الخوجة) لفظ معناه المعلم والتاجر والكاتب . انظر

سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٤١٣ .

كما اكتشف المؤامرة وأصدر فرمانا يتضمن وضع البلاد كلها تحت تصرف صدر جهان ، وغوض اليه تدبير شئون الدولة تفويضا كاملا (٤١) .

وقد كان لاسناد هذه الوظائف العليا وغيرها من الوظائف الدنيا الى المسلمين اثر كبير فى نقل الثقافة الاسلامية الى الموظفين الآخرين من المغول . وفى انتشار الاسلام بينهم وبين خوانين المغول وأمرائهم نتيجة للاحتكاك والمعايشة المستمرة والاتصال الدائم بين الموظفين المسلمين وبين زملائهم وساداتهم من المغول ، فمن الأمراء الذين أسلموا نتيجة لهذه السياسة الأمير أحمد أوغول بن بسورى بن جغتاي الذى كان قائداً من قواد أبغا بن هولاقو ، والأمير حسن بن بوغو الذى كان صديقاً لكیخاتو منذ الطفولة وهناك بعض الايخانات الذين أسلموا أيضاً نتيجة لتأثير الموظفين المسلمين المتصلين بهم ، مثل أحمد تكودار والسلطان محمود غازان الذى تولى حكم ايران (٦٩٤ — ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) واعتنق الاسلام وجعله دين الدولة الرسمى نتيجة لتأثير وزيره وقائده المسلم حاجى نوروز . وكان هذا القائد الداهية قد نصح غازان بترك البوذية والتحول الى الاسلام كي يحصل على عرش ابيه ، مما يدل على ازدياد نفوذ الاسلام فى بلاط المغول فى ايران . ولما نجح غازان فى ارتقاء العرش اعلى شأن هذا القائد وجعله قائدا عاما للجيش وأميراً للأمراء ، كما عهد بمنصب الوزارة الى صدر جهان أحمد الزنجاني ، وارتفع شأن الاسلام واقتبل المغول بالآلاف على اعتناقه اقبالا شديدا حتى ان الأمير فيروزكوه أسلم هو وثمانون الفا من اتباعه وصناديد قومه وأكابرهم من المغول (٤٢) .

وهكذا كان للوزراء والموظفين المسلمين اثر كبير فى تحويل المغول فى ايران الى

(٤١) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ٢ ، ص ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٧٩ ،
شرف خان البدليسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١١ ، ١٢ ، ابن الفوطى : نفس
المصدر ، ص ٤٧٤ .

(٤٢) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٨ ، ١٨٦ ، شرف خان البدليسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ ،
مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ١٤ — ١٨ ، أرنولد : نفس المرجع ،
ص ٢٦٣ .

الاسلام حتى قال ابو الفدا عن احدهم وهو على شاه وزير السلطان ابي سعيد (٧١٦ — ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ — ١٣٣٥ م) انه « هو الذى نسج المودة بين الاسلام والتتر » ، وانه هو الذى انشا بتبريز الجامع الذى لم يكن له نظير (٤٣) فقد كان هؤلاء الوزراء والموظفون — كما رأينا — ينشئون المساجد والمدارس والمراصد والمستشفيات وغيرها من المرافق العامة التى بثت الروح فى جسد الثقافة الاسلامية من جديد . واستمر هؤلاء الوزراء فى هذا الاحياء الثقافى حتى نهضت الثقافة الاسلامية وتسللت الى عقول المغول وقلوبهم ، ساعد على ذلك ان منصب الوزارة كما رأينا كان يتعاقبه الأبناء عن الاباء مثل اسرة الجوينى وصدر جهان الزنجانى ورشيد الدين بن فضل الله الهمدانى (٤٤) وغيرها من الاسرات التى تعهدت هذا العمل العظيم وكان لها فضل كبير فى تحويل كثير من المغول الى الاسلام .

وفى دولة المغول فى تركستان وما وراء النهر حدث نفس الشيء . فقد اتخذ ايلخانها جغطاى لنفسه طبيبا مسلما يسمى مجد الدين رغم ان هذا الايلخان كان يكره المسلمين كرها شديدا ، كما اتخذ من احد اثرياء التجار المسلمين وزيرا له ، وكان هذا الوزير يسمى قطب الدين حبش عميد ، وهو مواطن من منطقة اوترار قرب بخارى ، وكان له نفوذ ومكانة بارزة عند المغول لدرجة انه جعل لكل واحد من ابناء جغطاى رفيقا له من ابنائه هو . ولك ان تتصور مدى التأثير الذى يمكن ان يحدث من هذه الرفقة، خاصة اذا عرفت ان حفيد هذا الايلخان اعتنق الاسلام وتسمى باسم مبارك شاه . واستمر تأثير هذا الوزير بعد موت جغطاى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م فى عهد خلفه وحفيده (قرا هولكو) (٦٤٠ — ٦٤٥ هـ / ١٢٤٢ — ١٢٤٧ م) والذى كان تحت وصاية (ايوسكون) ارملة جغطاى ، حتى توفى فى بداية عهد القو بن جغطاى عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ، باحدى مدن ولاية المساليق ، ودفن هناك بالخانقاه التى كان قد بناها (٤٥) .

(٤٣) تاريخه ، ج ٤ ص ٩٦ .

(٤٤) شرف خان البديلى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠ ، ٣٠ ، ٣١ .

اربرى : نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

Saunders : Op. cit., p. 141.

(٤٥) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٩٧ ، ١٩٩ ، فامبرى : نفس المرجع

ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ولما فلت زمام الأمور من يد الخاتون (أيوسكون) ازاء التنازع على العرش نصب الخان الأعظم كيوك خان (ييسو مانجو بن جغتاي) رئيساً لأسرة جغتاي وحاكماً لتركستان وما وراء النهر (٦٤٥ — ٦٥٠ هـ / ١٢٤٧ — ١٢٥٢ م) ، ولم يلبث هذا الحاكم الجديد ان اتخذ من الامام والعالم الورع الخواجه بهاء الدين المرغلاني (المارغيناني) (الذي أشاد بذكره الجويني وأثنى عاياه كل الثناء ، وزيراً له وناصحاً وجعله نائباً عنه في حكم بلاد ما وراء النهر ، وصار بيت هذا الوزير العالم مقصداً لكل العلماء المبرزين المعاصرين ، وكان هذا الوزير نفسه يجمع في ثقافته بين العلوم الدينية والدنيوية ، وكان أبوه يتولى منصب شيخ الاسلام في فرغانة قبل الفتح المغولي ، لذلك لا عجب ان استعانت العلوم الاسلامية مكانتها وتم احيائها من جديد أثناء فترة حكم هذا الوزير ، كما تأثر بنشاطه ذاك عدد كبير من الموظفين غير المسلمين من المغول واعتنقوا الاسلام ، وخير مثال نضربه على ذلك هو كورجوز Korgus نائب الايلخان في خراسان الذي كان ايفوريا تركياً من بش باليق ، وكان يدين بالبوذية ولكنه اعتنق الاسلام قرب نهاية حياته ، واعاد طبقة الموظفين الفرس المسلمين الى اعمالهم ، واعاد بناء مدينة طوس ، وحمى السكان المسلمين من عسف المغول (٤٦) . كل ذلك كان بتأثير الوزير المرغلاني وتأثير أسرته واتباعه .

وهناك أسرة اخرى كان لها فضل عظيم في التأثير على المغول وفي نشر الاسلام بينهم وفي احياء الحركة الاسلامية وتنشيط الثقافة الاسلامية في بلاد ما وراء النهر وتركستان . تلك الأسرة هي أسرة تاجر خوارزمي يدعى محمود يلواج ، كان جنكيز خان قد وثق به وجعله سفيراً له الى محمد خوارزم شاه عام ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م ، ثم عينه والياً على خان باليق (بكين) ثم جعله نائباً عنه في حكم بلاد ما وراء النهر ، وظل محمود يلي هذا المنصب في عهود أبناء جنكيز خان الذين خلفوه على عرش الخانية ، وبذل جهوداً كبيرة في تعمير ما خربه المغول وفي اصلاح ما فسد من احوال الناس وتخفيف آلام الضربة القاسية التي أوقعها

(٤٦) هامبري : نفس المرجع ، ص ١٨٩

Saunders : op. cit., p. 107.

Barthold : Turkestan down the Mongol Invasion, pp. 467, 477 ;

The Cambridge History of Iran, v. 5, pp. 337-338.

المغول بالرعايا فى تلك المنطقة اثناء غزوهم لها ، فشعر الناس بالطمأنينة والامان (٤٧) .

وقد سعد نجم هذا الوزير المسلم فى عهد كيوك خان خليفة جنكيز خان ، اذ نصبه حاكما على مملكة الخطا ، كما تم تعيينه فى عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م حاكما على بلاد الصين فى عهد منجو خان الذى قسم الامبراطورية بين اخيه هولاكو الذى اختص بالبلاد الغربية وبين محمود يلواج وابنه مسعود الذى تم تعيينه حاكما لتركستان وما وراء النهر وبلاد الأويغور وقرغانة وخوارزم . وبذلك أصبح النصف الشرقى من امبراطورية المغول والذى يمتد من شواطئ جيجزن الى منتهى بلاد الخطا والصين تخضع لحكم « صاحب المعظم يلواج وولده مسعود بيك » واستمر محمود يلواج فى مباشرة مهامه السياسية فى حكم البلاد الموكولة اليه حتى وفاته عام ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م رغم التغييرات السياسية المتعددة ، واستطاع ايضا ان يترك هذا الحكم لابنائه من بعده ، غظل ابنه مسعود فى حكم آسيا الوسطى حتى وفاته عام ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م واستمر أخوة مسعود فى الحكم فى عهد تاييدو حفيد اوكتاي والمتغلب على اولاد جغتاي فى بلاد ما وراء النهر وتركستان وفى عهد بعض ايلخانات بنى جغتاي انفسهم (٤٨) .

وقد قام محمود يلواج وابنائه من بعده بأداء مهمتهم خير قيام ونهضوا بتلك البلاد نهضة مباركة ، فازداد العمران وانتشرت المدارس التى أسسها مسعود من ماله الخاص فى بخارى وكاشغر وغيرها ، والتى سميت باسم المدارس السعودية نسبة الى بانيها . وقد قامت هذه المدارس بدور كبير على نشر الثقافة والعقيدة الاسلامية بين المغول الفاتحين وحافظت على التراث الاسلامى من الضياع وذخرت بالآثمة ومشايخ الاسلام والمدرسين الذين أغدقت عليهم العطايا والمنح (٤٩) .

(٤٧) الصياد : نفس المرجع ، ص ١٥٣ — ١٥٥ ، ١٩٨ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٤٥ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٤٨) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٤٩ ، رشيد الدين : نفس المصدر ج ٢ ص ٢٢ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، الصياد : نفس المرجع ص ٢١٠ ، ٢١١ .

Saunders : op. cit., p. 177.

(٤٩) الصياد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٦ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

وفى ايلخانية القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق كان اول ايلخاناتها هو باطو Batu بن جوجى بن جنكيز خان (٦٢٤ — ٦٥٤ هـ / ١٢٢٧ — ١٢٥٦ م) وقد أعقبه فى الحكم لبضع شهور ابنه صرتق Sartak ، وكان هذا الابن مسيحيا كما سبق القول ، ويبدو ان والده كان يميل الى المسيحيين لأن الاخبار تقول بأنه أعفى الكنائس من الضرائب (٥٠) . ولا ندرى نوعية الموظفين الذين استخدمهم باطو او ابنه صرتق ، ولكن الغالب انهما اتخذاً موظفين من بين سكان البلاد ، وكان القفجاق والبلغار المسلمون يشكلون اغلبية السكان ، بل ان الايلخانية نفسها اتخذت اسمها من اسم القفجاق الذين كانوا أهم عناصر السكان فيها (٥١) .

ولا شك ان ادارات الدولة ومناصبها أعطيت للمسلمين عقب تولي بركة خان العرش (٦٥٤ — ٦٦٥ هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) ، اذ كان هذا الخان كما سبق القول مسلما ، وكان أول من أسلم من خوانين المغول كافة ، وعمل بكل جهده على صبغ الدولة بالصبغة الاسلامية ، واتخذ فى سبيل ذاك من احد المسلمين وزيرا له يسمى شرف الدين ، وهو احد مواطنى مدينة قزوين . وكان هذا الوزير يتقن العربية والتركية (٥٢) ، وفى عهده وعهد من اتى بعده تواجد على بلاد القفجاق الكثير من العلماء والفقهاء فرارا من بطش هولاكو وابنه ابغا ، وتم تعيينهم فى مناصب الدولة المختلفة . وقد اشار ابن بطوطة فيما بعد الى كثير من الفقهاء والعلماء الذين وفدوا على هذه البلاد من ايران والعراق والشام ومصر ، وتولوا مناصب علمية وقضائية وكان لهم تأثيرهم الكبير فى تحويل مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق الى الاسلام (٥٣) ، لاننا وكما سنرى نجد أن الحركة الاسلامية فى تلك البلاد كانت حركة دافقة وقوية لدرجة ان مسلمى مغول القفجاق اظهروا موالاتهم منذ البداية للخليفة المستعصم آخر خلفاء بنى العباس ، وظلوا على ولائهم للخلافة العباسية بعد

(50) Howorth : op .cit., v. 2, pp. 92-93.

(51) Ibid : vol. 2, p. 17.

(52) Ibid : vol. 2, pp. 105-117.

(٥٣) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ — ٢٤٠ .

انتقالها الى القاهرة (٥٤) . واذا كان هذا هو تأثير الوزراء والموظفين والفقهاء المسلمين على المغول في ممالكهم الثلاث في تبريز وسمرقند وسراي، فما بالك بتأثير السكان المحليين من فرس وترك وعرب .

٤ — تأثير السكان المحليين على المغول :

يعتبر هذا العامل من أهم العوامل التي أثرت في المغول ودفعته بهم الى تشرب الحضارة الاسلامية ثم الى اعتناق الاسلام . ذلك ان المغول بعد ان اتموا فتح معظم البلاد الاسلامية في آسيا وجدوا أنفسهم يختلطون بالناس يفوقونهم بكثير في الحضارة والثقافة والفكر (٥٥) . وهؤلاء الناس اما فرس او ترك . فالفرس كان لهم تاريخ حضارى عظيم سواء قبل فتح الاسلام لبلادهم ثم بعد ذلك الفتح . وقد تسربت مظاهر الحضارة الفارسية تدريجيا الى بقية أنحاء الدولة الاسلامية وخاصة ايام الدولة العباسية واثرت في الأتراك الذين حاولوا محل الفرس في الاستئثار بالنفوذ في دولة الاسلام منذ العصر العباسي الثاني . ولما جاء المغول استسلموا كما استسلم العرب والترك امام السحر الفارسي ولم يستطيعوا مقاومته ، وامتزجوا امتزاجا تاما بروح هذا الشعب لى تفيض حيوية ونشاطا (٥٦) .

وقد نقل الكتاب والموظفون المسلمون الى المغول البرابرة الذين استخدموهم في ادارات الدولة وفي بلاطهم ، النظم والخبرات والتقاليد الحضارية التي كانت تزخر بها الثقافة الفارسية الاسلامية والتي كانت قد نذاعت بعيدا فيها وراء حدود ايران ، واصبحت الفارسية تقريبا هي اللغة الرسمية للبلاط المغولى . والدليل على ذلك ان رسالة كيوك خان التي ارسلها ردا على رسالة البابا انوسنت الرابع ، ورسالة منجوخان للويس التاسع

(٥٤) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٤٧ .

القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

Howorth : op cit., vol. 2, p. 118.

(55) Saunders : op .cit., p. 184.

(٥٦) ابري : نفس المرجع ، ص ٣٩

Saunders : op. cit., p. 177.

كانتا مكتوبتين باللغة الفارسية . ولا ننسى ان كيوك ومنجوخان من الخوانين العظام الذين كانوا يقيمون في قراقورم في بلاد الخطا والصين وليس في ايران او في آسيا الوسطى حيث تسود الثقافة الفارسية ، مما يدلنا على مبلغ تأثير هذه الثقافة القوي ، حتى ان التجار المسلمين في كافة أنحاء الامبراطورية المغولية كانوا يستخدمون اللغة الفارسية في عملياتهم التجارية حتى أصبحت هي اللغة المتداولة في آسيا (٥٧) ، وحتى قال احد كتّاب الغرب بأن الاسلام الذي غزا المغول هي النصف الغربي من امبراطوريتهم وخاصة بعد اسلام غازان عام ٦٤٩هـ/١٢٩٥م ، وأوزبك في عام ٧١٢هـ/١٣١٢م كان اسلاما فارسيا ، لأن مجد العرب — في نظره — وسمو شأنهم كان قد انتهى بمذبحة بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، تلك المذبحة التي هوت على أثرها سلطة العباسيين ودولتهم وهوت معها مراكز الثقافة العربية واللغة العربية التي تراجعت من بغداد الى القاهرة حيث ازدهرت هناك من جديد . أما في بلاد العالم الاسلامي الشرقي فقد نهضت الفارسية نهضة ملحوظة وفعل الشاعر الفردوسي — في عصر سيطرة المغول — ما فعله دانتي فيمبا بعد للايطالية ولوثر للالمانية (٥٨) .

وقد تجاوب المغول مع تلك النهضة الفارسية وتأثروا بها ، فأتخذوا الفارسية لسانا لهم هي البلاط كما أثروا ، وتركت الثقافة الفارسية الاسلامية انطباعها عليهم وعلى قوادهم ، لأن اللغة المغولية لم تكن ابدا أداة للثقافة والعلوم والآداب ، ولم تنشر ابدا وراء مهدها الأصلي ، وهزمت بسهولة في تنافسها مع الفارسية والاويغورية التركية ، وكان هذا مما ساعد على دخول المغول في الاسلام ، نتيجة لاستخدامهم هذه اللغة الاسلامية في بلاطهم وفي تثقيف أنفسهم ، ونتيجة لمعايشة اهلها المسلمين في ايران ، واختلاطهم بهم واندماجهم سويا عن طريق المصاهرة حتى ذاب المغول في النهاية في هذا المحيط الفارسي العظيم (٥٩) .

(57) Saunders : op cit., p. 184.

(58) Ibid : p. 184.

(٥٩) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ٢ ج ١ ص ٨٤

Saunders : op. cit., pp. 116, 190

وكما كان للفرس وثقافتهم تأثير كبير على المغول وخاصة مغول ايران وعلى تحولهم الى الاسلام ، فقد كان للترك أيضا تأثير عظيم في هذا المضمار وخاصة في مملكة المغول في بلاد القفجاق ومملكتهم في آسيا الوسطى (تركستان وما وراء النهر) . ذلك أن مغول هذه البلاد وجدوا انفسهم يعينون بين قبائل تركية قديمة العهد بالاسلام ، ويشتركون معها في نفس الوقت في الأصول العرقية ، ويتشابهون معها في كثير من العادات والتقاليد والميول والنزعات (٦٠) . وكان عنصر الترك هو الذي يحكم العالم الاسلامي الشرقي منذ أن استولى السلاجقة على بغداد عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م واستولى سلاطين المماليك — وهم أصلا من الترك القفجاق — على مقاليد السلطة في مصر وبلاد الشام منذ عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وظل هذا العنصر يحكم عالم الاسلام منذ ذلك الحين وحتى الحرب العالمية الاولى (٦١) .

وكان معظم الترك قد دخلوا في الاسلام قبل العصر المغولي بكثير ونشربوا حضارة الاسلام وصارت الأمم التركية بصورة عامة في مستوى حضاري أعلى بكثير من مستوى المغول الحضاري (٦٢) ، ولذلك كان تأثيرها كبيرا على هؤلاء المغول الذين حكموا وعاشوا في بلاد آسيا الوسطى وبلاد القفجاق ، خاصة وأن هؤلاء المغول كانوا اقلية بالنسبة لجمهرة السكان الذين كان معظمهم من الترك . ذلك ان المغول لم يهاجروا الى البلاد الاسلامية التي فتحوها كاملة كما فعل السلاجقة الترك عندما استولوا على غربي آسيا ، بل مكث المغول في البلاد التي فتحوها على شكل حاميات عسكرية كبيرة تسند حكمهم لها وتضمن خضوعها لهم ، وبقيت جمهورتهم في منغوليا (٦٣) .

وام تعش هذه الحاميات المغولية بمعزل عن السكان المحليين ، فقد اختلطت بالجند الآخرين من الترك والايغور المسلمين . ذلك ان المغول اعتمدوا على هذه العناصر في تزويد جيوشهم بالجند الى حد كبير ، وهذا

(٦٠) أنظر ، ص ١٤ ، ١٥ ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٠ .

(٦١) Sauners : op cit., pp. 176-177. (161)

(٦٢) Ibid, : p. 176.

(٦٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٦٥ .

الاعتماد يعود الى عصر جنكيز خان نفسه . فقد اعتمد هذا الخان فى تزويد جيشه بالرجال والجند على القبائل التركية التى تحولت من العداء الى الولاء له ، واصبحت قبائل الترك فى الشرق مثل قبائل الكرايت Keraits ، والنايमान Naiman ، والأويرات Oirats ، والأويغور Uighurs فى خدمته ، وصارت مثالا نسج عليه الأتراك الآخرون فى الغرب مثل قبائل القـرلوق Karluks والقرغيز والبلغار والتبجاق Kipchaks ، وبذلك تفوق العنصر التركى كثيرا فى العدد على المغول الأصليين فى آلة الحرب المغولية أو فى الجيش المغولى (٦٤) .

وكانت معظم هذه القبائل التركية التى خدمت فى جيش جنكيز خان وفى جيوش ابنائه من بعده ، تعتنق الاسلام ، ولذلك أصبحت جيوش المغول تضم عددا كبيرا من الجند المسلمين الترك بالإضافة الى كتائب من مسلمى قبااليق عاصمة القـرلوق ، والماليق — احدى مدن تركستان الشرقية (٦٥) ، وأيدى قوت أمير الأويغور الشرقيين . وكان هذا الأمير قد خضع هو وقومه جميعا من تلقاء أنفسهم للمغول ، وكان أغلبهم من المسلمين . واتخذ جنكيز خان من هذا الأمير حليفا له فى حروبه فى بلاد الصين وفى بلاد ما وراء النهر (٦٦) . كما ان بخارى استسلمت لجنكيز خان عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م على يد قائد تركى مسلم يدعى طاهر بهادر ، مما يدل على مدى التحام الترك المسلمين بهذا الفاتح الجديد ، ولذلك ثابته عندما سقطت بخارى فى العام التالى بعد تجدد المقاومة بها (٦٧) ، لم يفت جنكيز خان ان يعهد الى جرس نصفه من الأتراك والنصف الآخر من المغول بأن يقوم على حراسة أعيان المدينة حتى لا يلحق بهم ضرر أو أذى (٦٨) .

(64) Saunders : op. cit., p. 176.

(٦٥) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٦٢ ، ١٦٣

(٦٦) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(٦٧) لم يحرق جنكيزخان مدينة بخارى ويقتل سكانها جميعا الا عندما ظهر فيها بعض جند السلطان محمد خوارزم شاه الذين كانوا مستترين وأيدهم اهالى المدينة فى تصديهم للمغول ، فانتقم المغول من هؤلاء الجند ومن سكان المدينة جميعا .

انظر : فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٧١ .

(٦٨) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦٩ ، ١٧١ .

وهكذا ظهر اعتماد المغول على الجنس التركى منذ عصر جنكيز خان نفسه ، وتزايد هذا الاعتماد حتى ذاب المغول فى هذا البحر التركى وخاصة فى بلاد آسيا الوسطى وبلاد القفجاق ، كما حلت اللغة التركية محل اللغة المغولية فى آسيا الوسطى واصبحت التركية هى لسان البلاط والمجتمع فى تلك البلاد (٦٩) .

وحدث نفس الشيء فى بلاد القبيلة الذهبية (بلاد القفجاق) ، فقد ذاب المغول فى سكانها من الترك ، وحلت اللغة التركية محل المغولية أيضا وصارت لغة التخاطب بين الناس ، ونقشها خوانين المغول على عملاتهم التى سكوها قبل نهاية القرن السابع الهجرى / نهاية القرن الثالث عشر للميلاد ، واكتشف التجار والرحالة فى بلاد القفجاق بسرعة أن التركية أكثر فائدة لهم من المغولية سواء فى حياتهم العادية أم فى عملياتهم التجارية (٧٠) .

ولما كانت معظم قوات المغول من الناطقين بالتركية على هذا النحو ، فقد تقدمت هذه اللغة — وهى إحدى لغات الاسلام الثلاثة : العربية والفارسية والتركية — عبر آسيا مع الجيوش المغولية وسادت مناطق الاستبس الأوربية الآسيوية وفيما وراء ذلك . وبذلك دفع المغول دون أن يشعروا ورغم كونهم وثنيين فى تلك المرحلة ، وهى مرحلة الفتوحات ، الاسلام الى أرض جديدة لم تطأها قدمه من قبل ، وتأثروا هم فى النهاية بهذا المحيط التركى الاسلامى الذى كانوا يعيشون فيه ، وتقلصت لغتهم وارتدت الى مواطنها الأولى فى منغوليا ، وسادت اللغة التركية بينهم وتحديثها (٧١) ، بل وأخذوا اسم دولتهم من قبائل القفجاق التى عاشوا بينها ، فصارت تعرف باسم دشت قفجاق أو خانية القفجاق ، وعرفها كتاب أوربا باسم القبيلة الذهبية (٧٢) .

(٦٩) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

Saunders : op .cit., p. 190.

(70) Ibid : p. 158.

(71) Ibid : p. 176.

(72) Howorth : op. cit., p. 2, pp. 1, 17

وبذلك صار الضغط الاسلامى على مغول تلك البلاد مركزا وقويا ، ورغم أن خلفاء بركة خان المسلم المباشرين كانوا فى الغالب وثنيين ، إلا أن التأثير الاسلامى كان يأتى متدفقا من بلاد ما وراء النهر وخوارزم ، ومن بلاد سلاجقة الروم ، ومن بلاد البلغار المسلمين الذين كانوا يسكنون وادى الفلجا الأوسط، حيث كان هذا الوادى يمثل العمود الفقرى لمغول القبيلة الذهبية (٧٣) . فاللغة السائدة — وهى اللغة التركية — لغة اسلامية ، لأن متحدثيها من الترك كانوا مسلمين، والسكان معظمهم من الترك المسلمين والمغول بالنسبة لهم اقلية ، والعادات والتقاليد بين المغول والترك متشابهة نظرا لاشتراكهما كما اشرنا فى الجنس والأصل ، ولذلك فليس اسلام المغول فى تلك البلاد وغيرها من البلاد الاسلامية التى حكموها واقاموا فيها بمستغرب ، بل كان امرا متوقعا ، ولكن المسألة كانت مسألة وقت لا غير . وقد ساعد على ذلك عامل آخر هو نمو الطرق الصوفية وانتشارها فى جميع الممالك الاسلامية التى حكمها المغول .

٥ — تأثير الطرق الصوفية :

نمت كثير من الطرق الصوفية وانتشرت فى كافة أنحاء العالم الاسلامى وخاصة منذ أن اصيب هذا العالم بالفتنة الصليبية فى اواخر القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر للميلاد ، وأصيب ايضا باستبداد حكامه وظلمهم للرعية ثم اصيب اخيرا بكارثة الكوارث وهى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على ايدى المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وما صاحب ذلك من قتل مئات الآلاف من المسلمين ، ومن تخريب العديد من المدن والأقاليم . واثناء هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالعالم الاسلامى من الداخل والخارج لجأ كثير من المسلمين الى التصوف يلوذون به كأسلوب من اساليب المقاومة السلبية (٧٤) ، ثم تحول هذا الدور السلبي الى دور ايجابى مشهود حينما حمل كثير من الصوفيين السلاح لمقاومة المغول بقدر ما يستطيعون ، وبعد أن أخضع المغول

(٧٣) العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ، ق ٣ ورقة ٥٠ ،

Saunders : op. cit., p. 158.

(٧٤) بطروشوفسكى : الاسلام فى ايران ، ٣٣٤ .

بلاد الاسلام فى المشرق لنفوذهم وحكمهم ، بذل الصوفيون جهدهم كله لتحويل هؤلاء الغزاة المدمرين الوثنيين الى الاسلام .

ومما شجعهم على ذلك ان المغول كانوا يكونون احتراماً كبيراً للصوفيين ولا يلحقون بهم شيئاً من الأذى الا اذا اظهروا مقاومة للغزو او الاحتلال المغولى . وربما كانت هذه سياسة اتبعتها المغول دهاء منهم ومكراً حتى يبعدوا هؤلاء الرجال الذين اشتهروا بالثقوى والورع الشديد عن التفاف جماهير الناس حولهم ، وحتى لا يتعرض حكمهم للمقاومة واثارة الثلاقل على يد هؤلاء الصوفيين وأتباعهم ومريديهم . وهذا هو تفسير موقف جنكيز خان من الصوفى الكبير الشيخ نجم الدين الكبرا احمد بن عمر مؤسس الطريقة الكبراوية حينما ارسل اليه يطلب منه أن يخرج من خوارزم حتى لا يتعرض للاذى اثناء غزو المغول لها . وقد غوت هذا الشيخ على جنكيز خان غرضه فرفض طلبه واشترك فى مقاومة الغزو المغولى لخوارزم واستشهد عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م عندما هزم خوارزم شاه وسقطت دولته فى يد جنكيز خان فى ذلك العام (٧٥) .

وقد استغل بعض الناس احترام المغول للصوفيين فكانوا يلبسون خرقة الصوفية ويتشبهون بهم حتى لا ينالهم اذى المغول . وكان البعض الاخر يودعون اموالهم عند هؤلاء الصوفيين حتى لا تتعرض تلك الأموال لنهب المغول وسلبهم ، مثال ذلك ما فعله الشاعر كمال الدين اسماعيل الذى لبس خرقة الصوفية وتشبه بهم واقام فى زاوية خارج مدينة اصفهان عندما اغار المغول على هذه المدينة عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، فلم يتعرض له هؤلاء المغول بأذى ، وأودع اهل اصفهان اموالهم عنده ، ولما اكتشف المغول هذا الأمر اخذوا الأموال وعذبوه حتى الموت (٧٦) .

وقد استغل البعض الاخر اسم الصوفية لمقاومة المغول فثاروا عليهم تحت رداء الصوفية واعلامها . مثال ذلك تلك الحركة التى قام بها رجل يعرف ببئى الكرم الدارانى . وكان هذا الرجل فى حقيقة أمره مشعوذا يرى الناس

(٧٥) الديار بكري : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، مخطوط كتاب
فى التاريخ ، ورقة ٣٣٢ ، براون : نفس المرجع ، ص ٦٢٦ .

(٧٦) براون : نفس المرجع ، ص ٦٨٧ ، ٦٨٨ .

منه الاعاجيب ، ولكنه ادعى التصوف والولاية وتلقب بالمهدى وجمع الناس حوله عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ م وأمر بقتل النصارى واليهود فى مدينة بخارى وبنهب أموالهم ، كما اقنع رجاله والمحيطين به انه قادر على قتال المغول وهزيمتهم بقدرة الله سبحانه وتعالى دون احتياج الى سلاح ، فتبعه لذلك عدد كبير من العامة والدهماء ، وقاموا بقتل شحنة بخارى ومن معه من جند المغول ، واستفحل امر هذا الصوفى المشعوذ ، فتصدى له المغول وهزموه هو وأتباعه الكثيرين وقتلهم شر قتلة (٧٧) . حينئذ ادرك الصوفيون ومن يدور فى ملكهم انه لا فائدة من المقاومة العسكرية أو العلنية ووجهوا جهودهم كلها الى ناحية اخرى ، وهى العمل باصرار وباستماتة على قهر الشر والوثنية عند هؤلاء المغول بتحويلهم الى الاسلام .

ومن أشهر الطرق الصوفية التى كان لها دور كبير فى هذا المضمار طريقة الخوجان التى أسسها يوسف همدانى (ت ٥٣٥هـ / ١١٤٠م) والتى انتشرت بسرعة فى خراسان ، والطريقة الكبراوية التى أسسها نجم الدين الكبرا (ت ٦١٨هـ / ١٢٢١م) ، والتى كان لها نفوذ كبير فى منطقة بخارى ، والطريقة القادرية التى أسسها عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) فى بغداد ، والطريقة الرفاعية التى أسسها احمد الرفاعى (ت ٥٧٩هـ / ١١٨٣م) فى البصرة ، والطريقة السهرواردية التى أسسها فى بغداد عبد القادر السهرواردى (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م) والطريقة الشستية التى أسسها معين الدين الشستى (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م) ، والتى انتشرت فى شرق ايران وأفغانستان وبلاد السند ، الى غير ذلك من الطرق التى عددها بطروشوفسكى فى كتابه «الاسلام فى ايران» ، فكانت اربعة عشر طريقة انتشرت فى ايران وخارجها (٧٨) .

وكان رجال هذه الطرق الصوفية يقومون بدور المدرسين فى المدارس والوعاظ فى المساجد ، وكانوا يقودون الناس لمقاومة الظلم والاضطهاد والاستغلال الذى كانوا يتعرضون له على ايدى الحكام وأعوانهم ، وكان دورهم الأساسى يتمثل فى مقاومة النشاط التبشيرى المسيحى المدعم

(٧٧) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٧٨) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ — ٣٤١ ،

Barthold : op cit., p. 469.

من ملوك اوربا وبابوات روما والذي كان يلقي عطفا من بعض خوانين المغول
وايلخاناتهم قبل أن يتحولوا الى الاسلام . وكما تصدى الصوفيون للغزو
المغولي بقدر ما امكنهم التصدي ووقع منهم شهداء مثل نجم الدين الكبرا ،
وركن الدين امام زادة اللذين استشهدا اثناء دفاعهما عن جرجان وبخارى ،
فقد تصدوا ايضا لهذا النشاط التبشيري النصراني ونجحوا في ذلك النجاح
كله ، وتوج نجاحهم بانتشار الاسلام بين المغول انفسهم في ايران ، وتركستان
وما وراء النهر ، وبلاد القفجاق (٧٩) .

وكان لأتباع طريقتين صوفيتين دور كبير في اسلام كثير من المغول في
نرق الدولة حيث كان يعمل رجال الطريقة الكبراوية ، وفي غربها حيث كان
يعمل رجال الطريقة السهروردية . اما الطريقة الكبراوية فقد سبقت
الاشارة الى انها تنسب الى شيخ العارفين أبي الجناح أحمد بن عمر
الخيوي الخوارزمي المشهور باسم نجم الدين الكبرا . وكان هذا الشيخ قبل
أن يستشهد اثناء غزو المغول لخوارزم عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م قد طار صيته
وارتفع ذكره واصبح يتبعه عدد كبير من المريدين والأتباع والتلاميذ مثل
الشيخ صفى الدين البخارزي ، والشيخ نجم الدين الرازي ، والشيخ جمال
الدين الجيلاني ، والشيخ مجد الدين البغدادي ، وبابا كمال الجندي ، وغيرهم
كثير (٨٠) .

وقد أرسل الشيخ نجم الدين الكبرا عددا من مريديه الى البلاد المختلفة
للدعوة الى الاسلام واظهار شعائره بها . من هؤلاء سعد الدين الحموي الذي
أرسله الى خراسان ، وكمال الدين السرباقي الذي أرسله الى تركستان ،
ونظام الدين الجدي الذي أرسله الى بلاد القفجاق ، وسيف الدين البخارزي
الذي أرسله الى بخارى (٨١) . وقد استقر هؤلاء المريدون في هذه النواحي
بعد استشهد شيخهم على يد المغول ، وكرسوا حياتهم للوعظ والارشاد

(79) Ibid : p. 470

(٨٠) العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ٧ ، الديار بكري : نفس
المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، براون : نفس المرجع ، ص ٦٢٥ — ٦٢٨ ،
بطروثوفسكي : نفس المرجع ، ص ٣٣٨ .
(٨١) العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ٧ .

وتلقين مبادئ الاسلام لهؤلاء الغزاة المتوحشين انفسهم ، وعمل بعضهم فى البلاط المغولى لتحقيق هذا الغرض ، ونجحوا فى ذلك نجاحا عظيما . ومما يدل على ذلك أن اول من اسلم من خوانين المغول كافة ، وهو بركة خان سلطان المغول فى بلاد القفجاق ، اعتنق الاسلام على يد احد اتباع الشيخ الباخرزى . ذلك ان هذا التابع او المريد كان قد ارسل تلميذا لمقابلة بركة أثناء مروره ببخارى ، فاجتمع به هذا التلميذ ووعظه وحجب اليه الاسلام وأوضح له منهجه المستقيم ، فأسلم بركة على يده ، واستمال عامة اصحابه ورجال بلاطه وجنده من المغول الى الاسلام ، ورأى ان يبر هذا الشيخ نظير هدايته له الى الاسلام ، فأرسل يهديه بعض المال ، ولما رفض الشيخ استلام هذا المال توجه بركة خان بنفسه الى منزله وأقام ببابه ثلاثة ايام حتى سمح له بالدخول ، ولما حظى برؤيته والجلوس اليه جدد اسلامه على يديه (٨٢) ، وعاهده الشيخ على الدعوة الى الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه (٨٣) ، وحثه على التمسك بطاعة الخليفة العباسى المستعصم ومكاتبته ومبايعته ومهاداته (٨٤) . واستمرت الطريقة الكبراوية تؤدى واجبها فى هداية المغول الى الاسلام ، واستمرت سلالة رأس هذه الطريقة الشيخ نجم الدين الكبرا فى قيادة هذه الطريقة فى عهد الجنكيز خانين وفى عهد التيموريين الذين ظهر فى عهدهم « مولانا حسين كبرا » حفيد الشيخ نجم الدين كبرا والذى اشتهر كشاعر ، وكصوفى كتب شرحا على كتاب (مثنوى) لمولانا جلال الدين الرومى صاحب الطريقة المولوية (٨٥) .

وقد ظهر فى تركستان فى عهد الحكم المغولى لها جماعات الخوجان المتصوفين ، وقام هؤلاء الخوجان بدور هام فى نشر الاسلام بين المغول . ومن أشهر هؤلاء الخوجان ، الخواجة محمد بن محمد بهاء الدين البخارى .

(٨٢) المصدر السابق ، ج ٢٢ ، ورقة ٧ ، ٨ ، ٢٢٠ .

(٨٣) ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٨٤) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣٠٩ ، ابن خلدون نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٢٣ ، ١١٢٤ .

The Cambridge History of Islam, vol. 5, p. 547.

(٨٥) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٨٨ .

النقشبندى (٧١٧ — ٧٩١ هـ / ١٣١٨ — ١٣٨٩ م) مؤسس الطريقة النقشبندية التى سيطرت على ساحة العمل الصوفى وظهرت بمظهر القوة والنفوذ فى القرن الرابع عشر للميلاد . وقد قضى هذا الصوفى الداعية حياته فى نشر الاسلام وفى خدمة سلطان سمرقند وفى نشر طريقته التى عمت جميع انحاء تركستان وايران واذربيجان واصبحت خانقاواتها وزواياها (٨٦) نقاط تجمع لأتباعه العديدين الذين كانوا يعملون فى تعليم الناس وفى نشر الاسلام بين المغول والترك الوثنيين (٨٧) ، ونشطوا فى ذلك نشاطا كبيرا مستهددا من طبيعة هذه الطريقة التى كان اتباعها ينكرون الانزواء والزهد والعزلة ويشغلون حياتهم وانفسهم « بجهاد الكفار » وبالعمل المفيد المريح للمال ، فقد كان شيخها ، أى شيخ الطريقة ، نقشبنديا أى يعمل فى نقش الفلزات والادوات المعدنية ، فكلمة نقشبند كلمة فارسية تطلق على من يعمل فى هذه المهنة او الحرفة التى كانت حرفة مؤسس هذه الطريقة وحرفة ابيه من قبله (٨٨) . ونظرا لنشاط هذا الشيخ المؤسس وأتباعه فى نشر الاسلام فقد اعتبره الناس اعظم اولياء بخارى حتى يقال خطأ ان من زار ضريحه ثلاثة مرات فكأنه حج الى بيت الله الحرام (٨٩) . كما ان من تلاميذه من صار من العلماء البارزين فى علوم اللغة والتفسير والتصوف ، مثال ذلك الخواجا عبيد الله الذى كان متصوفا وعالما ذائع الصيت حتى تخاصم علماء عصره بسببه نتيجة لاختلاف آرائهم فيه (٩٠) .

(٨٦) الخانقاوات او الخوانق مفردة خانقاه ، وهى بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر . اما الزوايا مفردة زاوية ، وهو اسم اطلق قديما على كل مسجد صغير ، فيه احد الرجال المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظ وارشاد من يتردد على زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية فى أواخر العصور الوسطى فأصبح يقصد به الخانقاه او منزل الصوفية .
انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٤١١ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٤٧) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٠ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٨٨) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٨٩) هامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .

(٩٠) المرجع السابق ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

ومن الخوجان الذين ظهروا بعد ذلك وكان لهم ايضا فضل كبير فى نشر الاسلام فى تلك البلاد ، الخواجة ابو غير بارسا (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) ، والخواجة عبيد الله احرار (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م) وزميله الشيخ احمد اليسوى الذى كان الترك يرون فيه وليا قوميا لدرجة ان المدينة التى دفن فيها سموها تركستان . كما احاط بتبره قبور كثير من خوانين وخوانين الأوزبك الترك الذين حكموا آسيا الوسطى بعد عصر التيموريين الذين أعقبوا الجغتائيين المغول (٩١) . وهناك ايضا ذلك الصوفى الداعية السيد على الهمداني الذى جاب كثيرا من انحاء البلاد اكثر من ثلاث مرات يعظ الناس ويهديهم الى الاسلام . وقد مات هذا الداعية بناحية ختلان على ضفاف نهر جيحون عام ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م وترك لنا مؤلفات عديدة فى مواضيع اخلاقية وصوفية (٩٢) . كما ظهر فى زمن متأخر يعود الى نهاية القرن السادس عشر لخميلاد صوفى او درويش (٩٣) يسمى (اسحاق ولي) قضى اثنى عشر عاما فى تحويل كثيرين الى الاسلام فى كاشغر وياركند وختن ، كما عنى ايضا بنشر الاسلام بين القرغيز والقازاق حتى اسلم على يديه مائة وثمانون ، وهم ثمانية عشر هيكلا من هياكل الوثنيين (٩٤) .

وقد نتج عن جهود هؤلاء الصوفيين والوعاظ والعلماء الاخرين ان دخل مغول آسيا الوسطى فى الاسلام وأصبحوا يحافظون على حدوده ويتمسكون بتعاليمه . وقد لاحظ ذلك احد علماء اوربا الذى زار آسيا الوسطى بعد ذلك

(٩١) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٩٢) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٩٣) درويش لفظ فارسى بمعنى فقير ، وكلمات درويش وفقير كانت تستخدم بمعنى أوسع لمفهوم الكلمة المرادفة وهى كلمة صوفى . وكان كثير من الدراويش يعيشون بصورة دائمة او مؤقتة فى منزل مشترك ، وكان لهذا المنزل اسماء مختلفة مثل خانقاه (كلمة فارسية) ، وزاوية ، وتكية ، وملاذ ، ورباط . وكان الشباب يخضع لرئاسة الشيخ الذى يترأس الخانقاه عادة ويسمى الشيخ او البير (وهى كلمة فارسية) ، والشيخ هو مرشد المريدين والأتباع .

انظر : بطروشوفسكى : الاسلام فى ايران ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٩٤) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٩ .

بمدة كبيرة تعود الى منتصف القرن الماضى متكررا فى زى صوفى ، ولاحظ ان
جسمائى تلك البلاد يتمسكون فى اخلاص بمبادئ الاسلام وتعاليمه (٩٥) .

أما آسيا الصغرى فقد عجل الغزو المغولى بانتشار الصوفية فى معظم
انحاءها ايضا حيث حظيت الطريقة المولوية التى اسسها « مولانا جلال الدين
الرومى » (٦٠٤ — ٦٧٢هـ / ١٢٠٧ — ١٢٨٣م) هناك بمكانة سامية . وكان
والده بهاء الدين محمد عالما مشهورا فى بلخ ، وهرب فرارا من اضطهاد
علاء الدين محمد خوارزم شاه ومن الغزو المغولى الى آسيا الصغرى ومات
بقونية عام ٦١٦هـ / ١٢٢١م ، وقام ابنه جلال الدين بالسير على منهاج ابيه
فى الدعوة الى الاسلام ، فتعلم فى حلب ودمشق وعاد الى قونية (٩٦) ،
واتخذ مدرسة يعلم فيها الناس واتبعه عدد كبير منهم وصاروا ينتمون اليه
ويعرفونه باسم الجالالية نسبة الى اسمه (جلال الدين) وباسم المولوية
نسبة الى لقبه الذى اشتهر به وهو مولانا او مولوى . وقد قام هؤلاء التلاميذ
المولوية بتجميع ما قاله شيخهم فى الصوفية بالشعر الفارسى ووضعوه فى
كتاب سموه « المثنوى المعنوى » وهو دائرة معارف للصوفية يعظمه اهل هذه
البلاد ويحباونه لأولادهم ويقرعونهم فى زواياهم فى ليالى الجمعاعات (٩٧) .

وكان معظم اتباع مولانا جلال الدين الرومى من الطبقات الدنيا والصناع،
وتميزوا بمداراتهم المستمرة والمفرطة للمسيحيين واليهود حتى لا يثيروهم أو
يشيروا المغول الذين كانوا يعطفون عليهم ، ونتج عن ذلك أن انبثت تعاليم
المولوية بين الناس فى هدوء ، وازداد نشاطهم فى نشر الاسلام بين المغول
فى سرية تامة ، وقامت زواياهم بدور ملحوظ فى هذا السبيل . وكانت هذه
الزوايا منتشرة فى معظم المدن والقرى بآسيا الصغرى وكانت مركزا للنشاط
الاسلامى التعليمى هناك (٩٨) .

(95) Vamberg (A.) in E.R.E., vol. 8, pp. 885-887.

(٩٦) براون : نفس المرجع ، ص ٦٥٤ — ٦٥٧ .

(٩٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ .

(٩٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، براون :

نفس المرجع ، ص ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

وقد دعم من هذا النشاط الاسلامى ما قام به اتباع الطريقة الرفاعية او الاحمدية ، أتباع الشيخ احمد الرفاعى (ت ٥٧٩هـ / ١١٨٣م) ، وكانت طريقته قد انتشرت فى كثير من انحاء العالم الاسلامى فى افريقيا وآسيا . وقد نزل ابن بطوطة اثناء تجواله فى آسيا الصغرى فى بعض زوايا الاحمدية فى مدينة ازميز وبرغمه حيث وجد أمير ازميز ومشايخها يقومون بمساعدة الفقراء والمتصوفين ، كما لاحظ نفس الشئ عندما زار زوايا الاحمدية فى بلاد القفجاق حيث وجد فى احداها بمدينة الماجر سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، وكان سلطان تلك البلاد يأتى ومعه الخواتين لزيارة شيخ هذه الزاوية والتبرك به ولتقديم الهدايا والمعونات له ولأتباعه (٩٩) .

وبجانب هذه الطرق الصوفية التى ظهرت فى آسيا الصغرى وقامت بدور هام فى نشر الاسلام بين المغول وغيرهم من الترك الوثنيين ، برزت الطريقة البكتاشية فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الطريقة المولوية . ويبدو أن مؤسسها حاجى بكتاش كان قد هاجر هو الآخر من خراسان الى الأناضول اثناء الغزو المغولى لخراسان ودخلت طريقته فى تنافس مع الطريقة المولوية فى القرن الثامن الهجرى خاصة وان الطريقة المولوية كانت طريقة سنية ، بينما كانت البكتاشية تشتهر بتعاليمها القريبة من تعاليم غلاة الشيعة (١٠٠) .

كما ظهر فى آسيا الصغرى نوع آخر من الدعاة المسلمين يعرفون باسم الأخية الفتيان ، والأخية جمع (أخى) ، على لفظ الأخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه ، والفتيان جمع فتى ، نسبة الى الفتى على بن أبى طالب الذى كانت جماعات الأخية الفتيان تقتدى به فى شجاعته وفتوته . ولذلك لم تكن هذه الجماعات من المتصوفين المنقطعين للعبادة ، وانما كان لكل جماعة منهم حرفة يعملون بها وما تدره عليهم من مال كانوا يعطونه لرئيسهم الذى كانوا يسمونه بـ (الأخى) لينفق منه على الزاوية وعلى ما يلزمها من الفرش والسرير والأوانى ونفقات الطعام والشراب اللازم لهم وللضيوف الذين كانوا يحلون بزوايتهم ، والذين كان الأخية الفتيان يتهافتون على الفوز بضيافتهم

(٩٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٩.

(١٠٠) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٩

Berge : The Bektashi Order of Derwishes, pp. 65-72.

ويتشاحنون فى بعض الأحيان لهذا السبب مع اخية الزوايا الأخرى (١٠١) .
ولذلك امتدحهم ابن بطوطة وقال انه لم ير فى الدنيا أجمل امعالا منهم ، وانه
ليس فى الدنيا من هم اشد احتفاء بالغرباء وأسرع الى اطعامهم وقضاء
حوائجهم . وكان من تقاليدهم ايضا الضرب على يد الحكام الظالمين من المغول
وقتل اهل الشر ومن يساندهم من هؤلاء الحكام ، ولذلك وثق الناس بهم ومالوا
اليهم وانتشر صيتهم وعلا شأنهم حتى أصبح منهم الأشراف والأمراء
والحكام (١٠٢) .

ومن أمثلة هؤلاء الأمراء والأشراف (اخى) زاوية مدينة (اقصر) الذى
كان نائبا للامير ارتنا المعين من قبل خان العراق وايران لحكم هذه المدينة ،
و (جاروق) اخى زاوية مدينة نكدة والذى كان اميرا على هذه المدينة ايضا .
و (امير على) اخى زاوية مدينة قيسارية الذى كان هو الآخر اميرا على هذه
المدينة التى كان وجوها يتبعونه فى طريقته وفى نشاطه (١٠٣) . ويرجع تولى
هؤلاء الأخية الفتيان لمقاليد السلطة فى تلك المدن وغيرها الى العادات التى
كانت تسير عليها هذه البلاد وهى « انه ما كان منها ليس به سلطان
فـ (الأخى) هو الحاكم به . . وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب
الملوك » (١٠٤) ولذلك لم يكن الأخية الفتيان صوفية ، فلباسهم السراويل بينهما
كان لباس الصوفية الخرقة المعروفة ، كما انهم كانوا يحترفون المهن ولا
ينعزلون عن العبادة انعزال كثير من الصوفية ، ولكنهم كانوا يساندون رجال
الطرق الصوفية فى نشر الاسلام وخاصة بين أصحاب الحسب والجاه
والسلطان من المغول حتى أصبح حكام بعض المدن من اتباع الأخية الفتيان (١٠٥) .

وقد انتشرت زوايا الأخية الفتيان من بلاد سلاجقة الروم فى آسيا
الصغرى فى عهد سيطرة المغول عليها الى بلاد القفجاق أثناء حكم مغول

(١٠١) ابن بطوطة : نفس المرجع ، ص ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ .

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ١٩٠ ، ٢٠٩ .

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

القبيلة الذهبية لها . ولكن زوايا بلاد القفجاق لم يعمرها الاخيه الفتيان فقط ، بل نافسهم فى ذلك الخوانين والأمراء والخواتين ، وكذلك الفقهاء والأثرياء والصوفيون . وكان كل هؤلاء يرصدون كثيرا من الأوقاف للانفاق على الزوايا التى كانوا يقيمونها فى هذه البلاد (١٠٦) .

وقد سبقت الإشارة الى أن اول خان اعتنق الاسلام فى بلاد القفجاق كان اسلامه على يد احد الصوفييين ، ولذلك فان الصوفية كان لها انتشار واسع هناك ، ونتج عن ذلك ان كثرت الزوايا التابعة للطرق الصوفية المختلفة التى زار بعضها الرحالة المعروف ابن بطوطة ، وكان لها نشاط كبير فى نشر الاسلام بلغ من تأثيره ان احد خوانين مغول القبيلة الذهبية مال الى الصوفية . هذا الخان هو تدان منكو Tod-Monke (٦٧٩ — ٦٨٦ هـ / ١٢٨٠ — ١٢٨٧ م) الذى لم يكن مسلما فقط بل كان ايضا صوفيا كبيرا وكرس حياته للعبادة والزهد وترك اعمال الدولة يديرها قواده الكبار ، وأحاط نفسه بالمشايخ والفقهاء والصوفييين ، ولم يلبث هذا الخان الصوفى ان تنازل طواعية عن العرش لابن اخيه (طولوى بوغا) حتى يتفرغ للعبادة والزهد دون ان يشغله عنهما شئ أو أمر أمور الحكم (١٠٧) .

وفى بلاد ايران كان التصوف قد انتشر منذ القرنين الثالث والرابع للهجرة ، أى قبل الغزو المغولى لها بزمان طويل ، وكانت خراسان من المناطق الأساسية فى ذلك ، وكان فيها فى القرنين الرابع والخامس للهجرة اكثر من مائتى تكية وزاوية . وفى الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجرى حتى القرن التاسع الهجرى كان التصوف قد انتشر انتشارا كبيرا فى المدن الايرانية خاصة ، وصار التصوف أو لقب الصوفى على الأتق مظهرا أو علامة على حسن الطوية ، ولم تقتصر طائفة المريدين على افراد الطبقات الدنيا من سكان المدن أو الفلاحين فى القرى ، بل انضم اليهم كذلك ملاك الأراضى

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٢ .

(١٠٧) العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٤٨ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ المقرئى : نفس المصدر ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨

الزراعية والتجار وغيرهم ، فكان معظم سكان مدينة اردبيل — على سبيل المثال — مريدين للشيخ صفى الدين اسحاق الاردبيلي الذى توفى عام ١٣٣٤م / ٧٣٥هـ ، وهو الجد الأكبر او البعيد للأسرة الصفوية التى حكمت ايران منذ مطلع القرن السادس عشر للميلاد (١٠٨) .

وهكذا كان التصوف منتشرًا فى أنحاء ايران ، وكانت الزوايا او الخانقوات لا حصر لها هناك ، فكان كل قبر منسوب لأحد الأولياء الصالحين او لأحد الصحابة الذين قدموا الى هذه البلاد أثناء الفتوحات الإسلامية وتوقفوا بها ، كانت عليه زاوية عامرة ، فيها الصالحون والصوفيون المنقطعون للعبادة ، هذا بالإضافة الى الزوايا التى كان ينشئها الفقهاء والصالحون والصوفيون والأمراء . وكانت هذه الزوايا تحيط بها المساجد والمدارس ، فكانت ثلوثًا ذا نفع كبير فى الحفاظ على شعائر الإسلام وعلومه من الاندثار أثناء غزوات التتار التى اقت على بعض المدن وخربتها تمامًا (١٠٩) .

ويلاحظ من قراءة ابن بطوطة ان كل قرية وكل مدينة كان لها شيخها ولها وليها الذى كان يتبرك به الناس (١١٠) ، وكان تأثير هؤلاء الأولياء والمتصوفين كبيرًا على المغول وملوكهم منذ حكمهم لتلك البلاد (١١١) . نذكر لنا الديار بكري أن طائفة الأحمديّة الصوفيّة كان لها تأثير كبير على هولاكو الذى عاش ومات على الوثنيّة والذى حطم بغداد وازال الخلافة العباسية كما هو معروف . ويظهر تأثير الأحمديّة الرفاعية فى أن بعض رجالهم دخلوا بابنه تكودار النار بين يدي والده ، وهى حيلة من الحيل التى يلجأ اليها بعض الصوفيّة ، قوهبه لهم وسماه أحمد ، فأسلم وهو صبي وتسلطن بعد موت اخيه ابغا عام ٦٨٠هـ / ١٢٨١م ، وكان اول من أسلم من خوانين مغول

(١٠٨) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٣٤

(١٠٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(١١٠) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٥٤ — ٢٥٩ .

(١١١) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ٣٥ ، ابن

بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

ايران (١١٢) . كما يذكر ابن بطوطة ان السلطان خدا بنده بن ارغون بن ابغا قد اثر عليه فقيه صوفى وجعله يعلن اسلامه « واسلمت باسلامه التتر » (١١٣)

ومما يدل على عظم نفوذ الصوفييين فى تلك البلاد ان الامير جوبان الذى انفرد بالسلطة فى عهد السلطان ابي سعيد (٧١٦-٧٣٦هـ/١٣١٦-١٣٣٥م) صار من اعظم واخلص المريدين للشيخ صفى الدين اسحاق الازديلى ، مما جعل اكثر اعيان وزعماء المغول ينخرطون فى سلك هذا الشيخ ويتعلقون به تعلقا تاما ، فزاع صيته وشاع امره واصبح له فى انحاء البلاد ولا سيما بلاد ايران مريدون واتباع كثيرون يفدون به بالمهج والارواح . ومما يدل على كثرتهم ان الامير جوبان سأل هذا الشيخ يوما عن ايها اكثر ، جنود السلطان ام اتباعه ومريدوه ، فأجابه الشيخ بأن عدد مريديه فى ايران وحدها يبلغ ضعف عدد جنود السلطان (١١٤) .

وقد أدى هذا كله الى شدة احترام سلاطين المغول لهؤلاء الاوياء والصوفييين ورجال الدين . وقد زار ابن بطوطة شيراز عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م فوجد ملك شيراز السلطان ابا اسحاق جالسا بين يدي قاضيه الشيخ مجدى الدين صاحب الكرامات ممسكا بأذن نفسه ، وكان هذا العمل يدل على منتهى اظهار الادب والاحترام عند المغول، وكان لا يفعله الناس الا اذا جلسوا بين يدي الملك او الخان او السلطان . وكان سلاطين المغول فى تلك البلاد ، أى فى ايران ، قد حسن اسلامهم وتعمق فى قلوبهم الشعور الدينى فصاروا يقدمون الفقهاء فى صدر مجالسهم ويجلسون هم عن يمينهم اظهارا لمدى احترامهم لهؤلاء الفقهاء . وكان بعض هؤلاء السلاطين لا يفارقهم قراء القرآن حيث جلسوا ، وكانت اعطياتهم للفقهاء والصوفييين تفوق الوصف والحصص (١١٥) ، مما يدل دلالة مؤكدة على شدة احترامهم لهم وعلى تأثير علماء الفقه والصوفية على هؤلاء الناس ، هذا التأثير الذى كان له اثر كبير فى تحول المغول الى الاسلام .

(١١٢) ، الخميس ، ج ٢ ص ٣٨٠ .

(١١٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

(١١٤) شرف خان البديلى : نفس المصدر ، ص ٢٠ ، ١١٨ ، ١١٩ .

(١١٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٨ ، ١٤١ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

وقد انتشرت زوايا الصوفية أيضا في بلاد أفغانستان والسند والهند أثناء حكم المغول لها . وقد نزل ابن بطوطة بكثير منها أثناء تجواله في تلك البلاد ووصف لنا بعضا منها ، وذكر أن الناس هناك كانوا يعتقـدون في مشايخها ويأتون لزيارتهم والتبرك بهم من البلاد والقرى المجاورة ، وكذلك كان يفعل السلاطين والخواتين (١١٦) ، مما يدل على مدى تأثير الصوفية في تلك البلاد وفي حكامها من المغول . أما العامل الأخير الذي كان له تأثير أيضا في هذا المجال فهو التجارة والتجار .

٦ - أثر التجارة والتجار في اسلام المغول :

والمعروف أن الدعوة للإسلام كانت تسير جنبا الى جنب مع النشاط التجارى في كل البلاد التى دخلها الاسلام . وكان للتجار المسلمين اثر كبير في تحويل المغول الى هذا الدين نظرا لأن المغول كانوا يعتبرون النشاط التجارى العمود الفقرى للحياة الاقتصادية في بلادهم لقلة الموارد الأخرى بها . وكان جنكيز خان يعرف هذه الحقيقة ويعمل كل ما في وسعه لتشجيع حركة التجارة العالمية التى كانت تمر عبر امبراطوريته البعيدة الأطراف . وفى سبيل ذلك وضع الطرق التجارية تحت الحراسة المشددة ، ونظم البريد ووضع القوافل التجارية تحت الحماية المسلحة وحسن الواحات والمزارع التى يزرعها الفلاحون ، وتم القضاء فى عهده على اللصوص وقطاع الطرق (١١٧) ، خصوصا وأنه وضع قانونا صارما لمقاومة اللصوصية مفاده أن من سرق شيئا عليه أن يعيده ومعه تسعة امثاله ، فان لم يجد ذلك أخذ منه اولاده رقيقا لصاحب الشئ المسروق ، فان لم يكن له اولاد ذبح السارق ذبح الشاه . ولذا كان الناس يتركون دوابهم دون راع أو حارس ، بعد أن ينسم كل واحد منهم دوابه فى أخذها بميسم خاص (١١٨) .

وهكذا أصبحت آسيا أكثر امانا تحت حكم المغول أكثر من أى وقت مضى بسبب قوتهم العسكرية الهائلة ، وبسبب الرعب الذى زرعه فى نفوس

(١١٦) المصر السابق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(١١٧) Saunders : op. cit., pp. 68, 69.

(١١٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .

الناس ، وبسبب قوانينهم التى أشرنا إليها ، وبسبب ضمهم لمعظم دول آسيا ووضعها تحت حكمهم وسيطرتهم . ولذلك نشطت التجارة وتقدم التجار الى عاصمة الامبراطورية وحصلوا من الخوانين العظام فى قراقورم على امتيازات كثيرة ، منها الاعفاء من الضرائب ، وقاموا برحلات منتظمة عبر آسيا من الصين الى ايران وما وراءها فى بلاد الشرق الأدنى وأوربا - وباركوا السلام المغولى الذى حققه الغزاة المغولى فى البلاد الآسيوية التى كانت ممزقة لا يتوافر فيها السلام والأمان بسبب كثرة الحروب والغزوات والمنازعات التى كانت تقوم بين حكامها قبيل الغزو المغولى لها (١١٩) .

وقد حقق المغول شيئا آخر بعد ان هدأت فورة الغزو المغولى . ذلك ان جنكيز خان وخلفاءه من بعده قاموا باعادة تعمير كثير من المدن التى كان قد أصابها الخراب والدمار ، ونشأت مدن جديدة وازدهرت المدن القديمة - فتشجع التجار على ممارسة عملياتهم التجارية (١٢٠) ، وتوافدوا على مدن الامبراطورية من شتى انحاء العالم : من بلاد الاسلام ، وبلاد اوربا المسيحية وبلاد الهند والصين ، واصبحت مدينة مثل تبريز مزدهمة السكان لدرجة ان عدد سكانها وصل تعدادهم فى عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م الى ثلاثمائة الف نسمة - واصبحت هذه المدينة محطة تجارية هامة وسوقا تجاريا كبيرا على الطريق الرئيسى للتجارة الدولية والذى كان يربط اوربا بوسط وشرقى آسيا (١٢١) . كما ربطت مدينة سلطانية التى بناها السلطان اولجاتيو محمد خدا بنده عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م منطقة البحر المتوسط وسواحل البحر الأسود بوسط آسيا والشرق الأقصى (١٢٢) .

وقد صاحب هذا النشاط التجارى العظيم دعوة حثيثة لنشر الاسلام بين المغول ، وكان كثير من التجار دعاة للاسلام فى نفس الوقت ، ولذلك كانوا سببا فى دخول كثير من المغول والترك فى الاسلام ، وتمكن التجار

(119) Saunders : op. cit., p. 69.

(120) Ibid : pp. 69, 137, 141, 188.

(121) Ibid., pp. 132, 143.

(122) Ibid : p. 143.

المسلمون من أن يرفعوا المستوى الحضارى فى منغوليا وبين المغول بصفة عامة بأكثر مما استطاع التجار المسيحيون . وكان مياسير التجار المسلمين يشيدون فى العهد المغولى المدارس والخانقافات والمساجد (١٢٣) ، ويدخلون بلاط الخوانين والایلخانات ويقدمون ما عندهم من حلى وجواهر وقرءاء وعطور وغير ذاك من الملابس الحريرية وغيرها الى الخواتين ونساء الطبقة الحاكمة من المغول ، ولذلك كان تأثيرهم على البلاط المغولى كبيرا ، خصوصا وأن بعض وزراء المغول كانوا اساسا من التجار الأثرياء . فوزير جنكيز خان محمود يلواج والذى سبق الحديث عنه والذى كان حاكما على بكين ، وكان ابنه مسعود حاكما لبلاد ما وراء النهر وآسيا الوسطى ، كان تاجرا خوارزميا مسلما تسكن من أن يقبض على ازمة الحكم فى آسيا الوسطى طوال حياته ، وأن يورثها لابنائها من بعده ، وأن يعمل مافى وسعه لتأمين المسلمين من يطش المغول الذين كانوا وثنيين فى ذلك الوقت ، وأن يعيد الروح الاسلامية الى البلاد بانشاء المدارس والمساجد ورعاية العلماء (١٢٤) .

وهناك تجار مسلمون آخرون احتلوا نفس مكانة محمود يلواج ، مثال ذلك التاجر المسلم عبد الرحمن الذى حل محل تشو تساي (Chu-tsai) كمستشار لجنكيز خان وأوكتاي من بعده (١٢٥) ، والتاجر المسلم قطب الدين حبش عميد الذى كان وزيرا لجفطاي ايلخان تركستان وما وراء النهر والذى سبق الحديث عنه وعن نفوذه فى تلك البلاد (١٢٦) . وقد بلغ من نفوذ التجار المسلمين أن أجبروا قوبيلاي خان على تعديل سياسته بالنسبة للمسلمين الذين كان قد قتل أحد مشايخهم وأجبرهم على عدم ذبح الحيوانات على الطريقة الاسلامية ، مما نتج عنه ان امتنع تجار المسلمين من الذهاب الى قراقورم وبلاد الصين ، ولما بلغ قوبيلاي خان هذا الأمر الفى تعليماته السابقة باضطهاد المسلمين وعذب من سياسته نحوهم (١٢٧) .

(١٢٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٢٤) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(125) Saunders : op. cit., p. 93.

(١٢٦) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

(127) Prawdin : op. cit., p. 332.

وقد استمر هذا النفوذ وهذا التأثير حتى نجح تجار المسلمين في تحويل بعض ايلخانات المغول وملوكهم الى الاسلام . مثال ذلك بركة خان سلطان القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق ، فيقال انه دخل في الاسلام وهو خان على يد تاجرين واغدين من بخارى خلا بهما بعض الوقت وسألها عن عقائد الاسلام فشرحها له شرحا مقنعا انتهى به الى اعتناق هذا الدين والاخلاص له كل الاخلاص ، هذا بجانب رواية اخرى سبقت الاشارة اليها وتفيد بأن اسلام بركة خان كان على يد بعض مشايخ بخارى المتصوفين قبل اعتلائه العرش ببضع سنوات (١٢٨) . ولما كانت عاصمته سراي تقع على الطريق الذي يمر به المسلمون القادمون من ايران وآسيا الصغرى وخوارزم وآسيا الوسطى . فقد امتلأت بلاده بالتجار من كل حدب وصوب ، من ايران والعراقين ومصر والشام وغيرها ، وكانوا يسكنون في أحياء خاصة بهم رعاية لهم وحفاظا عليهم وعلى أموالهم (١٢٩) ، وكانوا ينقلون نشاطهم التجاري شمالا عبر نهر الفولجا (نهر اتل) حتى مدينة بلغار التي تقع على هذا النهر تقريبا عند منتصفه . وهناك كان يتم التبادل التجاري بينهم وبين تجار البلغار والروس ، يدل على ذلك هذا العدد الكبير من النقود العربية التي وجدت في وادي الفولجا وفي روسيا وفي أقصى المناطق الشمالية منها (١٣٠) . وكان سلاطين المغول يشجعون هذه المراكز التجارية التي كانت تعود عليهم بالخير العميم ، وفي نفس الوقت كان هؤلاء التجار وسيلة هامة لنقل المؤثرات الحضارية الاسلامية الى هؤلاء المغول عن طريق مخالطتهم ومعايشتهم والاحتكاك بهم وتزويدهم بمنتجات تلك الحضارة من سلع تجارية وعلوم اسلامية كان التجار المسلمون ينشرونها في كل مكان يصلون اليه ، مما ترك اثرا قويا على هؤلاء المغول وانتهى الامر بتحولهم الى الاسلام وتثريبهم للحضارة الاسلامية نتيجة

(١٢٨) بارتوود : نفس المرجع ، ص ١٧٧ ، ارنولد : نفس المرجع ،

ص ٢٥٩ ،

Howorth : op. cit., vol. 2, p. 105.

(١٢٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٨ ،

Howorth : op cit., v. 2, p. 125.

(١٣٠) هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ،

ج ١ ص ٧٦ — ٧٩ .

لهذا المؤثر الهام ونتيجة للمؤثرات الأخرى التى تعرضوا لها والتى عرضنا لها حتى الان .

وهكذا تغلب الاسلام على عقبتين هامتين : اولاهما التبشير البوذى المسيحى الذى تكاثف عقب الغزو المغولى لبلاد الاسلام، وثانيهما همجية المغول وبدأوتهم وشراستهم ووثنيقتهم ، فقد قضى على العقبة الأولى تماما فى ممالك المغول الثلاث : فى ايران وبلاد القفجاق وبلاد ما وراء النهر وتركستان ، وتغلب أيضا على العقبة الثانية فى هذه الممالك الثلاث وطوع المغول فيها لثقافته والى اعتناقه فى النهاية ، واكتسب الاسلام بذلك شعبا جديدا اضافهم الى الشعوب الاسلامية التى دخلته من قبل والتى اعطته من قوتها وغتوتها عمرا جديدا ومتجددا . ولكن كيف تم ذلك وكيف تحول هؤلاء المغول القساة الوثنيون الى الاسلام ؟ ومتى ؟ وما هى المظاهر التى صاحبت ذلك وترتبت عليه ؟

الفصل الثالث

تحول مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق

الى الاسلام

من البداية نود أن نشير الى أن انتشار الاسلام فى مملكة مغول القفجاق وفى مملكتى المغول الأخرتين فى ايران ووسط آسيا قد مر بمرحلتين : المرحلة الأولى هى مرحلة التمهيد والتهيئة ، وفيها أسلم بعض خوانين المغول وبعض حكامهم وبعض جندهم وقبائلهم ، وظل البعض الآخر على الوثنية واعتنق فريق الديانة المسيحية أو الديانة البوذية . وكان الصراع بين الاسلام وبين هذه الأديان ظاهرا وواضحا وشديدا ، وقد سبق عرض العوامل التى اجبت من هذا الصراع فى الفصلين السابقين : وأتى الآن الدور لكى نبين مظاهر هذا الصراع وما وصل اليه من نتيجة : والمرحلة الثانية ، وهى مرحلة التحول النهائى والتام لمعظم المغول الى الاسلام ، وفيها أصبح الاسلام هو الدين الرسمى للدولة ، وتعاقب على الحكم خوانين وملوك مسلمون حتى النهاية . ولا بد أن يتبع ذلك مظاهر معينة تدل على مدى انفعال هؤلاء المغول بالاسلام ومدى تأثيره فى حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية .

وعلى ذلك فسوف نتبع فى حديثنا عن كل مملكة من الممالك الثلاث هذه الخطوات ، وهو الحديث عن مرحلة التمهيد والتهيئة لانتشار الاسلام ، ثم مرحلة التحول النهائى والتام للاسلام ، ثم مظاهر هذا التحول وهذا الانتصار الذى حققه الاسلام فى كل مملكة من ممالك المغول الثلاث . وقبل ان نبدأ حديثنا عن مملكة المغول فى بلاد القفجاق نود أن نعطى فى عجالة نبذة عن موقعها وعن حدودها وعن الشعوب التى كانت تسكنها ومدى انتشار الاسلام بين هذه الشعوب .

١٠ — موقع مملكة مغول القفجاق وحدودها وشعوبها :

سبقنا الإشارة الى أن مملكة المغول فى بلاد القفجاق كانت تحتل منطقة واسعة تمتد من نهر ايرتيش شرقا الى أرض البلغار غربا ، ومن روسيا وبلاد الصقالبة فى الشمال الى ممالك المغول فى ايران وآسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهر وتركستان فى الجنوب ، وأنهم عرفوا هناك باسم مغول القبيلة الذهبية نسبة الى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى ، وأن غالب سكان دولتهم كانوا ينتمون الى الأتراك والتركمان (١) وكان كثير من هؤلاء السكان يعتنقون الاسلام مثل أهل خوارزم وبلاد الخزر (٢) والبلغار (بلغار

(١) انظر ، ص ٢٥ ، وانظر أيضا : عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٥ ، هامبرى : نفس المرجع ، ص ١٤٣ ، بارتولد : نفس المرجع ص ١٦٦ ، ١٦٧

Saunders : op. cit., p. 157-158.

(٢) الخزر أمة من الترك ، سموا بهذا الاسم لصغر عيونهم ، وكانت مساكنهم او دولتهم تسيطر على الأرض المعروفة بصحراء حاجى طرخان والتي تقع بين بحر الخزر (مصب نهر الفولجا) والبحر الأسود وكانوا موجودين فى هذه المنطقة منذ القرن الثالث للميلاد ، وقامت الحروب بينهم وبين أكاسرة الفرس ثم بينهم وبين العرب بعد ظهور الاسلام ، وكانت ديانتهم النصرانية واليهودية والوثنية ، وبعد احتكاكهم بالمسلمين انتشر بينهم الاسلام وصارت أكثر جيوش الخزر من المسلمين ، وصار نصف عاصمتهم يخص المسلمين والنصف الثانى يخص غيرهم وفيه يسكن الملك الذى بقى على اليهودية هو وحاشيته ، ثم قامت الحروب بينهم وبين الروس منذ عام ٢٧٢هـ/٨٨٥م وتحالف الروس مع أباطرة بيزنطة على القضاء على دولة الخزر ، وتم ذلك عام ٤١٠هـ/١٠١٩ ، وكان انقراض الخزر كشعب او كأمة عند غزو المغول لبلادهم عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م فقد ذاب الخزر فى المغول بحكم تأثير الغالب على المغلوب . وفى الفترة التى انقضت بين سقوط دولتهم وبين غزو التتار لبلادهم كان القفجاق من الترك قد انساحوا فى بلادهم وأقاموا لهم دولة فى الجزء المحيط بنهر الفولجا من الجنوب حتى شبه جزيرة القرم .

انظر : أبو الفدا : تاريخه ، ج ٣ ص ١٣٣ — ١٣٥ ، الديار بكرى : الخميس ج ٢ ص ٣٦٩ ، الرمزى : تلخيص الأخبار ، ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ — ١٩٥ .

الفلوجا) والآص(٣) ، وكان بعضهم يدين بالمسيحية مثل الروس والجركس، منذ القرن العاشر للميلاد على يد المبشرين البيزنطيين(٤) .

ونود هنا أن نشير في عجلة الى شعبيين بالذات من هذه الشعوب ، وهما شعبا القفجاق والبلغار نظرا لأهميتهما بالنسبة لمملكة المغول التي قامت في تلك البلاد . فالقفجاق كانوا شعبا أو قبائل من الترك البدو الرحل، الوثنيين في غالبيتهم ، تزايدت أعدادهم في القرن الحادي عشر للميلاد. فانتشروا في أماكن واسعة واستقروا في حوض نهر الفولجا الأدنى وفي صحراء الغز التي كانت تقع فوق بلاد ما وراء النهر وخوارزم والتي كانت تمتد غربا حتى نهر الفولجا والبحر الأسود وتمتد شمالا لتصل الى جنوب روسيا ، ولذلك سميت صحراء الغز منذ ذلك الحين باسم صحراء أو برية القفجاق أو دشت قفجاق أو دشت قفجاق حسبما نطقها الترك والفرس(٥) .

ومعنى ذلك أن هذا الشعب كان أكثر عددا وأكثر أهمية من باقي الشعوب التي كانت تسكن هذه المنطقة الواسعة ، فأصبح اسمه علما عليها ، وكون مملكة كانت عاصمتها مدينة سوداق بشبه جزيرة القرم(٦) وكان القفجاق بجانب غالبيتهم التي تدين بالوثنية ، كان فريق منهم يدين بالاسلام ، لتعرضه للتأثير القادم عليه من بلغار الفولجا ، وفريق آخر كان يدين.

(٣) الآص شعب مسلم ، كان يسكن منطقة مرتفعة شمال شبه جزيرة القرم .

أنظر : ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢٣٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٦٥ .

(٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٢٣ ، حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ١٦١ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١١٢ — ١١٥ ، باسيلوس خرباوي : نفس المرجع ، ص ٢٩ — ٣١ .

(٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ، عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٢٣ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٠٦ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١١٢ — ١١٥ .

(٦) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٠٦

Howorth : op. cit., v. 2, p. 23.

بالمسيحية لتعرضه للتأثير المسيحي الوافد عليه من روسيا وبيزنطة وغرب أوروبا (٧) . وظل آخرون على ديانتهم الوثنية حتى بعد غزو المغول لبلادهم وحتى عصر ابن بطوطة الذى زار بلادهم عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ولاحظ ذلك أثناء تجواله فى شبه جزيرة القرم وغيرها من بلاد القفجاق (٨) ، بل ان عرب شاه يقول انه كانت هناك بقية من القفجاق يعبدون الأصنام الى عهده ، أى حوالى منتصف القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر للميلاد (٩) ، ويقرر بارتولد أن شبه جزيرة القرم لم يكن بها مسلمون قبل عهد المغول (١٠) ، ولكن الاسلام انتشر بين غالبيتهم بعد أن فتح المغول بلادهم (١١) .

ونظرا لقرب بلاد القفجاق من جنوب روسيا فقد وقعت الحروب بينهما منذ عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م وحتى مجيء المغول عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وكانت الحروب سجالا بينهما ، واضطر الروس الى مصاهرتهم اتقاء لخطرهم ، واضطروا أيضا الى محالفة الروم البيزنطيين الذين كانوا قد غضبوا لهجوم القفجاق على مدينة القسطنطينية عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ، فسارع القفجاق بالاغارة على ولاية كييف ونهبوها ووضعوا السيف فى رقاب أهلها عام ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ، واستولوا على سواحل البوسفور وسواحل بحر أوزاق (بحر ازوف) حتى يمنعوا التقاء الروس بالبيزنطيين . ولكن هذه الحروب المتعددة التى قامت بين الروس والقفجاق اضعفت كلا الفريقين مما اعطى للمغول الفرصة للانتصار عليها حينما جاءوا لغزو هذه البلاد منذ عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وعندما تمكن باطو بن جوجى من اتمام غزو بلاد القفجاق وجنوب روسيا عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م هرب خان القفجاق الى بلاد المجر ، وانقرضت دولة القفجاق نهائيا منذ ذاك التاريخ ، وامتزج هذا الشعب بالمغول امتزاجا كبيرا حتى استحال التمييز بينهما ، وصاروا جنسا واحدا ودخلوا معهم فى الاسلام ،

(٧) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٦

Saunders : op. cit., p. 18, 118.

(٨) رحلة ابن بطوطة ص ٢١٤ .

(٩) عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، ص ٥٣ .

(١٠) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٤٧ .

(١١) الرمزي : نفس المرجع ج ١ ص ٢٢١ .

واشتركوا معهم فى الملك والسلطة حتى تسمت دولة المغول هناك باسم سلطنة القفجاق ودولة القفجاق (١٢) ، فى حين ان مغول هذه السلطنة كانوا يعرفون باسم مغول القبيلة الذهبية نسبة الى لون خيامهم الذهبى كما اثرننا من قبل او مغول الشمال على اعتبار ان خانيتهم او سلطنتهم كانت تقع شمال خانية تركستان وما وراء النهر ، وخانية ايران والعراق وآسيا الصغرى (١٣) ، كما كانوا يسمون أيضا باسم الكومان Cumans عند البيزنطيين ، وباسم Polovtsians عند الروس (١٤) .

أما شعب البلغار (١٥) ، فهم قوم من الترك او قوم مولدون من الترك والصقالبة ، ويقال ان هذا الاسم اطلق عليهم نسبة الى رجل صالح مسلم يسمى بلار كان تدعاهج ملكهم الماس او الموس Almus وزوجته من مرض

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

Saunders : op .cit. ,p. 18.

(١٣) العينى : نفس المصدر ، ورقة ١٩ ، أبو الفدا ، ج ٤ ص ٦٨ .
Howorth : op cit., v. 2, p. 23-24.

(14) Saunders : op. cit., p. 81.

Howoorth : op. cit., v. 2, p. 17

(١٥) المقصود بالبلغار هنا هم بلغار وادى الفولجا (اثل) الأوسط ، وليس بلغار الطونة والدانوب ، وان كان الاثنان من أصل واحد ومن الشعوب الرعوية التركية الأصل (انظر : الرمزي : نفس المرجع ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ٧٦) . غير ان بلغار الدانوب كانوا قد أقاموا لأنفسهم دولة أو مملكة تسمى مملكة بلغار فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى عند الأطراف الشمالية لبيزنطة وعلى طول ضفاف الدانوب الأدنى . ويبدو أن بلغار الدانوب كانوا قد انقصلوا عن اخوانهم بلغار الفولجا منذ ذلك التاريخ نتيجة ضغط من الخزر واتجهوا غربا من مناطق الاستبس المجاورة لبحر آزوف شمالى البحر الأسود واستقروا عند مصب الدانوب ، ثم تحولوا الى النصرانية عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م واختلطوا بالسلاف الموجودين هناك وأخذوا سنتهم وعاداتهم حتى أصبحوا يعدون الآن منهم .
انظر : الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٨٤ ، حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٢ .

واشترط عليهما الدخول فى دين الاسلام ، ان شفيا ، فأجاباه الى ذلك . ولما شفيا دخلا فى الاسلام وأسلم جميع البلغار باسلام ملكهم وتسمى شعبيهم يباسم هذا الرجل الصالح الذى عرب بعد ذلك الى بلغار ، وأطلق هذا الاسم ايضا على العاصمة وعلى المملكة التى كانت تقع فى وادى الفولجا الأوسط وتمتد بين جبال الأورال ونهر الفولجا (١٦) .

وقد اتصل ملك البلغار الماس هذا بالمسلمين تجاريا وسياسيا فأرسل رسله الى الخليفة العباسى المقتدر بالله عام ٣٠٩هـ/٩٢١م يطلب ارسال بعض الفقهاء والعلماء ليفقهوه فى الدين وليعلموا قومه شعائر الاسلام وعلومه وليساعدوه فى انشاء المساجد وفى تعيين سمت القبلة فى عاصمته وفى بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فى الدين مثل ملك الخزر وملك الروس والقفجاق الذين كانوا يحيطون بدولته . وقد استجاب له الخليفة المقتدر وأرسل سفارة كان احمد بن فضلان من بين أفرادها . ووصلت هذه السفارة او البعثة الى مدينة بلغار فى العام التالى ، وكان الملك الماس قد خرج لاستقبالها ونثر عليها العملات الذهبية ، ولبس لباس السواد ، وهو شعار العباسيين ، وتعمم وغير اسمه الى اسم اسلامى ، وهو جعفر بن عبد الله على اسم الخليفة المقتدر نفسه ، وأمر ان يخطب له بذلك على المنابر ، وان يذكر اسم الخليفة العباسى فى خطبة الجمعة ، وينقش ايضا على العملة (١٧) . وانتشر الاسلام بين البلغار منذ ذلك الحين واتصلوا بمصر ، وكان ماكهم يخاطب فى الرسائل التى كانت ترد اليه منها بأنه « سيف الاسلام والمسلمين ، ناصر الفزاة والمجاهدين ... نخر أمير المؤمنين » (١٨) . واخذ البلغار فى نشر الاسلام بين الأقوام التركية المجاورة لهم مثل الباشقرد (الباشكير) الذين كانوا يسكنون فى شرقيهم ، وكان غالبهم نصارى ، وأرسل البلغار اليهم سبعة دعاة من المسلمين ، فسكنوا بينهم وتلطفوا فى

(١٦) الرمزي : نفس المرجع ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٦٤ .

(١٧) المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٨٧ — ٢٩٠ ،

Howorth : op cit., v. 2, pp. 172, 439.

(١٨) العمرى : التعريف ، ص ٥١ .

شعريتهم بدين الاسلام وسعائره ، فأسلم كثير منهم ، وصاروا سنة على مذهب الامام أبى حنيفة (١٩) .

وبجانب ذلك أخذ البلغار فى جهاد امم الكفر من الخزر والروس والروم البيزنطيين ، فأغار ملكهم الماس على القسطنطينية فى خمسين الف فارس ، ثم لم يلبث ان اخذ فى جهاد الروس ، وكانت اكثر حروب البلغار منذ اسلامهم مع الروس حيث صايف ذلك اول ظهور قوة المملكة الروسية وانتشار الروس من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، واستمرت الحروب بينهما منذ ذلك الحين حتى اتى الغزو المغولى لتلك البلاد عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، فأعلن ملك البلغار خضوعه للمغول لعجزه عن مقاومتهم وصالحهم على ان يضرب السكة باسمهم ويوزودهم بالجنود وقت الحاجة . وبذلك صارت بلاد البلغار جزءا من مملكة المغول الشمالية ، وان كانت تتمتع بالحكم الذاتى حيث كان البلغار يختارون ملوكهم ويديرون امورهم الداخلية بأنفسهم (٢٠) .

وقد تعاون هؤلاء البلغار المسلمون مع خوانين المغول الذين أسلموا بدءا من عهد بركة خان المسلم (٦٥٤ — ٦٦٥هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٧م) فى نشر الاسلام سواء بين المغول او بين غيرهم من الأقوام الداخلة تحت طاعة هؤلاء المغول . وهكذا أصبح مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق محاصرين بقوى اسلامية من الشمال حيث البلغار المسلمون (٢١) ومن الجنوب حيث بلاد ما وراء النهر وخوارزم وايران وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى المسلمون الذين كانوا قد غزوا الساحل الجنوبى للبحر الاسود منذ نهاية القرن الحادى عشر للميلاد (٢٢) . وكان اثر بلاد البلغار وخوارزم أشد قوة فى تحويل مغول القفجاق الى الاسلام ، اذ كانتا ضمن املاك هؤلاء المغول وكانت بلاد البلغار بالذات اقرب الى العاصمة سراى حيث كانت تقع فى شمالها على نهر

(١٩) الرمزي : نفس المرجع ، ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٢٠) المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢١) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٦ .

(٢٢) حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

القولجا ، ومعنى ذلك ان هذا النهر كان يربط بين عاصمتي البلغار (٢٣) ومغول القفجاق ، وبذلك كان البلغار اقرب الشعوب الاسلامية الى هؤلاء المغول من غيرهم من شعوب الاسلام في خوارزم وايران وآسيا الصغرى .
واذلك كان تأثيرهم قويا ومباشرا (٢٤) .

وقد التقت جهود هؤلاء البلغار المسلمين وجهود خوانين مغول القبيلة الذهبية على هدف واحد وهو نشر الاسلام داخل مملكتهم في بلاد القفجاق ، ومن حسن الحظ ان الخوانين الوثنيين لم يتعدوا ولم يظل حكمهم في تلك البلاد ، ذلك انه لم يحكم هناك الا خان وثني واحد ، وهو اول حكامها من المغول ويسمى باطو بن جوجى بن جنكيز خان (٦٢٤ — ٦٥٤ هـ / ١٢٢٧ — ١٢٥٦ م) .

٢ — مرحلة التمهيد والتهيئة لتحول مغول القفجاق الى الاسلام :

كانت خانية المغول في بلاد القفجاق من نصيب جوجى بن جنكيز خان ، ولما توفي جوجى قبيل وفاة ابيه بستة اشهر عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م تم تقسيم بلاده بين اولاده ، فخص ابنه باطو القسم الغربى من الخانية ، وتولى ابنه الاكبر (اورد) حكم القسم الشرقى من هذه الخانية ولكن معظم مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق كانوا يميلون الى باطو فأعلنوه ملكا عليهم وعلى.

(٢٣) كانت عاصمة مملكة البلغار تسمى أيضا بلغار او بلار او بلغار . وكانت اشهر مدينة في بلاد القبيلة الذهبية بعد عاصمتها سراي ، وكانت تقع على بعد نصف فرسخ من الشاطئ الشرقى لنهر القولجا ، وعلى بعد حوالي عشرين مرحلة شمالي سراي التي كانت تقع على نفس الشاطئ قرب بحر قزوين (بحر الخزر) . وقد زار ابن بطوطة مدينة بلغار في شهر رمضان عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م ولاحظ مظاهر التقدين عند أهلها ، وقال القلقشندي انهم مسلمون على المذهب الحنفى .

انظر : ابن بطوطة : رحاته ، ص ٢٢٥ ، القلقشندي : صبح الأمشى ، ج ٤ ص ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، الرمزي : تلقيق الاخبار ، ج ١ ص ٢٦٣ ،

Sounders : op. cit., p. 81.

Howorth : op. cit., v. 2, p. 172, 439.

(٢٤) العمرى : التعريف ، ص ٥١ .

مغول القبيلة الذهبية كلها ، واعترف جنكيز خان بهذا العمل قبيل وفاته ،
نانكمش سلطان اوردا واقتصر حكمه على مقاطعة صغيرة في القفجساق
الشرقية ، وعرف مغول هذه المقاطعة باسم القبيلة البيضاء ، بينما عرف
مغول باقي المملكة باسم القبيلة الزرقاء او السوداء ، وقد خلط الكتاب
الروس بينهما فأطلقوا احيانا اسم القبيلة الزرقاء على القسم الشرقى الخاص
بأوردا واولاده وقبيلته ، لأنهم كانوا يعيشون بجوار بحر أرال او البحر
الأزرق (٢٥) .

وقد توسع باطو خان الذى كانت مملكته تتركز حول نهر الفولجا (نهر
١٢٣٧هـ / ١٢٤٢م الى جبال الكريات وتوغل في روسيا وبولندا
والجر ودلماشيا ، فطغت شهرته على أخيه الأكبر اوردا وصار يلقب منذ ذلك
الحين بخان القبيلة الذهبية واصبح يعدل في العظمة والسلطان خان المغول
لأعظم ، وأهمل التاريخ شأن أخيه (٢٦) .

حكم باطو خان مدة تقرب من الثلاثين عاما ، وكان فيما يبدو يميل الى
المسيحية وان لم يعتنقها ، وكان ابنه صرتق Sartak مسيحيا ولكنه
لم يوفق في الجلوس على عرش والده ، اذ كان لحظة وفاة هذا الوالد
موجودا في قراقورم حيث عين هناك خلفا لوالده ، ولكنه مات في الطريق
الى سراى عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، فعين عمه بركة Berke على عرش
تلك البلاد بدلا منه (٦٥٤ — ٦٦٥هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٧م) (٢٧) . وبتعيين

(٢٥) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، المقریزی :
السلوك ، ج ١ ق ٢ حاشية (٤) ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، فايد عاشور : العلاقات
السياسية بين المماليك والمغول ، ص ٢٠٦ ،
Howorth : op. cit., v. 2, pp. 1, 2, 216.

(٢٦) المقریزی : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٢٩٤ — ٣٩٥ حاشية (٤) ،
حسنيين ربيع : نفس المرجع ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، فايد عاشور : نفس المرجع ،
ص ٢٠٦ ،

Howorth : op. cit., v. 2, p. 216.

(٢٧) المقریزی : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٩٤
Saunders : op. cit., p. 156.

الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٤٠٢ .

بركة خاناً لبلاد القفجاق تحولت هذه البلاد تدريجياً إلى الإسلام فأصبح الإسلام دين الدولة الرسمي منذ ذلك الحين ويعود الفضل في نجاح الحركة الإسلامية على هذا النحو إلى شخصية بركة خان نفسه . فقد كان بركة مسامحاً منذ طفولته ، ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن الكريم على يد أحد فقهاء مدينة خوقند (٢٨) . ومعنى ذلك أنه أسلم قبل توليه عرش مغول بلاد القفجاق ، يؤكد ذلك ما رواه لنا القلقشندي وغيره من أن بركة ذهب إلى قراقورم لحضور حفل تنصيب منجو خان على عرش الامبراطورية المغولية ، والمعروف أن منجو خان هذا قد تم تنصيبه عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م ، وبعد أن تم ذلك واثناء عودة بركة إلى بلاده مر وهو في طريقه ببخارى بالشيخ شمس الدين البخارزي أحد مريدي الشيخ نجم الدين كبرا ، واجتمع به وأسلم على يديه ، فكان أول خوانين المغول الذين اعتنقوا الإسلام (٢٩) . وقد أكد هذه الحقيقة وليم روبروق الذي يفهم مما رواه لنا أن بركة كان مسلماً عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م ، وهي السنة التي مر فيها روبروق ببلاد القفجاق في طريقه إلى قراقورم سفيراً إليها من قبل لويس التاسع ملك فرنسا ، كما أفاد هذا المبعوث الأوربي أيضاً بأن لحم الخنزير لم يكن يؤكل في أوردا (معسكر) بركة (٣٠) . وهناك رواية أخرى لا نرجحها تقول بأن بركة خان أسلم بعد أن تولى عرش الخانية على يد تاجرين وافدين من بخارى (٣١) .

وسواء كان أسلام بركة خان قبل توليه العرش أم بعد توليه ، فقد أخذت خانية القبيلة الذهبية تأخذ شكلها ووضعها في عهده كدولة إسلامية . خاصة بعد أن بنى لها عاصمة إسلامية تسمى سراي الجديدة التي سميت فيما بعد باسم سراي بركة والتي كانت قريبة أو مجاورة لسراي القديمة التي

(٢٨) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ .

(٢٩) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣٠٩ ، العيني : نفس المرجع ج ٢٢ ، ورقة ٢٢٠ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٧ ، الرمزي : ج ١ ص ٤٠٤ — ٤٠٧ .

(٣٠) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٧ ، ارنولد ص ٢٥٩ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 105.

(٣١) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٦ ، ٧ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

أنشأها اخوه باطو من قبل (٣٢) ، والمدينتان تقعان على الضفة الشرقية لنهر الفولجا (اثل) قرب بحر قزوين (الخزر) ، وربما كانتا مدينة واحدة بدأ باطو فى بنائها وأتم بركة هذا البناء ، ثم نمت وازدهرت كمركز للتجارة العالمية ملء بخليط من السكان المغول والترك والروس (٣٣) .

وقد تركزت أعمال بركة فى الدفاع عن الاسلام الذى كاد يطيح به جده جنكيز خان وابن عمه هولكو ، بل انه عادى ابن عمه هذا لذلك السبب ، وكرس حياته كلها لنشر الاسلام سواء بين قومه فى بلاد القفجاق او بين

(٣٢) ورد اسم سراى بصور مختلفة . فقد ذكرها ابو الفدا (ج ٤ ، ص ٤) باسم سراى ، وذكرها العبرى (ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦١٧) والقلقشندى (ج ٤ ص ٤٥٧) بنفس الاسم . اما ابن بطوطة (ص ٢٤٢ من رحلته) . فقد ذكرها باسم السرا ، وايضا باسم السرى (ص ٢٤٢ من رحلته) . وذكرها عرب شاه (ص ٥٦) باسم سراى ، وهو الاسم الذى كتبت به عند الأوربيين ، فهم يكتبونها Sarai أو Serai ويقول بارتولد (ص ١٧١) ان كلمة سراى كلمة فارسية اخذها المغول والترك منذ زمن بعيد ، وكان المغول يطلقونها على مقام الخان اى على مقر سكنه او على قصره ، ثم اتسع معناها ومدلولها فاطلقه ايضا على المدينة التى تنشأ حول السراى . ومن ذلك مثلا قرية سراى الواقعة شمال ترمذ على نهر جيحون ، وسراى الواقعة على الفولجا ، ثم باغجة سراى الواقعة بالقرم ، وهناك (يكى سراى) اى سراى الجديدة وهى سراى بركة بخلاف سراى الاولى القديمة التى أسسها اخوه باطو ، والثانية تقع شمال الاولى على الضفة الشرقية لنهر الفولجا ، ويعتقد بارتولد انه ليس هناك مدينتان تحملان اسم سراى ، والأرجح فى نظره أن كلمة (يكى) كانت تطلق على الأحياء الجديدة على اعتبارها مدنا .

انظر : بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ويلاحظ أن لفظ سراى كان يطلق فى مصر على قصور بعض الحكام من اسرة محمد على ، فكان يقال مثلا سراى عابدين او سراى رأس التين ، وهكذا . وقد حرف العامة هذا اللفظ الى كلمة سراية ويقصدون بها المبنى الضخم او العمارة الكبيرة الفخمة .

(٣٣) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

Saunders : op. cit., p. 157.

الأقوام الأخرى الخاضعة لسلطانه ، فأظهر شعائر الاسلام فى بلاده ، وحمل
اهم التفجاق على الدخول فى هذا الدين ، وأخذ به جل عشيرته وقومه ،
واسامت زوجته. ججك خاتون واتخذت لها مسجدا من الخيم يحمل معها حيث
اتجهت وتضرب حيث نزلت ، واعتنق جيش بركة الاسلام وكان كل فارس
يحمل معه سجادة للصلاة حتى اذا حان وقتها ادى الفريضة على اكمل وجه ،
كما امتنع الجند عن تعاطى المسكرات . وأخذ بركة خان يستقدم العلماء
والفقهاء ويبنى المساجد والمدارس لتعميق الثقافة الاسلامية بين شعبه من
المغول والترك (٣٤) ولذلك ليس عجيبا ان يصفه المؤرخون بأنه كان من « اعظم
ملوك التتر » وليس عجيبا أيضا اذا مانسبت اليه بلاد القفجاق فصارت تعرف
بعد وفاته بزمان طويل باسم دشت بركة بدلا من دشت القفجاق ، كما سمي
مغول القفجاق بعد موته بحوالى قرن باسم تثار بركة ، كما سميت العاصمة
باسم سراى بركة (٣٥) .

ولكن هذا المد الاسلامى الرائع الذى سوف نفصل فيه القول عند
حديثنا عن مظاهر انتشار الاسلام ، أصيب بانحسار مؤقت عندما تولى هذا
الخان وخلفه على العرش ابن اخيه منكوتمر Mangu Timur Khan
ابن طغان بن باطو خان (٦٦٥ — ٦٧٩ هـ / ١٢٦٧ — ١٢٨٠ م) . وكان هذا
الخان غير مسلم فيها يبدو . وقد صمت المؤرخون جميعا قدامى ومحدثين عن
ذكر أى شئ يتعلق باسلامه ، وساق معظمهم خبر توليه العرش وخبر وفاته
وبعض الاحداث التى تمت فى عصره ، ولم يرد ذكر لأى شعارات اسلامية

(٣٤) ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ص ٢٤٩ ، عرب شاه : نفس
المصدر ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ، ص ٣٩٥ ،
العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٧٠ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ،
ج ٧ ص ٢٢٢ ، الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٤١٤ — ٤١٨ ، ٤٥٤ ،
٤٥٥ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ .

(٣٥) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤ ، ١٧ ، العمرى : مسالك
الابصار ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦١٧ ، عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٣ ، ٥٦
Saunders : op. cit., p. 159.

Howorth : op. cit., v. 2, p. 125.

على العملة التى تم سكها فى عهده (٣٦) ، وان كان الاستاذ الرمزى التركى الأصل قد ذكر لنا أن الفاضل المرجانى رأى درهما مضروبا فى بلغار عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م وآخر مضروبا عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م وعلى الأخير عبارة « حمدا لله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له » ويستشهد بذلك على اسلامه (٣٧) ، غير أن عدم ذكر اسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الدرهم وصمت المؤرخين جميعا عن أى شيء يتعلق باسلامه يدل على انه لم يعتنق الاسلام وان كان لم يعاديه ، والدليل على ذلك هو موصلة السياسة التى اتبعها عمه السلطان بركة فى محالفة مصر الماوكية .

فقد تبادل منكوتمر هذا وسلاطين مصر الرسل والرسائل وفيها يتواصلون بمقاتلة أبغا بن هولكو وجنوده ومساعدة كل منهما الآخر على ذلك ، واثرت هذه العلاقة الوطيدة والمنظمة مع مصر فى حمل الاسلام والتأثيرات الثقافية الاسلامية الى بلاد القفجاق والى بلاد روسيا ومناطق الأستبس الشمالية . فأنشئت المساجد والقصور فى شبه جزيرة القرم على يد المعماريين المصريين ، وحملت الفسيفساء ورسوم الحوائط الى قصور سراى ، وامتلات هذه المدينة بالتجار والرحالة والحرفيين ، وتناقص العنصر البدوى بين مغول القفجاق (٣٨) .

(٣٦) المصادر السابقة ، وانظر أيضا : ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ٨٦٠ ، ١١٣٣ — ١١٣٦ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ ، ٥٨٨ ، ٧١١ .

Saunders : op. cit., pp. 160-181.

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 126-127, 134.

(٣٧) الرمزى : تلفيق الأخبار ، ج ١ ص ٦١ .

(٣٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٦٨٠ ، ٧٣٨ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٦ — ٤٦٧ ، فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢١١

Saunders : op. cit., p. 160 ; Howorth : op. cit., v. 2, pp. 126, 127, 134.

وقد أثمرت هذه السياسة فى اسلام بعض امراء المغول مثال ذلك الأمير بيسو نوغاي Besu Nogai الذى ارسل رسالة الى السلطان قلاون يخبره فيها باعترافه الاسلام وانه هو وقومه مع سلطان مصر كالانامل لليد يوافقون من يوافقه ويخالفون من يخالفه (٣٩) ، مما يدل على أن التحول الى الاسلام كان ظاهرة مستمرة ، وكانت الغيرة والحمية له تدفع بمسلمى المغول الى قتل من يتفوه بأى لفظ يسىء اليه ، وقد حدث مرة أن تفوه احد الروس بعبارة تسيء الى الاسلام ، فما كان من الأهالى الا أن سلخوه وملؤوا جلده بالتبن (٤٠) .

غير أن هناك اشارة الى أن منكوتمر قد سالم مغول إيران ، والى انه صادق امبراطور بيزنطة (٤١) ، والى نشاط شامانى مسيحي ضد الاسلام ، مما يدل على مدى التنافس الذى ظهر فى عهد هذا الخان بين هذه الاديان . وفيما يبدو فإن الظروف السياسية أجبرت هذا الخان على اتباع هذه السياسة وعلى السماح للمبشرين المسيحيين بممارسة نشاطهم فى بلاده . ذلك أنه هزم فى بداية حكمه هزيمة ساحقة امام ابغا بن هولاكو (٤٢) ، غاضطر لمسامحته نتيجة لهذه الهزيمة او نتيجة لضغط اتاه من قبل قوبيلاى الخان الاعظم (٤٣) .

أما مصادقة القسطنطينية فقد جاءت ايضا بعد قتال بينهما عام ٦٦٨هـ / ١٢٨٩م (٤٤) وبعد زواج قائد جيشه المسمى نوغاي من ابنة امبراطور القسطنطينية ميخائيل باليولوجوس (٤٥) . وكان لهذه الصداقة بالطبع اثرها

(٣٩) المقرزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٥٩٠ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٦٣ .

(٤٠) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٦٢

(41) Saunders : op. cit., p. 160.

(٤٢) الرمزي : نفس المرجع ، ص ٥٦

(43) Saunders : op. cit., p. 160.

(٤٤) المقرزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨

(45) Saunders : op. cit., p. 159 ; Howorth, op. cit., pp. 146, 1012.

لا سيما اذا عرفنا ان هذا القائد كان مشكوكا فى اسلامه ، اذ كان يتظاهر بالاسلام ويخفى فى نفس الوقت عقيدته الشامانية التى كان يدين بها (٤٦) . وربما كان هذا القائد الطموح يتبع هذه السياسة حتى يكسب ود الجميع مسلمين وشامانيين وحتى يخفى اطماعه التى مكنته من السيطرة على الانحاء الشمالية من البلاد فى جنوب روسيا واتخاذها مقرا له ولأسرته ولن لاذ به من المغول الذين تسموا فيما بعد باسمه واصبحوا يعرفون باسم شعب النوغاى Nogais ونشروا الاسلام فى تلك الانحاء ثم انتشروا بعد القضاء على خانية القبيلة الذهبية فى المناطق الجنوبية ووصلوا الى القرم والقوقاز وخوارزم وبخارى ، وعرفت بعض قبائل نوغاى هناك باسم الكراكالباكس أو المانجوت ، ونشروا الاسلام اينما ساروا (٤٧) . وبذلك اسهم نوغاى فى نشر الاسلام من حيث لا يدري .

والواقع أن الحركة الاسلامية كانت اقوى من الجميع ، فقد ثبت ان ابنة نوغاى نفسه اعتنقت الاسلام بعد فترة من زواجها ، ولما أساء اليها زوجها الوثنى لاصرارها على التمسك بدينها ، طلب ابوها عقابه وحارب الخان الذى لجأ اليه هذا الزوج كى يحتوى به من بطش نوغاى . كما ان نوغاى ام يكثرث بالمسيحية رغم زواجه من ابنة امبراطور بيزنطة كما سبق القول ، وقام بغزو بعض البلاد المسيحية فى اوربا الشرقية فى عهدى بركة ومنكوتمر ومن اتى بعدهما (٤٨) .

وازاء ذلك كثف المبشرون المسيحيون من نشاطهم فى تلك البلاد ، وخاصة فى بلاد القرم وحوض الفولجا ، واستغلوا السياسة المغولية التقليدية فى التسامح نحو الاديان وعدم اكراه الناس على التحول عن دينهم ، وزادوا من نشاطهم منذ عهد بركة خان الذى كان قد سمح للرهبان الفرنسيسكان وتجار جنوة وغيرهم بالظهور فى بلاد القفقاز منذ عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وسمح لهم ببناء بعض الكنائس الكاثوليكية فى كافا وتانا وفى سراى

(46) Howorth : op. cit., v. 2, pp. 135, 1013, 1015.

(47) Ibid : v. 2, pp. 1011, 1013, 1015, 1049, 1056, 1060.

(48) Saunders : op. cit., p. 159 ; Howorth : op. cit., v. 2, pp. 138, 1011, 1015, 1049.

العاصمة ، واستخدم الأساقفة كسفراء بينه وبين بيزنطة (٤٩) . وقد رأى ابن بطوطة بعض هذه المؤسسات الدينية المسيحية في شبه جزيرة القرم أثناء زيارته لها عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م (٥٠) .

ويبدو ان مغول دشت قفجاق كانوا مضطرين في هذه الفترة الى اتباع هذه السياسة حتى يتمكنوا من جذب التجار من أى مكان ومن أى ملة ودين ، نظرا لان التجارة كانت تمثل العمود الفقري لاقتصاد بلادهم التي كانت تكثر فيها الصحراوات ، ولأن معظم سكانها كانوا بدوا رحلا لم يمارسوا الزراعة بطريقة منتظمة ، ولذلك امتلأت بلادهم بالتجار من جنوة ومصر والعراق وبلاد الشام وغيرها (٥١) . وهذا هو سر نهضة القوى المسيحية ومقاومتها للإسلام في هذه المرحلة التي لم يتمتع فيها الاسلام باستقرار كامل ، منتهزين في ذلك فرصة وجود قائد مثل نوغاي وخان غير مسلم مثل منكوتمر . غير انه اذا كان الاسلام لم يتمتع في عهد هذا الخان بنفس الدفعة القوية التي حدثت في عهد سلفه وعمه بركة خان ، الا انه لم يرجع القهقري ، خاصة وان الخان الذي خاف منكوتمر لم يكن مسلما فقط ، بل كان صوفيا أيضا (٥٢) .

وهذا الخان الذي نعينه هو تدان منكو خان Todu Manqu Khan
ابن طغان بن باطو بن جوجى بن جنكيز خان (٦٧٩ — ٦٨٦هـ / ١٢٨٠ — ١٢٨٧م) وهو أخو الخان السابق (٥٣) . وفى عهد هذا الخان تضاعف النشاط

(49) Saunders : op. cit., pp. 158, 170.

(٥٠) ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢١٤

(٥١) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٥ ،

Saunders : op. cit., pp. 158, 170.

(٥٢) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٣ ،

Saunders : op. cit., p. 161.

(٥٣) اختلف المؤرخون في نسب تدان منكو وفى سنة توليه الحكم . وقد حقق الأستاذ الرمزي ذلك واثبت انه اخ لمنكوتمر كما قال بذلك المقرئى وليس ابنه كما قال بذلك ابن خلدون . كما اثبت ان سنة توليه هى عام ٦٧٩هـ وليس عام ٦٨١ كما قال بذلك المقرئى وابن خلدون والقلقشندي . انظر :
الرمزي : تلفيق الأخبار ، ج ١ ص ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ابن خلدون : تاريخه
ج ٥ ص ١١٣٥ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٣ ، المقرئى :
نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧١١ ، ٧١٦ .

التبشيري المسيحي واصيب بالاخفاق كما حدث له في ايران في نفس الفترة تقريبا ، وذلك بسبب العداء المقيت الذي كان ناشبا بين النساطرة والأرثوذكس والكاثوليك (٥٤) وبسبب اخلاص الخان الجديد لقضية الاسلام . فلم يكذب يتولى هذا الخان العرش حتى أرسل الى مصر في عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م وفدا من فقهاء التفجاق يتكون من مجد الدين آطا ونور الدين آطا ومعهما كتاب يتضمن ان الخان دخل في دين الاسلام وأنه جلس على التخت ، اى العرش ، وأنه يقيم شرائع الدين ونواميس المسلمين ، وأوصى بمساعدة اعضاء البعثة في اداء فريضة الحج ، وطلب من سلطان مصر المنصور قلاون تقليد الخليفة ولقباً ينعت به من القاب المسلمين . « وعلمنا خليفتهما وعلمنا سلطانيا يقاتل بهما اعداء الدين . . . من الكفار » (٥٥) .

وقد بدأ هذا الخان جهاده بأن أرسل قائده الشهير نوغاي على رأس حملات عسكرية لغزو بعض البلاد المسيحية في اوربا مثل هنغاريا عام ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م وبولندا وترنسلفانيا عام ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م . وبذلك امتدت الدولة في عهده عبر سهول القمح في اوكرانيا وحتى مصب الدانوب والقت يظلالها على سهول هنغاريا وممالك البلقان في الصرب والبلفار . وكان ملك هنغاريا يشجع هذا الغزو ويباركه وذهب في هذا السبيل الى حد جعله يعلن تخليه عن المسيحية بتشجيع من أمه التفجاقية الاصل ، فأعلن عليه البابا نيقولا الرابع حربا صليبية عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م ، وانتهى الأمر بقتل هذا الملك بعد ذلك بعامين ، وعادت هنغاريا الى المسيحية (٥٦) .

ورغم فشل الغزو المغولي لأوربا الشرقية في النهاية الا أنه دلل يوضوح على التباعد الذي حدث بين خانية التفجاق وبين اوربا النصرانية ، كما أنهى على آمال المسيحيين في الشرق من احتمال تحول مغول بلاد

(54) Saunders : op. cit., p. 170.

(٥٥) النويرى : نفس المصدر ، ص ٢٩ ، ورقة ٢٨ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ص ٨٦٠ ، العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٤٨٠ ، الرمزي : نفس المرجع ج ١ ص ٤٧٣ .

(56) Saunders : op. cit., p. 161-162.

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 138.

القنجاقي الى المسيحية (٥٧) ، بعد ان ظهر اخلاص هذا الخان للإسلام وانفعل به انفعالا قويا ادرجة انه ارسل حملة الى مغول ايران يؤدب بها من تسبب فى مقتل سلطاتها المسلم أحمد تكودار المعاصر له (٥٨) ، كما قرر اخيرا ان يتفرغ تماما لحياته الروحية ثم انقطع لحياة الزهد والتصوف والعبادة ومصاحبة المشايخ والفقراء والصالحين وآثر التنازل عن العرش طواعية لابن أخيه تولا بغا Tula bugha وهكذا كسب الاسلام الجولة فى عهد هذا الخان الصوفى (٥٩) .

أما الخان الجديد تولا بغا (٧٨٦ — ٦٩٠ هـ / ١٢٨٧ — ١٢٩١ م) فإنه لم يعمر فى الحكم طويلا ، اذ واجهته مشاكل الصدام مع مغول ايران ومع المنافسين له على العرش ، وانتهى الأمر بقيام حرب اهلية نتج عنها القضاء على هذا الخاء واعتلاء ابن عمه طقطاى Toktu بن منكوتمر العرش (٦٩٠ — ٧١٢ هـ / ١٢٩١ — ١٣١٢ م) (٦٠) . وكان هذا السلطان شامانيا مارقا عن دين الاسلام ، وظل طوال فترة حكمه الطويل يدين بالشامانية حتى مات عايبا ، ولم يظهر من نقش عملته انه اعتنق الاسلام (٦١) ، ولذلك قيل

(57) Saunders : op. cit., p. 162.

(58) Howorth : op. cit., v. 2, p. 139.

(٥٩) العبرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٤٨ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٣ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(٦٠) أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ — ١١٣٦ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٣ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٢٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ص ٤٧٥ ، ٤٧٨ .

Saunders : op. cit., p. 162 ; Howorth : op. cit., v. 2, p. 139.

(٦١) أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٢٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٠٠ .

Howorth : op. cit, v. 2, pp. 141, 147.

انه ناصر المسيحية (٦٢) . وربما اتى هذا القول ايضا بسبب صداقته لبيزنطة، تلك الصداقة التى كانت موجودة بين البلدين قبل مجيئه الى الحكم ، اذ كانت بيزنطة قد اختارت سياسة التواد والتحالف مع مغول القفجاق بمصاهرتهم انتقاء لخطرهم ولخطر الترك العثمانيين الذين كان نجمهم قد ظهر فى ذلك الحين . وقد سبق ان رأينا ميخائيل باليولوجوس يزوج ابنته ايرين لنوجاى قائد جيوش مغول القفجاق الشهير ، والآن نجد اندرو نيقوس امبراطور بيزنطة يرسل ابنته ماريا الى حريم طقطاى (٦٣) .

ولكن صداقة بيزنطة لطقطاى لم تؤثر على موقفه تجاه المسيحية وتجاه اوربا الشرقية المسيحية ، اذ نراه يرسل حماة لغزو بولندا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م كما نراه يرسل فرقة عسكرية دمرت مدينة كفا وطردت من فيها ومن فى شبه جزيرة القرم من التجار الجنوبيين ، كما تمت مصادرة اموال الجنوبيين بمدينة سراى عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وذلك لامور نقمها عليهم طقطاى ، منها استيلاؤهم على اولاد التتار وبيعهم فى أسواق الرقيق (٦٤) ، كما انه لم يثبت ان هذا الخان سمح للمبشرين المسيحيين ببناء الكنائس كما فعل بركة خان من قبل . وعلى ذلك فان طقطاى لم يميل الى المسيحية كما قيل ، وكان ميله الى المسلمين ظاهرا وواضحا رغم كونه شامانيا يعبد الاصنام والكواكب . ويبدو ان الظروف السياسية هى التى اجبرته على هذا الميل ، فقد كان المغول المسلمون يكونون معظم جيشه ، وكان فى حاجة ماسة لكسب ثقة هذا الجيش الذى كان أداته الرئيسية فى حل مشاكله الداخلية والخارجية ، فقد كان هناك الصدام مع قائده الطموح المستبد نوغاي ، ذلك الصدام الذى انتهى بمقتل هذا القائد عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ، وكان هناك الصدام الذى اشرنا اليه مع التجار الجنوبيين فى مدينة كفا القفجاقية ، ذلك الصدام الذى انتهى بتخريب تلك المدينة عام ٧٠٧هـ/١٣٠٨م وهناك الصراع مع السلاجقة الروم ، هذا الصراع الذى انتهى بافساح الطريق لظهور قوة الأتراك العثمانيين العظمى منذ ذلك الحين وهناك المشكلة الروسية التى كانت تتلخص فى محاولة

(62) Ibid : v. 2, p. 147.

(63) Ibid : v. 2, pp. 146-147.

(٦٤) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٩٨ .

الروس الاستقلال ببلادهم وابعاد التأثير الاسلامى الوائد عليهم من خانية القنجااق (٦٥) .

وقد دفعت هذه المشاكل طقطاى لأن يظهر ميله للمسلمين فى جيشه وفى بلاده ، كما حافظ على سياسة التحالف التقليدى مع مصر ، تلك السياسة التى أسسها بركة خان من قبل وسار عليها خوانين سراى جميعا . وقد اشار المؤرخون الاقدمون الى رسل ورسائل ترددت بين سراى والقاهرة عدة مرات فى عهد طقطاى وكان هدفها تعضيد هذا التحالف والحث على اتخاذ موقف موحد من مغول ايران الذين تحرش بهم هذا الخان ، رغم ان سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون أخبره بتصالحه مع مغول ايران الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام فى ذلك الحين وكفوا عن عدائهم لمصر والاسلام (٦٦) .

ونظرا لسياسة الميل الى المسلمين التى اتبعتها طقطاى فقد سارت الحركة الاسلامية قدما الى الامام حتى ان ابن هذا الخان نفسه اعتنق الاسلام وكان يحب سماع القرآن وان لم يفهم معانيه ، وانتوى ان ملك البلاد بعد ابيه الا يترك فيها ديننا غير الاسلام ، ولكنه مات فى حياة ابيه (٦٧) ، فنتولى العرش بعد وفاة طقطاى ابن اخيه اوزيك خان الذى وصلت الحركة الاسلامية فى مهده الى القمة واتت بذلك الى مرحلتها التامة والنهائية بعد ان تمكن الاسلام فى هذه المرحلة التى تحدثنا عنها وهى مرحلة التمهيد والتهيئة من أن يكسب ارضا واسعة ، اذ كان قد تحول اليه بعض الخوانين ومعظم افراد الجيش المغولى وكثير من الأمراء والقواد المغول ، وصمد لمنافسة

(٦٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٧ — ١١٣٨ ، المقرئى السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٣٧ ، ٨٧٤ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ج ٩ ص ٢٢٦ ، الرمضى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٨٣ — ٤٨٨ ،
Saunders : op. cit., pp. 163-164.

(٦٦) الرمضى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٩٤ — ٤٩٩ ، فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢١٢ — ٢١٣ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 146

(٦٧) العمري : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٣ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٦٢ ، الرمضى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٠٠ .

الأديان الأخرى ولنشاط البابوية حتى ان الخوانين الذين لم يعتنقوه لم يظهروا معاداته بل اظهروا تفضيل المسلمين على غيرهم ، واستعانوا بهم فى اجهزة الدولة وفى بعثاتهم الدبلوماسية ، وحافظوا على الاتصال بالقوى الاسلامية وخاصة فى مصر مما سنعرض له بالتفصيل فى حينه .

٢ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول بلاد القفجاق :

تبدأ هذه المرحلة بتولى اوزبك Ozbeg بن طغرلشاه بن منكوتمر عرش سراى (رمضان ٧١٢ — شوال ٧٤٢هـ/يناير ١٣١٣ — مارس ١٣٤٢م) وتنتهى بنهاية دولة القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق فى مطلع القرن السادس عشر للميلاد ، ثم تفرقتها وانقسامها الى خانيات صغيرة متنافسة تمارس حياتها شامخة قوية لفترة قصيرة ثم تضعف وتتهوى أمام ضربات الروس واحدة اثر اخرى ، فتختفى تلك الخانيات كدول مستقلة ، وان ظلت شعوبها تدين بالاسلام وتحرص عليه .

وكما رأينا فقد اثرت المرحلة السابقة فى غرس مبادئ الاسلام بين غالبية المغول وان لم تنجح فى تحويل جميع الخوانين الذين تولوا الحكم فى هذه المرحلة الى الاسلام ، ولكن انتشار الروح الاسلامية وانتشار الاسلام بين أغلبية المغول وامرائهم ساعد اوزبك خان على ان يقضى على كل ما يناوئ الاسلام فى بلاده ويجعل منه دين الدولة الرسمى بصفة نهائية ، ويتعاقب على الحكم خوانين مسلمون منذ ذلك الحين وحتى نهاية الدولة ، وانتهى نفوذ المسيحية الغربية والشرقية وقضى على آمال البوذية والشامانية بصورة تامة ، مما جعل عصر هذا الخان هو العصر الذهبى للاسلام فى خانية بلاد القفجاق ، (٦٨) واعتبره البعض ثالث حكام عظام اربعة ازدان بهم عرش القبيلة الذهبية فى هذه البلاد ، وهم باطو وبركة وأوزبك وطقتمش ،

(٦٨) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦٥ . العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٣ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٩ .
Saunders : op .cit. p. 164.

والثلاثة الآخرون كانوا مسلمين ومتحمسين لنشر الاسلام فى بلاد القفجاق ،
وكان أوزبك اكثرهم تحمسا ونشاطا فى هذا السبيل (٦٩) .

وهناك روايتان تتعلقان بالوقت الذى اسلم فيه أوزبك خان . وتقول
الرواية الأولى بأنه اسلم فى شبابه وقبل توليه عرش الخانية على يد اربعة
من الفقهاء الفرس هم سيد شيخ محمد ، والشيخ قولقات والشيخ احمد
والشيخ حسن قرقان (٧٠) . وتقول الرواية الثانية انه اسلم بعد توليه عرش
الخانية ، وكان قد بايع له نائب السلطنة قطلقتمر بعد أن عاهده أوزبك على
انه اذا جلس على العرش فسوف يعتنق الاسلام ويتمسك به ، فلما ساعده
قطلقتمر على ذلك دخل فى دين الله راغبا ، واتخذ مسجدا يصلى فيه الصلوات
الخمس فى أوقاتها (٧١) . واستند بارتولد على هذه الرواية وقال بأن أوزبك
اسلم بعد توليه العرش بحوالى تسع سنوات ، أى فى عام ٧٢٠هـ / ١٣٢١م
على يد الشيخ سيد آتا التركستانى المدفون فى طشقند (٧٢) . ولكننا
لا نستطيع ان نسلم بهذه الرواية خصوصا وأن الشيخ الذى اسلم على يديه
هذا الخان لم يكن معلما له كما قال صاحب هذه الرواية ، وانما كان معلما
لابنه (٧٣) ، كما ان أصحاب الرواية الأولى سابقون زمنيا على اصحاب
الرواية الثانية التى جاء بها ابن خلدون كما ان ابو المحاسن بن تغرى بردى
الذى اتى بعد ابن خلدون نفسه كان دقيقا فى تعبيره ، فقد اثار غلط الى
مساعدة قطلقتمر لأوزبك على تولى السلطة ، ولم يشر الى أن ذلك سوف
يكون ثمنا لاعتناق أوزبك للاسلام (٧٤) ولذلك فاننا نميل الى القول بأن

(٦٩) غامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٩٦ ،

Saunders : op .cit. p. 164.

(٧٠) العمري : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٣ ، ابن الوردي :

نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٦٢ ،

Howorth, op. cit., v. 2, p. 172.

(٧١) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٩ ، العيني : نفس

المصدر ج ٢٣ ق ١ ورقة ٢٤ ، ٢٥ .

(٧٢) تاريخ الترك فى آسا الوسطى ، ص ١٧٩ .

(٧٣) ابن بطوطة : نفس المصدر : ص ٢٢٥ .

(٧٤) النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٢٦ .

اسلام أوزبك خان قبل توليه العرش ، وربما كان هذا الاسلام على يد المشايخ الذين سبقت الاشارة اليهم او على يد نائب السلطنة او على يد الاثنين معا لأن الحركة الاسلامية كانت فى طريقها الى احراز النصر النهائى لها كما سبق القول . ولذلك فانه بمجرد ان اعتلى اوزبك العرش اظهر تحمسا شديدا لنشر الاسلام وحرص الحرس كله على تحويل من بقى على الوثنية من المغول فى بلاده الى الاسلام . وفى خلال عام واحد ارسل الى القاهرة يقول انه ليس هناك وثنى واحد فى بلاد القفجاق (٧٥) .

ولكن هذا الأمر لم يتم بسهولة اذ تحرش به بعض امراء المغول الذين كانوا لا زالوا على الوثنية وقالوا له « اقنع بطاعتنا ، وماذا يهملك من أمر ديانتنا ؟ ولماذا تهجر ديانة جنكيز خان وتعتنق ديانة العرب ؟ » ولما لم يسلم لهم اوزبك بما قالوا ، دبروا للتخلص منه وتآمروا على قتله ، ولكنه علم بهذا التآمر وقبض على المتآمرين وعلى أتباعهم واعدتهم . وبذلك اجتث البقية الباقية من الوثنية المغولية وخلا له الجو تماما وأصبح مطلق اليدين فى نشر الدين الاسلامى بين المغول وغيرهم من الشعوب التى كانت تحت سلطانه (٧٦) .

وقد اراد السلطان اوزبك خان من البداية ان يجعل من نفسه ومن أسرته مثالا يحتذى به كافة المغول فى حبهم للاسلام والاخلاص له والعمل على نشره وتطبيق تعاليمه . فقد تمسك هذا الخان بالشرعية الاسلامية وحافظ على الصلاة . وداوم على الصيام (٧٧) ، واتخذ لنفسه اسما ولقبا اسلاميا ، يظهر ذلك من العملة التى سكّت فى عهده فعلى بعضها نرى اسمه « غياث الدين اوزبك خان » ، وعلى اخرى « محمد اوزبك خان » وعلى

(٧٥) ارنولد : نفس المرجع ، ص ١٧١ ، الرمزى : نفس المرجع

ج ١ ص ٥١٢ ،

Saunders : op. cit., p. 164.

(٧٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٩ ، العيني : نفس

المصدر ، ج ٢٣ ق ١ ورقة ٢٥ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٠٤ ،

٥٠٥ ،

Howorth : op. cit., v. 2, 148.

(٧٧) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٤

جديد ، كانوا يحكمون عليهم بالانتصر قائلين لهم ان هدمهم لمساجدهم علامة على ضعف ايمانهم واعراضهم عن دين الاسلام ويأمرونهم باعتناق المسيحية . وعندما كان المسلمون يمتنعون عن هدم مساجدهم حتى لا يتخذ ذلك ذريعة لاتهامهم بالتخلي عن دينهم كان رجال الحكومة الروسية يهدمونها بأنفسهم ويعتبرون سكوت المسلمين على ذلك أيضا علامة على اعراضهم عن دينهم ورضى منهم بالنصرانية ، التى يجب ان يعتنقوها والا كان نصيبهم القتل أو التعذيب الشديد والاضطهاد البالغ (١٠٩) .

وفى القرن الثامن عشر بذات الحكومة الروسية جهودا جديدة لتنصير المغول الوثنيين منهم والمسلمين وأمرت الامبراطورة كاترين الثانية فى عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م بأن يوقع الذين يرغبون على التنصر على اقرار كتابى يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية وتجنب كل اتصال بالكفار (أى المسلمين) والتمسك بالدين المسيحى وعقائده والاثبات عليها ، ولكن هؤلاء المنتصرين الجدد كانوا لا يلبثون أن يتركوا عقيدتهم الجديدة ويعتنقوا الاسلام فى حرية وطواعية ودون اجبار أو اكراه أو اغراء (١١٠) .

وفى النصف الأخير من القرن الماضى بذلت روسيا النصرانية جهودا أخرى لتنصير هذه القبائل الوثنية والاسلامية عن طريق انشاء مدارس بينهم وخاصة فى القرى حيث يسهل ترويض القرويين وادخالهم فى صفوف المسيحيين ، ووضع القانون الجنائى الروسى عقوبات صارمة لمن يرتد عن المسيحية الى الاسلام ولن يساعد على ذلك وذاك بتجريدته من كافة الحقوق المدنية وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات (١١١) .

وهكذا ومنذ سقطت دولة مغول القبيلة الذهبية الاسلامية وسقطت بعدها خانية قازان الاسلامية نشبت معركة صليبية من الدرجة الاولى بين مغول تلك البلاد وسكانها بصفة عامة وبين روسيا النصرانية ، وقد صمد المسلمون فى هذه المعركة بقدر ما وسعهم الصمود رغم عدم النصير والمعين

(١٠٩) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٨٨ — ١٩٢ ،

(١١٠) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(١١١) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ورغم ان النصرانية كانت مدعمة بقوة الدولة الروسية التى كانت تفرض سلطانها على تلك الخافية ، وقاوم المسلمون التنصير الذى فرضه الروس عليهم فرضا ولكن بعضهم تنصر وفر آخرون الى الجهات الشرقية والجنوبية حيث يسود الاسلام (١١٢) .

وقد ساعد المسلمين على المقاومة والصمود ان القساوسة الروس لم يفهموا لغة الناس الذين كانوا يريدون تنصيرهم ، كما ان رقى الحياة الاخلاقية فى المجتمع الاسلامى وشعور التأخى الذى كان شائعا فى هذا المجتمع والذى جعله اكثر تماسكا وقوة ، أعطى المسلمين زادا جديدا للصمود ، وللدعوة للاسلام فرصة للتقدم فى نفس الوقت ، حتى ان كل مسلم اوى صار داعية الى دينه ، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين او اشباه الوثنيين عن ان تقاوم هؤلاء الدعاة الذين كانوا يشاركونهم لغة الحديث ويشتركون معهم فى العادات والتقاليد وأساليب الحياة . وفى كثير من القرى التى تم تنصير اهلها كرها او طواعية كان رجالها يذهبون لاحتراف حرفة الحياكة او غيرها فى القرى الاسلامية ، وهناك يتحولون الى الاسلام ثم يعودون الى قراهم دعاة يبشرون بدينهم الجديد (١١٣) .

وهكذا نجحت الحركة الاسلامية فى ان تجذب كثيرا من المغول وغيرهم من الذين تنصروا ، فأسلمت ثرى روسية بأكمائها فى الشمال الشرقى من قازان ، واسلم معظم اهالى قبيلة الفوتياك VotiaKs المسيحية فى القرن الثامن عشر ، وفى القرن التاسع عشر أسلم الكثير من اهالى قبيلة الشوغاش chuvash الذين كان عددهم يبلغ المليون ، وكثير من اهالى قبيلة الشريميس cheremiss نتيجة اتصالهم بالباشقرد والمغول المسلمين ومصاهرتهم لهم ، وأصبح الشريميس بعد اسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد (١١٤). وفى بداية القرن الحالى تحولات احدى وتسعون أسرة الى الاسلام فى قرية اتومفا Atomva وحدها عام ١٩٠٩م ، كما أسلم حوالى ثلاثة وخمسون ألف نسمة بين سنتى ١٩٠٦ ،

(١١٢) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(١١٣) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(١١٤) المرجع السابق ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ .

— ١٣٥٧م) . فقد اصر هذا الخان الجديد على ان يلبس جميع التتار فى مملكته عمائم وفرجيات كما يلبسها اهل الاسلام فى مصر والشام ، ولم يكن للتتار قبل ذلك عادة بلبس هذا الزي ، كما انه اظهر حبه للعلماء وحضر مجالسهم وصارت بلاده مأوى للعلماء والفقهاء من كل حدب وصوب حتى امتلأت سراى بهم ، كما حافظ على سياسة آبائه واجداده فى ضرورة اخضاع الروس لدولة الاسلام ، فجاء كنياز روسيا (اى اميرها او ملكها) ومطرانها الى سراى « لتجديد المعهود والمواثيق واطهار العبودية على ما جرت به العادة عند تجدد الخوانين وتبديل الكينازات » كما حافظ على سياسة سراى فى مراسلة سلطان مصر تعميقا لروح الاخوة الاسلامية بين البلدين (٩٠) .

وكان هذا الخان من اعظم الخوانين واعدلهم واعلمهم واكثرهم ورعا ، ولكن خلفه لم يكن على نفس المستوى من العدالة والورع ، فقد كان ابنه محمد بردى بك خان (٧٥٨ — ٧٦٢هـ / ١٣٥٧ — ١٢٦١م) ظلوما غشوما قتل الكثيرين من اقاربه واخوته ، فاضطربت البلاد وكثرت الفتن ، وانتهز قواد الجيوش وامراء الاجناد وولاة النواحي فرصة موت هذا الخان الظلوم واستبدوا بالحكم ، كل فى بلدة من تلك البلاد ، استقل كل منهم باقليم من الاقاليم ، واشتغل كل منهم بمحاربة الآخر او مدافعته . وظلت هذه الفوضى ضاربة اطنابها فى البلاد مدة عشرين عاما تمكن فيها الروس من هزيمة جيوش (مهاي) أحد امراء المغول المتغلبين على عرش سراى — مرتين اخداهما فى عام ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م ، والثانية فى عام ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م وذلك لأول مرة منذ ان اخضعهم التتار فى عهد باطو بن جوجى بن جنكيز خان عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، واستيقظت فيهم الحمية الدينية واحتشدوا جميعا لقتال التتار وقالوا « نموت ونقتل ولا نعطى وطننا وديننا » حتى تمكنوا من صد جيوش مهاي وهزيمته كما راينا ولم ينقذ البلاد من هذا الضعف ومن هذا التمزق والانقسام الا آخر الخوانين العظام وهو طقتمش (توقتاميش) بن بردى بك بن جاني بك (٨٧٢ — ٧٩٨هـ / ١٣٨٠ — ١٣٩٥م) (٩١) .

(٩٠) المرجع السابق ، ج ١ ص ٥٤٧ — ٥٥٠ ، ٥٥٤ .

(٩١) المرجع السابق ، ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٣ .

وكان هذا الخان قد لجأ أثناء الصراع على العرش في سراي الى امير مغولى يسمى تيمورلنك كان قد استولى على بلاد ما وراء النهر من يد حكامها من بنى جغتاي بن جنكيز خان ، واسس فيها ملكا لنفسه منذ عام ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م ، وأراد تيمورلنك ان يدفع بهذا اللاجئ الى سراي حتى يقضى به على القائد مامى الذى قويت شوكته ، فساعدته حتى استولى على سراي ، واستطاع طقتمش ان يعيد الأمن الى البلاد وان يسترد للدولة قوتها ، ثم سار الى روسيا ودخل موسكو عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م وخربها وقتل آلافا عديدة من سكانها وأحرقها ونهب كنائسها انتقاما لما فعله الروس أثناء تغلبهم على جيوش مامى ، فأسرع سائر كينازات الروس وحكامهم بتقديم الطاعة والولاء (٩٢) .

ولسوء حظ هذه البلاد فقد ساءت العلاقة بين تيمورلنك وبين طقتمش ووقعت الحرب بينهما وتعددت وقائعها منذ عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م حتى انتهى الأمر بهزيمة طقتمش وقتله وهروب أولاده الى بلاد الروس عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م ، وقام تيمورلنك بقتل آلاف السكان وخرب سراي العاصمة وكثيرا من المدن الأخرى مثل سرايحق وحاجى طرخان وازاق والقرم وغيرها (٩٣) ، فغوى شأن الروس منذ ذلك الحين واصبحت آمالهم في الاستقلال قريبة المنال وقالوا لأنفسهم « نغرم وندق التتار أعداء النصرانية » (٩٤) .

ورغم الضربة الشديدة التى انزلها تيمورلنك ببلاد القفجاق ، الا أنها سرعان ما استعادت شيئا من قوتها وعادت سلالة جوجى بن جنكيز خان للحكم مرة ثانية منذ عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م بعد أن مات تيمورلنك وضعفت

(٩٢) ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٧ ،
الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٨٠ .

(٩٣) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٤ — ٦٢ ، شرف خان البديسى
نفس المصدر ، ص ٥٥ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٥٨ ،
٢٥٩ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٩ — ٦٢٤

Saunders : op .cit., pp. 167-168.

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 235, 257-258.

(٩٤) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٦٣١ .

دولته بمجرد موته عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م (٩٥) . ولكن الضربة التي كان تيمورلنك قد كالحا لسلطنة المغول في بلاد القنجاك أثرت كثيرا على الأوضاع هناك ولم تفق تلك البلاد من هذه الضربة أبدا ، فقد عادت الفتنة من جديد ، وقام النزاع بين السلاطين والأمراء المغول للفوز بكرسى السلطنة ، وبدأت خائية القبيلة الذهبية تسير في طريق النهاية وانقسمت الى خانيات صغيرة منذ عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م فحقق أمراء المغول في القرم استقلالهم وأسسوا لأنفسهم خانية هناك (٨٢٣ — ١١٩٧هـ/١٤٢٠ — ١٧٨٣م) ، وفعل نفس الشيء أمراء قازان (٨٤١ — ٩٥٩هـ/١٤٣٧ — ١٥٥٢) ، واستراخان (٨٧٠ — ٩٦١هـ/١٤٦٥ — ١٥٥٤م) ، وسيبيريا (٨٣٠ — ٩٨٩هـ/١٤٢٧ — ١٥٨١م) ، وخوارزم (٩٢١ — ١٢٩٠هـ/١٥١٥ — ١٨٧٣م) (٩٦) فصاروا مثل ملوك الطوائف في بلاد الأندلس وماوك الزيلع والصومال في منطقة القرن الأفريقي ، مما شجع الروس على التصدي لهم وتحالفوا مع بعضهم وشجعوهم على قتال بعضهم البعض ، فأصبحوا يتحاربون فيما بينهم ، وازداد الانقسام بعد مقتل آخر خان حاول أن يوحد البلاد تحت لوائه وأن يضع حدا لازدياد نفوذ الروس ، وهو الخان أحمد خان بن كجى محمد خان (٨٥٠ — ٨٨٥هـ/١٤٤٦ — ١٤٨٠م) . ولم يكن مقتل هذا الخان الا على أيدي بنو عمومنه من بنى شيبان ونوغاي أمراء الشمال . ونستطيع القول انه منذ ذلك التاريخ حققت روسيا استقلالها بعد مائتي وخمسين عاما من سيطرة دولة القنجاك عليها ، تلك الدولة التي أصبحت دويلات متنازعة ، تحارب كل منها الأخرى ويتحالف بعضها مع موسكو ضد البعض الآخر ، حتى انتهى الأمر أخيرا بتمكن مكلى كراى سلطان مغول القرم المتحالف مع موسكو من احتلال سراى عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م وقضى نهائيا على حكم القبيلة الذهبية منذ

(٩٥) المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٣٩ ،

Saunders : op cit., p. 173.

(٩٦) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٦٧٢ ، ٧١١—٧١٣ ،

Saunders : op. cit., pp.167-168.

Zambour : Manuel Genealogio et de chronologie pour l'Histoire de L'Islam, v. 1, p. 249.

ذلك التاريخ وأرسل آخر خوافينها الى مدينة كييف الروسية حيث مات فى سجنه بها ، وبموته انقرض سلاطين القبيلة الذهبية فى سراى الى الأبد وأصبح انقسام الدولة الى خانيات صغيرة امرا واقعا وحقيقة مؤكدة (٩٧) .

وقد تحملت هذه الخانيات الصغيرة عبء المحافظة على الاسلام والدعوة اليه ما امكن ، كما تحملت عبء الدفاع والجهاد ضد الروس الذين علا صوتهم واشتد نفوذهم وأرادوا أن يحققوا حلم آبائهم وأجدادهم فى السيطرة على خانيات المغول فى بلاد القفجاق أولا ، وعلى القضاء على الاسلام ثانيا ، لا سيما بعد أن تزوج الأمير ايفان حاكم موسكو من الأميرة صوفيا ابنة آخر إباطرة القسطنطينية ، واعتبر نفسه وريثا لإباطرة الروم واليونان بعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، واعتبر أن موسكو خلفت عاصمة الروم وانها أصبحت العاصمة الأرثوذكسية الوحيدة فى العالم بأسره ، وانها بذلك قد صار لها حق حماية الأرثوذكس فى الشرق كله ، وأصبح لها حق الانتقام من المسلمين بسبب ما فعلوه عام ١٤٥٣م . واشتد حماسه وحماس خلفائه فى القضاء على المسلمين وخاصة مسلمى خانيات القفجاق التى تجاورهم والتى كانت ذات يوم لها السيطرة الكاملة عليهم (٩٨) . فهى حرب صليبية تعرض لها المسلمون فى تلك البلاد كما تعرضوا لها من قبل فى بلاد الأندلس وفى بلاد الزيلع والصومال وفى بلاد الشام . ومن الغريب أن هذه الحروب الصليبية التى تعرض لها الاسلام فى تلك البلاد جميعا كانت على هيئة حلقات ، كل حلقة تسلم الى الحلقة الأخرى . فبدأت هذه الحروب أولا فى بلاد الأندلس منذ سقوط طليطلة فى يد ملك ليون وقشتالة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م (٩٩) ، ثم انتقلت الى بلاد

(٩٧) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٧١١ — ٧١٢ ، ٧١٤ — ٧١٥ ،

Howorth : op. cit., v. 2 ; pp. 346-347.

(٩٨) باسيايوس ضرباوى : نفس المرجع ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٩٩) رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، ص ٣٨٠ .

الثام بوصول اول حملة صليبية اليها عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م (١٠٠) ، ثم الى بلاد الزيلع والصومال بأول حملة الملك الحبشة (يكونو املاك) على تلك البلاد عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م (١٠١) ثم الى بلاد القفجاق جنوب روسيا بحملات الروس على تلك البلاد منذ بداية القرن السادس عشر للميلاد . اذن فهو حريق هائل اشعلته النصرانية فى العصور الوسطى لتحرق به عالم الاسلام ، وبداية بداية غير متزامنة ، ثم تواصلت حلقاته والتقت حتى احاطت بدنيا الاسلام من الشمال فى بلاد القفجاق ، ومن الجنوب فى بلاد الزيلع والصومال ، ومن الغرب فى بلاد الاندلس ، وفى الوسط حيث بلاد الشام ، ومن الشرق حيث المغول الوثنيون الذين جرت محاولات للتحالف معهم ضد الاسلام . وقد نجح المسلمون فى اخماد هذا الحريق فى بعض الانحاء مثل بلاد الشام حيث اقتلعوا الصليبية من آخر معاقلها فى عكا ١٧ جمادى الاولى عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م (١٠٢) ، كما نجحوا ايضا فى الشرق حيث تمكن الاسلام من القضاء على التحالف الصليبي المغولى بتحويل المغول انفسهم الى الاسلام فأصبحوا درعاً له وحماة ضد صليبية الروس . ولكن المسلمين فشلوا فى انحاء اخرى والتهمم هذا الحريق فى بلاد الاندلس حيث قضى على الدين والدولة بسقوط آخر معاقل المسلمين فى غرناطة عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م واصابهم هذا الحريق ببعض الحروق فى بلاد الزيلع والصومال ، وظل المسلمون فى تلك البلاد يجاهدون

(١٠٠) السيد الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ج ١ ص ٢٣١ — ٢٦٠ .

(١٠١) رجب عبد الحليم : العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(١٠٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢٠ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، المقرئى : نفس المصدر : ج ١ ق ٣ ص ٧٦٣ — ٧٦٩ ميور : تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٦٢ .

(١٠٣) الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٨ ،

Scott : A history of the moorish Empire in Europe, pp. 681-685 ;
Lea (Hinry. c) : The Moriscos of Spain, pp. 19-24,
A history of the inquisition of Spain, p. 135.

لانتفاذ الاسلام وللحفاظ على كيانهم ضد صليبية الاحباش ، وشغل اخوانهم من المغول في بلاد القفجاق نفس الشيء ونشأ عندهم عصر يمكن ان نطلق عليه عصر الجهاد ضد صليبية الروس .

٤ — عصر الجهاد ضد صليبية الروس :

في هذا العصر نرى امامنا خانيات مغولية متعددة ، من اهمها خانية مغول القرم وخانية مغول قازان وخانية مغول سيبيريا ، وهي خانيات تلاصق البلاد الروسية وتحيط بها من الجنوب والشرق . وقد عاشت هذه الخانيات مستقلة مدة من الزمن قد تطول وقد تقصر حتى طواها الروس تحت جناحهم وأخضعوها في النهاية لسلطانهم وابقوا على الأسر الحاكمة التي قبلت ببذل الطاعة ودفع الجزية .

والغريب انه رغم هذه الظروف السياسية السيئة التي قضت على وحدة دولة مغول القفجاق ، فقد استمر الاسلام في الانتشار بين المغول وغيرهم من القبائل والشعوب والأفراد الذين كانوا لا يزالون على الوثنية ، بل اعتنقه بعض المسيحيين أنفسهم . فقد كان مغول القرم رغم خضوعهم لاروس يبذلون جهدهم في القرن السابع عشر للميلاد لحث مواليهم على الدخول في الاسلام وجذبوا كثيرين منهم بالفعل لاعتناقه بما كانوا يعدونهم به من منحهم الحرية اذا ما استجابوا لدعواهم واسلموا . ولسكن الروس قاموا بنشاط محموم لتحويل هلاء الموالي والعبيد الى المسيحية بالترغيب والترهيب كما انهم استولوا على هذه الخانية نهائيا عام ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م مما اضعف من الحركة الاسلامية في هذا الاقليم لمدة طويلة ولم تنشط الا بعد ان اصدرت الحكومة الروسية مرسوم حرية التدين عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م (١٠٤) .

اما في خانية قازان فقد نشط فيها الاسلام نشاطا ملحوظا ، فقد كانت تلك المدينة مغولية النشأة ، اسلامية الطابع . وقد بناها المغول في عهد

(١٠٤) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٦ ، باسيليويس خرباوى : نفس المرجع ، ص ١١٦ ،

Zambaur : Op. cit., vol. p. 249.

جباطو بن جوجى بن جنكيز خان بالقرب من بلاد الروس ليتمكنوا من مراقبتهم ورصد حركاتهم . ولما ضعفت دولة القبيلة الذهبية فى سراى وتمكن الروس من تدمير مدينة بلغار عام ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م حلت محلها مدينة قازان فى التصدى لهؤلاء الروس وفى رفع لواء الاسلام فى تلك الأصقاع الشمالية النائية ، واستطاع سلاطنتها الوغ محمد خان أن يجمع حوله اعدادا هائلة من البلغار والمغول وغيرهم من مغول حامى طرخان وسراى والقرم وأزاق الذين كانت قد فشلت بينهم الفتن وانعدم الأمن منذ أن خرب تيمورلنك بلادهم عام ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م ، وتمكن الوغ محمد أن يستقل بخانية قازان عن سراى منذ عام ٨٤١هـ / ١٤٣٧م وازدادت قوته وهاجم موسكو عدة مرات وأسر كينازها (حاكمها) (واسيلى) عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م وخرب كثيرا من مدن الروس وصارت كينازية موسكو الروسية المسيحية تابعة لخانية قازان المغولية الاسلامية ، واستمر مغول قازان يسيطرون على دولة الروس ويخضعونها لطاعتهم أكثر من مائة عام (١٠٥) .

ولكن الصراع ما لبث أن نشب بين الفريقين (١٠٦) بعد أن ضعفت خانية قازان بسبب الفتن والحروب التى نشبت بينها وبين الخانيات المغولية الأخرى التى انقسمت اليها دولة القبيلة الذهبية ، وبسبب الفتن التى نشبت أيضا بين خوانين قازان انفسهم ، مما ادى فى النهاية الى تغلب الروس على قازان واستيلائهم عليها نهائيا عام ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م (١٠٧) .

وقبل أن تسقط هذه الخانية التى كانت قد نشأت على حدود كينازية موسكو من ناحية الشرق وامتد نفوذها الى جبال الأرال والى الشمال

(١٠٥) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٥١ — ٥٧ ، باسيلوس خرباوى : نفس المرجع ص ١١٦ .

(١٠٦) للوقوف على تفاصيل الصراع بين خانية قازان وبين موسكو ، انظر : الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٥٥ — ١٤٩ ، باسيلوس خرباوى : نفس المرجع ٢٤ ، ١٢٥ .

(١٠٧) الرمزي : نفس المرجع ج ٢ ص ١٣٦ — ١٤٩ ، عبد العزيز جنكيز خان : نفس المرجع ، ص ٨٤

Zambaur : op. cit., v. 1, p. 249.

الشرقى من موسكو فى بعض الأحيان ، قامت بدورها فى نشر الاسلام فى هذه المناطق بين من كانوا على الوثنية، ذلك ان هذه الخانية كانت قد ضمت الى جوار سكانها من البلغار والمغول المسلمين ، جماعات اخرى وثنية مثل جماعة جواش الذين كانت مساكنهم تقع فى الجنوب الغربى من ولاية قازان متاخمين للروس ، وجماعة جرمش الذين كانت مساكنهم تقع فى الشمال الغربى من ولاية قازان وفى ولاية نيزنى نوغورد وولاية واتكا ، وجماعة آر الذين كانت مساكنهم تقع فى شمالى قازان وفى ولاية واتكا وبيرم . وقد بدأت هذه الجماعات تدخل فى الاسلام بالتدريج خصوصا قوم جواش ، وكانت هناك قرى يعتقد جميع اهلها الاسلام ، واخرى يعتقد نصف اهلها او اقل ، اما الذين ظلوا على وثنياتهم فقد أخذوا بعض العادات والآداب الاسلامية التى عاشت بينهم حتى بعد تنصرهم فى العصور المتأخرة (١٠٨) .

وكان تيار الاسلام يسير فى طريقه المرسوم ويكتسح مظاهر الوثنية بين تلك الاقوام بالتدريج حتى فوجئ الناس بفاجعة سقوط الدولة الاسلامية فى قازان باستيلاء الروس عليها كما قلنا عام ٩٥٩هـ/١٥٥٢ م وتشكلت هناك جمعية تبشيرية تسمى جمعية المسيونير ، نشط اعضاؤها فى جذب اقوام جواش وغيرهم الى المسيحية ، واخذوا يرغبونهم فى ذلك باعفاء اغنيائهم من الضرائب واعطاء فقرائهم الكثير من الأموال ، وقامت الفتنة بين المسلمين وبين النصارى الجدد والوثنيين الذين كان يشجعهم الروس على ذلك ، فاضطر المسلمون الى الهجرة الى أماكن تكون شيها الغلبة او الاكثرية للمسلمين . وكانت حكومة الروسية منذ القرن السابع عشر تدفع المسلمين فى هذا الاتجاه دفعا وتنتهز فرصة تنصر ثلاث او اربع أسر من اى قرية مسلمة ، فتأمر باقى أهل القرية كلهم اما بالتنصر او الهجرة الى مكان آخر . ولذلك خلت كثير من القرى من سكانها المسلمين وانقلبت قرى كثيرة الى النصرانية تحت ضغط الحكومة الروسية وجمعية المسيونير ، التى كانت تأمر الأهالى وخاصة فى الجهات الشمالية لقازان بهدم مآذن المساجد او المساجد نفسها بحجة انها أصبحت قديمة وآيلة للسقوط ويخشى على الناس منها ، وعندما كان المسلمون يستجيبون لذلك ويهدمون مساجدهم على أمل بنائها من

(١٠٨) الرمزي : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، باسيلوس خرباوى : نفس المرجع ص ١٢٦ .

جديد ، كانوا يحكمون عليهم بانتصر قائلين لهم ان هدمهم لمساجدهم علامة على ضعف ايمانهم واعراضهم عن دين الاسلام ويأمرونهم باعتناق المسيحية . وعندما كان المسلمون يمتنعون عن هدم مساجدهم حتى لا يتخذ ذلك ذريعة لاتهامهم بالتخلي عن دينهم كان رجال الحكومة الروسية يهدمونها بأنفسهم ويعتبرون سكوت المسلمين على ذلك أيضا علامة على اعراضهم عن دينهم ورضى منهم بالنصرانية ، التى يجب ان يعتنقوها والا كان نصيبهم القتل أو التعذيب الشديد والاضطهاد البالغ (١٠٩) .

وفى القرن الثامن عشر بذات الحكومة الروسية جهودا جديدة لتنصير المغول الوثنيين منهم والمسلمين وأمرت الامبراطورة كاترين الثانية فى عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م بأن يوقع الذين يرغبون على التنصر على اقرار كتابى يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية وتجنب كل اتصال بالكفار (أى المسلمين) والتمسك بالدين المسيحى وعقائده والثبات عليها ، ولكن هؤلاء المقتصرين الجدد كانوا لا يلبثون أن يتركوا عقيدتهم الجديدة ويعتنقوا الاسلام فى حرية وطواعية ودون اجبار أو اكراه أو اغراء (١١٠) .

وفى النصف الأخير من القرن الماضى بذلت روسيا النصرانية جهودا أخرى لتنصير هذه القبائل الوثنية والاسلامية عن طريق انشاء مدارس بينهم وخاصة فى القرى حيث يسهل ترويض القرويين وأدخالهم فى صفوف المسيحيين ، ووضع القانون الجنائى الروسى عقوبات صارمة لمن يرتد عن المسيحية الى الاسلام ولمن يساعد على ذلك وذلك بتجريدته من كافة الحقوق المدنية وبحبسـه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني وعشر سنوات (١١١) .

وهكذا ومنذ سقطت دولة مغول القبيلة الذهبية الاسلامية وسقطت بعدها خانية قازان الاسلامية نشبت معركة صليبية من الدرجة الأولى بين مغول تلك البلاد وسكانها بصفة عامة وبين روسيا النصرانية ، وقد صمد المسلمون فى هذه المعركة بقدر ما وسعهم الصمود رغم عدم النصير والمعين

(١٠٩) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٨٨ — ١٩٢ ،

(١١٠) أنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(١١١) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ورغم ان النصرانية كانت مدعمة بقوة الدولة الروسية التى كانت تفرض سلطانها على تلك الخانية ، وقاوم المسلمون التنصير الذى فرضه الروس عليهم فرضا ولكن بعضهم تنصر وفر آخرون الى الجهات الشرقية والجنوبية حيث يسود الاسلام (١١٢) .

وقد ساعد المسلمين على المقاومة والصمود ان القساوسة الروس لم يفهموا لغة الناس الذين كانوا يريدون تنصيرهم ، كما ان رقى الحياة الاخلاقية فى المجتمع الاسلامى وشعور التآخى الذى كان شائعا فى هذا المجتمع والذى جعله اكثر تماسكا وقوة ، أعطى المسلمين زادا جديدا للصمود ، وللدعوة للاسلام فرصة للتقدم فى نفس الوقت ، حتى ان كل مسلم امى صار داعية الى دينه ، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الامية من الوثنيين او اشباه الوثنيين عن ان تقاوم هؤلاء الدعاة الذين كانوا يشاركونهم لغة الحديث ويشتركون معهم فى العادات والتقاليد واساليب الحياة . وفى كثير من القرى التى تم تنصير اهلها كرها او طواعية كان رجالها يذهبون لاحتراف حرفة الحياكة او غيرها فى القرى الاسلامية ، وهناك يتحولون الى الاسلام ثم يعودون الى قراهم دعاة يبشرون بدينهم الجديد (١١٣) .

وهكذا نجحت الحركة الاسلامية فى ان تجذب كثيرا من المغول وغيرهم من الذين تنصروا ، فأسلمت قرى روسية بأكملها فى الشمال الشرقى من قازان ، واسلم معظم اهالى قبيلة الفوتياك VotiaKs المسيحية فى القرن الثامن عشر ، وفى القرن التاسع عشر أسلم الكثير من اهالى قبيلة الشوفاش chuvash الذين كان عددهم يبلغ المليون ، وكثير من اهالى قبيلة الشريميس cheremiss نتيجة اتصالهم بالبائشقر والمغول المسلمين ومصاهرتهم لهم ، وأصبح الشريميس بعد اسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد (١١٤) . وفى بداية القرن الحالى تحوالت احدى وتسعون أسرة الى الاسلام فى قرية اتومفا Atomva وحدها عام ١٩٠٩م ، كما أسلم حوالى ثلاثة وخمسون ألف نسمة بين سنتى ١٩٠٦ ،

(١١٢) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(١١٣) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(١١٤) المرجع السابق ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ .

١٩١٠م (١١٥) ، مما يقطع بالنجاح المطرد للحركة الاسلامية حتى فى هذه البلاد التى كانت تحت سيطرة الفصرائية .

وكان الامر فى خانية سييريا مشابها لما كان عليه الامر فى خانية قازان ثمقد نشأت فى هذه البلاد على يد اولاد شيبان خامس اولاد جوجى بن جنكيز خان خانية مغولية اتخذت من قلعة سير التى تسمى أيضا باسم ايسكر عاصمة لها وامتدت لتشمل الاراضى الواقعة بين نهري ايرتش وأوب ، وكان مغولها فى طاعة خوانين القبيلة الذهبية فى سراى ولم يحققوا استقلالهم الا بعد أن ضعف هؤلاء الخوانين وسقطت دولتهم فى بداية القرن السادس عشر (١١٦) .

وقد تعرضت هذه الخانية لتأثيرات عديدة وغدت عليها من الجنوب من دولة المغول فى بلاد ما وراء النهر وتركستان حيث كان يحكم ابناء جغتاي بن جنكيز خان ، ومن دولة مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق والتى كانت تتبعها هذه الخانية ، اعنى خانية سييريا .

وكان التجار والعلماء من بخارى وقازان دائمي التردد على سييريا اما بقصد التجارة واما بقصد نشر الاسلام وعلومه او الاثنيين معا ، ولذلك فما قائه هورث Howorth (١١٧) من أن خوانين سييريا كانوا وثنيين عندما غزاهم كوتشم خان عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م بعيد عن الصواب والدقة ، فقد بثت أن كثيرا من هؤلاء الخوانين كانوا يدينون بالاسلام قبل هذا التاريخ ، ذلك ان اسماءهم كانت تدل على اسلامهم ، فهى اسماء اسلامية (١١٨) ، كما أن ما يدعيه هذا الكاتب من ان عدم اسلام خوانين سييريا يعود الى ان مؤسسى هذه الخانية كانوا من بيت توغاي الوثئى وأنهم كانوا كذلك عندما أسسوا هذه الخانية (١١٩) غير صحيح ايضا ، لأن شعب النوغاي كان

(١١٥) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(١١٦) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٩٥ — ١٩٧ .
(117) Howorth : op. cit., v. 2, p. 1062.

(١١٨) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ .
(119) Howorth : op. cit., v. 2, pp. 1061-1062.

يعيش جنوب روسيا أولا ثم هاجروا فى القرن السادس عشر للميلاد وما يليه الى القرم والى الجزء الشرقى من بلاد القوقاز وكانوا كلهم مسلمين وبدوا رحلا كما يقول نفس الكاتب فى مكان آخر من كتابه (١٢٠) .

وحتى لو كان بيت نوغاي وثنيا فان مؤسسى خانية سيبيريا كانوا من بيت شيبان بن جوجى وليسوا من بيت باطو بن جوجى الذى يتفرع عنه بيت نوغاي ، فالاسلام فيها قديم والدليل على ذلك ايضا وجود بعض القبور لبعض الدعاة الذين استشهدوا أو ماتوا أثناء الدعوة الى الاسلام فى سيبيريا قبل أن يحكمها كوتشم خان . فقد قدم الى تلك البلاد شيخ عجوز من بخارى فى عهد كوتشم خان للبحث عن قبورهم وأعطى اسماءهم ، وكان لأصحاب هذه القبور عيد سنوى يحتفل به الناس هناك ، ولا يزال المغول يحتفلون به فى سيبيريا حتى القرن الماضى ، ولما أجريت هناك بعض الحفريات الحديثة وجدت بالفعل مدافن سبعة منهم أشار اليها مولر Muller وقال انها تبدو وكأنها مقدسة عند الناس (١٢١) .

أما ما يدعيه كتاب الغرب أو الشرق من أن كثيرا من قبائل المغول فى سيبيريا كانوا نصارى أو وثنيين ، ما هو الا زعم كان يراد منه العمل على ادخال هؤلاء المغول فى دين غير دين الاسلام بأن يظهروا لهم أن أجدادهم لم يكونوا مسلمين ، وأن هؤلاء الأجداد كانوا نصارى أو وثنيين ، فلا داعى لبقاء أحفادهم على دين الاسلام الذى يخالف دين الآباء والأجداد . ولو كان قول هؤلاء الكتاب صحيحا لانتشرت النصرانية بين المغول حين بعث البابوات بعوثا متعددة فى أوائل ظهور دولة المغول لأجل الغرض المذكور ، ورغم هذه البعوث ورغم تنصر بعض المغول الا ان النصرانية لم تنتشر بينهم وغلب عليهم دين الاسلام فى النهاية كما سبق القول (١٢٢) .

نخلص من ذلك الى أن سيبيريا كانت قديمة عهد بالاسلام الى حد ما ، وكان هذا الاسلام قد بدا ينتشر بين سكانها من المغول وغيرهم قبل سقوط دولة القبيلة الذهبية ، ولكنه لم ينتشر بينهم انتشارا تاما ، ولما ضعفت دولة

(120) Ibid : v. 2, pp. 1011, 1049.

(١٢١) أنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٣ . Ibid : v. 2, p. 983.

(١٢٢) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

القبيلة الذهبية واستقلت أقاليمها وكونت خانيات مستقلة ، أصبحت سييريا
تدين بانولاء لخوانين قازان الذين مدوا نفوذهم شرقا حتى سييريا الغربية .
ولا شك ان خوانين قازان كان لهم تأثيرهم فى نشر الاسلام فى تلك البلاد
وخاصة عندما كانوا اقوياء ، ولما ضعفوا وأخضعهم الروس لحكمهم خضعت
سييريا بالتالى لنفوذ الروس ، ولذلك نسمع ان حاكم سييريا المسمى
ياديغار Yadigar بن قاسم بن ماموك يرسل الى موسكو بالجزية
عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م (١٢٣) .

وفى تلك الأثناء قام كوتشم ابن مرتضى خان حاكم خوارزم وما وراء
النهر وهاجم ياديغار المتخاذل وقتله ، وأصبح كوتشم هذا خانا لخانية
سييريا منذ ذلك العام ولسنوات طويلة (١٢٤) بذل فيها جهودا كبيرة لنشر
الاسلام فى تلك البلاد بطريقة منظمة ، فأرسل الى والده فى بخارى والى حكام
قازان يطلب دعاة لنشر الاسلام وتعاليمه وعلومه فى سييريا . وقد وصل
اليه من بخارى بعض الملاوات (جمع ملا) والفقهاء ، كما وصل اليه بعض
الدرسين من قازان (١٢٥) . ويفهم من كلام هورث Howorth ان هذا الخان
كان جادا فى نشر الاسلام وانه كان يستعمل اساليب الترغيب والترهيب
لتحقيق هدفه حتى ان البعض من أهل سييريا حسبما قال ذلك الكاتب اعتنق
الاسلام مضطرا حتى لا تساء معاملتهم (١٢٦) .

وفى عهد هذا الخان توافدت اسرات عديدة من بخارى واستقرت فى
توبولسك وتيومان Tiuman وتورنسك وتارا وتومسك Tomsك
وما زالت هذه الأسر موجودة فى تلك البلاد وتقول ان اجدادها ذهبوا الى
سييريا مع كوتشم خان ، وأن اسرة من الأشراف استقرت قرب توبولسك فى
قرى سابانك وتادسيم ، وان احد قواد هذه الأسرة الذى كان يسمى
(دين على خوجا) كان على صلة بكوتشم خان ، ويقال انه تزوج ابنته التى
تسمى نال خانيش ، وكان له ثلاثة من الأبناء يسمون سسولتامت خوجا ،

(123) Howorth, v. 2, 1063, 1064.

(124) Ibid., v. 2, p. 1064.

(١٢٥) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

(126) Howorth., op. cit., v. 2, p. 983.

وسيد مهمت ، واك سيد الذى عاش فى تارا . وكان ابنا سولتامت وهما يوسف خوجا ويحيى خوجا ما زالا موجودان عندما كان مولر فى سيبيريا (١٢٧) . وبجانب هذه الأسرات المسلمة التى توافدت من بخارى على سيبيريا فى عهد كوتشم خان ، فقد توافد فى عهده أيضا بعض الدعاة من بخارى . وقد أخبرنا أحدهم بأنه خرج مع زميل له من بخارى الى حاضرة كوتشم خان على ضفة نهر ايرتتش وقاما بالدعوة الى الاسلام ، ولما مات زميله هذا بعد سنتين عاد هو الى وطنه بخارى ، ولم يلبث الا قليلا حتى عاد مرة ثانية الى بلاد كوتشم خان ، فقد توافد فى عهده أيضا بعض الدعاة من بخارى . وقد أخبرنا عاود هذا الخان طلبه بارسال مزيد من الدعاة من بخارى (١٢٨) .

ولا شك أنه كان لوجود هذه الأسر المسلمة وهؤلاء الدعاة فى سيبيريا اثر كبير فى انتشار الاسلام بها ، فاعاد اضيف الى ذلك جهود كوتشم خان نفسه وأثر التجار فى هذا المجال ، لأصبحت الصورة واضحة ولتوصلنا الى ان الاسلام بدأ يزدهر فى تلك الأتحاء النائية ، ولكن هذا الازدهار لم يلبث ان اصيب بضربة مفاجئة جاءت كالعادة على يد الروس .

فقد هاجم الروس كوتشم خان ولم يجد له معينا او مساعدا فاضطر الى اعلان ولائه لهم عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م ووقع معهم معاهدة يعترف لهم فيها بدفع الجزية ، وأخذ الروس فى بناء المدن فى سيبيريا ، فبنوا مدينة تيومان قرب سيبير عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م وبنوا مدينة توبولسك على الضفة الشرقية لنهر ايرتتش ، وبنوا فيها حصنا وكنيسة بعد ذاك بعام ، ولما أحس كوتشم خان بخطر ازدياد النفوذ الروسى على بلاده تمرد على الطاعة ، فحاربه الروس وهزموه عام ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م فى معركة حدثت بينهما على نهر أوب Or . أسر الروس فيها عددا من زوجاته وأبنائه وبناته وامرائه وجنده ، وهرب كوتشم نارا بنفسه ، واصبح الروس سادة سيبيريا ودخلت اسرة الخان الأسيرة موسكو شهر شعبان ١٠٠٧هـ / يناير ١٥٩٩م ، والتحق أحد ابنائه بالجيش الروسى واعتنق آخر المسيحية وتسمى باسم أندرو Andrew (١٢٩) .

(127) Ibid : v. 2, p. 984.

(١٢٨) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٤ .

(١٢٩) عبد العزيز جنكيز خان : نفس المرجع ، ص ٨٦ ، ٨٧ ،

ياسيليوس خرباوى : نفس المرجع ص ١٣٨

Howorth, op. cit., v. 2, pp. 82, 1000, 1001, 1065.

وهكذا اوقف الزحف الروسى النصرانى جهود كوتشم خان فى نشر الاسلام بين من كانوا على الوثنية من مغول سيبيريا وسكانها ، ولذلك ظل بعض المغول الذين يقيمون فى المناطق المجاورة لنهر ايرتش على ديانتهم القديمة ، كما استمر بعض المغول الذين يعيشون عند مصب نهر تارا Tara وبين توبولسك ، ودميانسكويام ، وقرب بلدة تورنسك على وثنيتهم ثم تنصروا بعد ذلك (١٣٠) بتأثير الحكومة الروسية التى كانت لا تكل ولا تمل من تنصير المسلمين والوثنيين فى سيبيريا متخذة تقريبا نفس الاساليب التى اتبعتها فى قازان . ورغم ذلك فقد دأب الفقهاء والدعاة القادمون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى وكذلك التجار القادمون من قازان على الاستمرار فى الدعوة الى الاسلام فى سيبيريا ، وعلى أيديهم اسلمت قبائل المغول والتتار التى كان يطلق عليها اسم Baraba Tatars او Barabiniski Tartars عام ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م ، وكانت مساكن هذه القبائل تقع بين نهر ايرتش ونهر أوب . اما بقية هذه القبائل التى كانت لا تزال على الوثنية فقد اسلمت فى مستهل القرن التاسع عشر وظلت على اسلامها حتى الآن (١٣١) .

وفى المناطق التى تقع جنوب سيبيريا وشمالى بلاد ما وراء النهر وتركستان كانت توجد شعوب القرغيز والقزاق الذين كانوا يخضعون أيضا لخوانين القبيلة الذهبية ، ولذلك انتشر بينهم الاسلام منذ ان اسلم هؤلاء الخوانين ابتداء من بركة خان (٦٥٥ — ٦٦٥ هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٦ م) . والقرغيز كلمة تعنى الغز الذين يسكنون البرية حسبما جاء فى اللغة التركية ، وهم ينتسبون الى اوغوزخان او ذرية بعض مقربيه وامرائه ، ومنه اخذت كلمة غز مخففة من كلمة اورغوز ، ومن هؤلاء الغز انحدرت بعض قبائلهم التى عرفت باسم السلاجقة فى القرن الخامس الهجرى الى بلاد ما وراء النهر واسلموا وحسن اسلامهم وسيطروا على الخلافة العباسية وعلى كثير من بلاد المشرق الاسلامى حوالى قرن ونصف قرن من الزمان (١٣٢) .

(130) Ibid : v, 2, p. 983.

(١٣١) ارنولد : نفس المرجع ص ٢٨٤ ،

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 983, 1002.

(١٣٢) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

أما بقية القرغيز الذين ظلوا يسكنون البرية فقد استقروا في جبال
آطاغ أو كما يسميها الروس جبال التاي وفي منطقة (يدى صو) وشرق
منطقة نهر سيحون ، وأسلم كثير منهم على أيدي العلماء والملاوات الذين
نشروا الإسلام فيما بينهم في القرن الثامن عشر ، وحاربوا بالتعاون مع
القزاق المسلمين القناوق البوذيين الوافدين عليهم بعد أن دمر الصينيون
دولتهم عام ١١٧٢هـ/١٧٥٨م . وكانت الحرب بين القرغيز والقالموق كأنها
حرب دينية بين البوذية والإسلام كما تصورها ملاحمهم (١٣٣) .

ورغم ذلك فإنه في مستهل القرن الماضي كان كثير من القرغيز الذين
يقيمون في السهول المسيحية الممتدة جنوباً من مقاطعة تبولسك إلى بلاد
تركستان لا يزالون على الوثنية ، ولم تهتم الحكومة الروسية في ذلك الحين
بنشر المسيحية بينهم على اعتبار أنهم كانوا على حالة كبيرة من البربرية
والهيجية لا تسمح بفهمهم للإنجيل فهما جيداً . وسرعان ما انتهز دعاة الإسلام
هذه الفرصة واحتلوا هذا الميدان وجذبوا كافة قبائل القرغيز إلى الدين
الإسلامي ، فأصبحوا كلهم مسلمين وإن كان الجهل لا زال فاشياً بينهم (١٣٤) .
ويشير أرنولد إلى تلك الأغاني الشعبية التي يتغناها القرغيز والتي تحتل
مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الإسلامية في الوقت الحاضر . وقد تضمنت
هذه الأغاني حقائق الإسلام الأساسية مصوغة في أسلوب قصصي أسطوري،
مما جعل هذه الحقائق تصل إلى قلوب عامة الناس في سهولة ويسر (١٣٥) .

أما القزاق فهم من المغول الخالص الذين لم يختلطوا بغيرهم من
الشعوب والأمم مثل أخوانهم من مغول إيران أو مغول القبيلة الذهبية أو
مغول بلاد ما وراء النهر وتركستان ، فقد أقام القزاق في البرية التي كانت
مهد المغل والتتار وأصبحت تحكمها القبيلة البيضاء التي تفرعت عن القبيلة

(١٣٣) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٧، بارتولد : نفس المرجع ،
ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(١٣٤) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٥٦ ، أرنولد : نفس
المرجع ص ٢٧٨ .

(١٣٥) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٤ .

الذهبية التي كانت قد بسطت نفوذها على تلك الانحاء وتركت حكمها لهذا الفرع من بيت جوجى بن جنكيز خان كما سبق القول (١٣٦) .

وقد وصف الرحالة القطر القزاقى بأنه يحد من الشمال بالباشقرد الذين يسكنون حول جبال اورال ، ومن الشرق بالقلموق السود وطشقند ، ومن الجنوب ببحر ارال والقراكالباكس الذين ينتمون لفرع النوغاي من بيت جوجى مؤسس القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق ، ومن الغرب بالجايك 'Jaik' أو بخانية (قازان) (١٣٧) .

وقد اطلق اسم القزاق على سكان هذا الاقليم بعد ان ضعفت دولة القبيلة الذهبية فى سراى وتفرقت كلمة المغول فى تلك الدولة الواسعة الانحاء ، اذ كان كثير من ذرية جنكيز خان وذرية ابنه جوجى يخرجون عن طاعة السلطان ولا ينقادون له ويعلنون استقلالهم عنه ، وكان بعضهم يفعل ذلك وينباعد عن مركز السلطنة ويتوغل فى البرية حتى لا تصل اليه يد السلطان ، فكان يقال لهم قزاق بمعنى الفار او الهارب ، ثم حرف هذا اللفظ الى قزاق ، وصار علما على جميع تلك القبائل وان كان بعضها لم يفعل ما يستوجب اطلاق هذا الاسم عليها (١٣٨) .

والمهم هنا ان خوانين القبيلة البيضاء حكموا هذا الشعب الذى عرف باسم القزاق واتخذوا لهم عاصمة تسمى مدينة سفناق Sighnak ثم تحولوا الى مدينة تركستان واتخذوها عاصمة لهم ، وكان اهم ما فى هذه العاصمة الجديدة هو مسجدنا الشهير الذى بنى فوق مقبرة الخواجه (احمد ياسافى) على يد تيمورلنك عام ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م عندما ذهب الى تركستان . والشيخ احمد هذا هو مؤسس طائفة الجهرية Jahira ، ومات عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م ، وهو من أشهر المتصوفين الذين يحتفل بهم فى وسط آسيا (١٣٩) .

(١٣٦) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(١٣٧) المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٣٠ ،

Howorth : op. cit., v. 2, p. 684.

(١٣٨) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(139) Howorth : op. cit., v. 2, pp. 274, 681.

وكان القزاق مسلمين ويتمسكون بعقيدتهم الإسلامية (١٤٠) ويدعون بأنهم من سلالة أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روج بذلك بينهم بعض الخوجات الذين كانوا يقدون عليهم من تركستان وخوارزم وبخارى وفغانه (١٤١) ، ورغم أن هذا القول غير صحيح بالمرة ، إلا أنه يدل على مدى انفعالهم بالاسلام انفعالا جعلهم يدعون الانتماء الى احد الصحابة الأجلاء ، ولذلك انتشرت بينهم القاب السادة والاشراف والخوجات ، مما سنفير اليه في حينه .

وكانت روسيا النصرانية حريصة كل الحرص على مقاومة النشاط الاسلامي في تلك البلاد . وقد رأينا ما فعلته مع مسلمي قازان وسيبيريا ورأينا محاولاتها الدائمة المستمرة في تنصير هؤلاء المسلمين أو اضطهادهم وإخراجهم من أراضيهم وبلادهم . وقد فعلت نفس الشيء مع شعب القزاق المسلم ، ففرضت حمايتها عليه منذ عام ١١٤٢ هـ / ١٧٣٠ م ، وحاولت بشتى وسائل الترغيب والترهيب أن تجره الى اعتناق النصرانية الأرثوذكسية ولكن هذا الشعب تمسك بعقيدته الإسلامية ، مما دفع بالروس أخيرا الى الاستيلاء على تلك البلاد عام ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م عقب وفاة جهانكير الذي اشتهر بنشر العلم واحترام العلماء ، والحرص الشديد على تطبيق احكام الشريعة الإسلامية ، وعلى بناء المساجد والمدارس لتعليم الناس علوم الاسلام وثم عاشره (١٤٢) .

ومنذ أن أصبحت بلاد القزاق جزءا من امبراطورية روسيا القيصرية النصرانية بدا الروس يبنون فيها قرى ومدنا كثيرة واصبحوا يزاحمون القزاق في بلادهم ولا يسمحون لهم ببناء المساجد والمعاهد الدينية والمدارس ، فهاجر كثير منهم الى البلاد الإسلامية القريبة منهم مثل بخارى وخوارزم وأفغانستان وهاجر بعضهم الى الصين (١٤٣) . أما الأغلبية من القزاق الذين

(١٤٠) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٦٠ ،
Howorth, op. cit., v. 2, p. 684.

(١٤١) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٩ ، ٢٦٠ .
(١٤٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٦٠ ، ج ٢ ص ٢١٨ ، ٥٢٢ —

٥٢٤ .

(١٤٣) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٥٢٦ — ٥٣٢ .

تمسكوا بأرضهم وبلادهم فقد خضعوا للروس خضوعا نهائيا وأصبحوا يشكلون الآن ما يسمى بجمهورية قازقستان (قازاقستان) السوفيتية الاشتراكية وهى إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى الست الإسلامية ، وتعتبر من أكبر جمهوريات الاتحاد السوفيتى الست عشرة قاطبة فى المساحة وأعظمها اختزاناً للثروات والمعادن ، وهى تمتد حالياً من دلتا نهر الفولجا الى حدود الصين الشعبية وتحتل مساحة تزيد على المليون من الأميال المربعة (١٤٤) .

ورغم خضوع هذه البلاد للروس فإن شعبها لا زال يتمسك بالاسلام وتقاليده ، مما يدل على مدى الدور البارز الذى قام به المغول فى نشر الاسلام والمحافظة عليه ضد صليبية الروس التى برزت واضحة منذ بداية القرن السادس عشر للميلاد ، وكان لتمسك المغول بالاسلام على هذا النحو أثر كبير فى مظاهر حياتهم وسلوكهم منذ أن قامت دولتهم فى بلاد التفجاق حتى انتهت على أيدي الروس ، وتعددت هذه المظاهر وتنوعت لتشمل كثيراً من نواحي حياتهم الاجتماعية والثقافية .

هـ — مظاهر الحياة الإسلامية عند مغول التفجاق :

اتخذ خوانين المغول أو سلاطينهم فى بلاد التفجاق كل ما تتميز به الحياة الإسلامية فى أعرق بلاد الاسلام ، وحرصوا الحرص كله على تأكيد الطابع الإسلامى فى تصرفاتهم ومظاهر حياتهم حتى فى حياتهم الخاصة ، حتى فى أسماء اولادهم ، فنرى بركة خان يبتعد فى تسمية اولاده عن الأسماء التركية والمغولية المألوفة لما تتميز به من طابع وثنى ويتخذ لهم أسماء عربية اسلامية ، فهذا حسام الدين وذاك صلاح الدين احمد وثالث سماه بدر الدين محمد ورابع سماه ناصر الدين محمد . ليس هذا فقط بل نراه يرسل بهم الى القاهرة ليعبوا من الثقافة الاسلامية المتأصلة فى هذا البلد الإسلامى العريق ، فشرب الأولاد من هذا المعين الصافى المتدفق من الأزهر ومدارس القاهرة وأتقنوا العربية لدرجة ان ثالثهم كان له ديوان شعر بالعربية ، وكتبوا فى علم الكلام وتفسيرا للقرآن الكريم ، واستقر هؤلاء الأولاد فى مصر لمواصلة التزود من علوم الاسلام حتى مات الأول بها عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م ، وانخرط

الثانى فى سلك امراء الممالك بمصر ، وصار الثالث الى ما صار اليه من الانقطاع للعلم والاعتراف من بحر الثقافة الاسلامية العربية وعلومها (١٤٥) .

ولم يقتصر انفعال هؤلاء الخوانين بالاسلام على هذا النحو فقط ، فكما اتخذوا لأولادهم اسماء عربية ، تسموا هم بأسماء عربية اسلامية واتخذوا لأنفسهم القابا اسلامية ، فبركة خان يسمى نفسه ابو المعالى ناصر الدين الساطان بركة خان ، وأوزبك خان يسمى نفسه الملك المظفر غياث الدين السلطان محمد اوزبك خان ، وابنه جاني بك يسمى نفسه السلطان جلال الدين ابو المظفر محمود جاني بك (١٤٦) . وهكذا نراهم يتخذون الاسماء والالقاب والكنى العربية بالاضافة الى أسمائهم الأصلية ، كما يتخذون لقب السلطان وهو لقب اسلامي اشتهر به ملوك الاسلام قبل أن يظهر المفلول . ليس هذا فقط بل انهم اتخذوا لأنفسهم القابا اسلامية اخرى معظمها عربى الاصل مثل لقب سيد ولقب خوجه ولقب شيخ ولقب حاج ولقب عرب . وكان لقب (سيد) يطلق على الذين يدعون انهم من سلالة الخليفين عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب من زوجتيهما من بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقب خوجه كان يطلق على الذين يدعون انهم من سلالة الخليفين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب من نساء اخريات من غير بنات النبى صلى الله عليه وسلم (١٤٧) . وعلى سبيل المثال فقد اعتلى عرش سراى فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ما سمي بهراد خوجا وكوتلوغ خوجا ، وكان طغتمش الذى هزمه تيمورلنك ابنا لطولى خوجا وحفيدا لطوكول خسوجا اوغلان (١٤٨) . أما لقب شيخ فقد تسمى به بعض خوانين سراى مثل شيخ احمد الذى هزم واخذ اسيرا الى كييف عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠٢ كآخر خان من خوانين سراى (١٤٩) ، كما تلقب بلقب (سيد) عدد كبير من بيت كوتشلوک

(١٤٥) المشرى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٥٠٠ ، ٥٢٠ ؛
٥٣٣ ، ٦٤٥ ، ٦٥٠ ، ٦٨٥ ، ج ١ ق ٣ ص ٦٦٦ ، ٦٧٤ بارتولد : نفس
المرجع ، ص ١٧٩ ،
Howorth, op. cit., v. 2, pp. 125, 126.

(١٤٦) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٠٤ ، ٥٠٢ ، ٥٤٧ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 179-180

(147) Howorth : op cit., v. 2, p. 870.

(148) Ibid : v. 2, pp. 202, 226.

(149) Ibid ; v. 2, pp. 226, 346, 347.

محمد خان القبيلة الذهبية ، مثل سيد نادر محمد وأبنائه وأحفاده وأخوته (١٥٠) كما تلقب خوانين خوارزم بهذه الألقاب مضافا اليها لقب (حاج) ولقب (عرب) ، مثل حاجى طولى وسلطان حاجى وحاجى محمد خان ، وعرب شاه ، وعرب محمد خان (١٥١) .

وقد بلغ انفعال خوانين وخواتين المغول درجة انهم كانوا يحرصون على اداء الصلوات فى أوقاتها ويحرصون على اداء صلاة الجمعة فى المساجد الجامعة ، وكانوا يحملون خياما يجعلونها مساجد اذا ما رحلوا خارج العاصمة (١٥٢) ، وقد أرسل بركة خان الى سلطان مصر الظاهر بيبرس رسالة فى عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م يخبره فيها بأسماء من أسلم من أهل بيته وبيوت أخوته وبيوتات المغول وقبائلهم وعشائرتهم صغيرهم وكبيرهم ، ويحرص فى هذه الرسالة على أن يؤكد أن « كل هؤلاء بأسرهم قامسوا بالفرائض والسنن والزكاة ، والغزاة والجهاد فى سبيل الله » (١٥٣) ، وقد بلغ حرص هؤلاء المغول على اداء الصلاة فى جماعة ان اتخذ كل خان أو خاتون أو أمير لنفسه اماما ومؤذنا خاصا به وبمن يلوذ به (١٥٤) وكان المقصرون من المغول فى اداء صلاة الجماعة يتعرضون للعقاب على يد امام المسجد ، فقد كان المؤذنون فى بعض المدن يطوف كل واحد منهم على الدور والمنازل المجاورة لمسجده يخبر سكانها بضرورة حضور صلاة الجماعة ، ومن لم يفعل ذلك كان يحضر امام المصلين ويقوم الامام بضربه بدرة كانت معلقة بالمسجد لهذا الغرض ، علاوة على تغريمة خمسة دنانير تنفق فى صالح المسجد وفى اطعام الفقراء والمساكين (١٥٥) .

ولم يكن الحرص على اداء الصلاة فى اوقاتها فقط بل كان الحرص

(150) Ibid : v. 2, pp. 226, 878.

(151) Ibid : v. 2, p. 977.

(١٥٢) المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٣٩٥ .

(١٥٣) المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٩٥ العينية : نفس المصدر ،

ج ٢٢ ورقة ٢١٨ ، Howorth : op. cit., v. 2, p. 118

(١٥٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٠ ، بارتولد ، نفس المرجع ، ص ١٧٨ .

(١٥٥) ابن بطوطة : نفس المرجع ، ص ٢٣٩ .

بنفس الدرجة على أداء الفرائض الأخرى التى كان يؤديها الخوانين والمغول حكما ورعية (١٥٦) ، مثل الحج الذى كان رسالهم الى مصر يحرصون على أدائه (١٥٧) ، وقد سبقت الإشارة الى حمل بعض الخوانين للقب (حاج) او (حاجى) ، مما يدل على أنهم قاموا بأداء هذه الفريضة والا لما حرصوا على اتخاذ هذا اللقب دون غيرهم من الخوانين الآخرين .

ولم يكن حرص المغول على وضع الشريعة الاسلامية موضع التطبيق فى مجال العبادات فقط ، بل حرصوا على ذلك فى مجالاتها الأخرى ، فالسلاطين والمغول بصفة عامة بعد اسلامهم كانوا لا يتخذون اكثر من اربع زوجات (١٥٨) ، كما أنهم لم يقربوا الخمر او لحم الخنزير (١٥٩) كما كان التقاضى لا يتم بينهم الا أمام قضاة المسلمين وعلى المذاهب الفقهية المعروفة وخاصة مذهبه أبى حنيفة والشافعى ، وكان فى كل مدينة قاض لكل مذهب ، يقضى بين الناس بما يتفق ومذهبه ، وقد أشار ابن بطوطة وغيره الى ذلك كثيرا (١٦٠) . ومعنى ذلك ان الناس أخضعوا حياتهم بما يتفق وما تقضى به هذه المذاهب ، وبذلك حلت الشريعة الاسلامية محل قوانين الياسا (اليساق) المغولية ، وخاصة منذ عصر السلطان محمود أوزبك خان (١٦١) الذى لم يحكم بعده خان مغولى الا وهو مسلم .

وليس من شك فى ان المغول جميعا لم يستطيعوا أن يتخلصوا من بعض قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم السابقة دفعة واحدة ، فقد وجدت بعض العادات التى لا تتفق مع الاسلام فى فترة التمهيد والتهيئة وقبل عصر أوزبك خان ، وقد أشار الى ذلك بعض المؤرخين نقلا عن تاجر يدعى جمال الدين عبد الله الحصنى (١٦٢) ، ولكن بالتدريج حلت التقاليد الاسلامية محل

(١٥٦) العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٣١٨ .

(١٥٧) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٢٨ .

(١٥٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(١٥٩) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩

Howorth, op cit., v. 2, p. 105.

(١٦٠) ابن بطوطة ، ص ٢١٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ .

(١٦١) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧١ .

(١٦٢) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

هذه التقاليد الوثنية التي حرص الخوانين على تنقية حياة رعييتهم منها ، باعطائهم المثل للناس في اتباع الشعائر والتقاليد الاسلامية وحرصهم على ذلك الحرص كله . وقد ازداد هذا الحرص عند أحد خوانينهم (تدان) فترك قيادة الدولة لقواده وأمرائه ، وقصر حياته على التعبد والزهد الشديد ، ومصاحبة الصوفييين والأولياء الصالحين ، وبلغ به الأمر حد التنازل عن العرش لابن أخيه حتى يفرغ تماما لما اختاره لنفسه من زهد وتصوف (١٦٣) ، كما كان خان آخر وهو (بركة خان) ينظم المناظرات الدينية التي كانت تعقد في قصره بين علماء الاسلام وأصحاب الأديان الأخرى ، وكان يشترك في هذه المناظرات بنفسه (١٦٤) . وقد سبقت الإشارة الى ان مجالس الخوانين والخواتين كان لا يتم انعقادها الا بحضور العلماء ورجال الدين الاسلامي (١٦٥) ، مما يدل على أن هؤلاء الخوانين صبغوا حياتهم بصبغة اسلامية واضحة .

ومن المظاهر الدالة على ذلك أيضا احتفال خوانين المغول في بلاد القشجاق بالأعياد الاسلامية وبشهر رمضان . وقد حضر ابن بطوطة صلاة عيد الفطر وصادف ان كان يوم العيد يوم الجمعة ، فحضر الصلاتين ووصف لنا موكب السلطان والخواتين والأمراء أثناء خروجهم لأداء صلاة العيد وصفا رائعا يدل على حرص المغول على أداء هذه الشعائر الدينية ، وحرصهم على تأكيد الطابع الاسلامي في حياتهم ، وعلى اظهار قوة الاسلام وعظمته ، فقد كانوا يصحبون عندما خرجوا لأداء هذه الصلاة القضاة والفتهاء والمشايع . يحوطهم الجند الذين كانوا يحملون الطبول والأعلام . وكان عدد الجند الذين حضروا صلاة العيد في ذلك اليوم مائة وسبعين الفا ، وكان هؤلاء جند الأمراء والحكام واتباعهم ، اما جند السلطان فكان عددهم اكبر من ذلك بكثير ، مما يدل على كثرة عدد الداخلين في الاسلام (١٦٦) .

وفي ميدان يتسع لكل هذه الأعداد كانت تنصب خيمة خاصة للسلطان تسمى (الباركاة) ، وخيام أخرى للأمراء والخواتين ورجال العلم والدين ،

-
- (١٦٣) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ ، المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨ .
(١٦٤) توماس أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ .
(١٦٥) أنظر ، ص ١٢٦ .
(١٦٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

وبعد اداء الصلاة كان السلطان يوزع الخلع والهدايا على الأمراء ورجال الدين ، ثم توضع موائد حافلة بأنواع الطعام المختلفة فى أطباق من الذهب والفضة والخشب ، وكان بعض الفقهاء يتورعون عن الأكل الا فى الاطباق المصنوعة من الخشب ، وكان الجميع يأكلون وهم يستمتعون بالفناء والطرب ، ثم ينصرفون فى النهاية كل الى خيمته ، وبعد صلاة الجمعة وصلاة العصر يعودون الى منازلهم (١٦٧) . وليس بخاف على أحد ان هذا الاحتفال الرائع بالاعیاد الاسلامية كان يلفت انظار الباقين على الوثنية الى عظمة الاسلام وقوة المسلمين مما يجذبهم الى هذا الدين فيعتنقونه لاسيما وأن الخوانين كانوا يحرصون على ان يولوا وظائف الدولة للمسلمين (١٦٨) ، وذلك فى محاولة منهم لصبغ الدولة كلها بالصبغة الاسلامية .

وكائنت هذه الوظائف لا يتولاها بالطبع الا العلماء والادباء والفقهاء والمثايخ ، وهم الذين كانوا على دراية واسعة بالشريعة الاسلامية وبالإدارة وأساليبها ، وكانوا يمثلون قمة الثقافة والفكر فى بلاد القفجاق ، وكان سلاطين المغول يختارون من بينهم كبار الموظفين والسياسيين مثل الوزراء والحكام والقضاة بجانب الموظفين الذين يلون هؤلاء فى الدرجة والمنزلة . ولذلك تمتعت هذه الطبقة — أقصد طبقة العلماء والفقهاء — بمنزلة سامية واحترام كبير عند خوانين مغول القفجاق ، فعرب شاه يخبرنا بأن السلطان بركة خان « أقام حرمة العلم والعلماء » ، وعاملهم بكل احترام وتبجيل (١٦٩) ، وعرف لهم قدرهم حتى انه ذهب لمقابلة أحدهم فى بخارى كى يجدد اسلامه على يديه وحتى يصله بعد ان كان ذلك العالم قد رفض صلة هذا السلطان (١٧٠) ويقص علينا ابن بطوطة الكثير عن تواضع السلطان محمد أوزبك خان للعلماء والفقهاء والصالحين وخاصة للشيخ نعمان الدين الخوارزمى الذى كان يأتى اليه السلطان أوزبك زائرا يوم الجمعة ، « فلا

(١٦٧) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(١٦٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ص ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ — ٢٤٠ ،

Saunders : op. cit., p. 140.

Howorth : op. cit., v.2, pp105, 117.

(١٦٩) عجائب المقدور فى اخبار تيمور ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٧٠) تحفة النظر ، ص ٢٣٨ .

يستقبله هذا الشيخ ولا يقوم اليه ، ويقعد السلطان بين يديه ويكلّمه اللف . كلام ، ويتواضع له ، والشيخ بضد ذلك ، وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان ، فانه يتواضع لهم ويكلّمهم اللف كلام ويكرّمهم « (١٧١) » .

وطبيعى ان الحكام والامراء لا بد ان يتبعوا سياسة خوانينهم وسلاطينهم ، فكان احترام العلماء والفقهاء والصالحين سمة او علامة بارزة فى جميع الولايات والاقاليم التابعة لمغول القفجاق ، ويظهر هذا الاحترام بصورة واضحة عندما كان يستقبل هؤلاء الحكام عالما او فقيها او رحالة من المسلمين ، وعلى سبيل المثال فقد لاقى ابن بطوطة ومن بعده عرب شاه وغيرهما من العلماء من مظاهر التكريم الشئ الكثير ، ففى مدينة ازاك التى تقع شمالي البحر الاسود نرى حاكمها محمد خواجه الخوارزمى يخرج لاستقباله ومعه الطلبة والقاضى ، ليس هذا فقط ، بل ان الامير المغولى تلتكتمور والى مدينة القرم يتسابق مع هذا الحاكم فى تكريم ابن بطوطة ، فيقدمه امامه ، ويجلسه الى جانبه ويأمر ولديه واخاه وذلك الحاكم واولاده بان يكونوا فى خدمة ابن بطوطة (١٧٢) .

ويتكرر نفس المشهد فى المدن الاخرى التى مر بها ابن بطوطة وعندما يقترح قاضى المدن ان يذهب مع ابن بطوطة لزيارة اميرها يكون الرد عليه من احد المشايخ « التادم ينبغى له ان يزار ، وان كانت لنا همة نذهب الى امير المدينة ونأتى به ، ففعلوا ذلك واتى الامير بعد ساعة فى اصحابه وخدامه » (١٧٣) .

وبجانب ذلك فقد افاض خوانين مغول القفجاق من خيرهم وبرهم على العلماء والفقهاء والصالحين والمتصوفين الشئ الكثير ، فغفروهم بالهدايا والهبات والصلوات سواء كانت مالية او على شكل اقطاعات من الارض ، وعلى سبيل المثال ، فقد منح احد المشايخ الصالحين من الاثراك قطعة ارض (ترخان) اى معفوة من الضرائب والمغرم فعمرها هذا الشيخ وكان حاجا

(١٧١) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(١٧٢) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(١٧٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

وصارت قرية ثم تحولت الى مدينة وسميت مدينة الحاج ترخان (طرخان)
او حاجى طرخان ، وكانت من أحسن المدن المبنية على نهر اتل
(الفولجا) (١٧٤) ومن أشهر المراكز الاسلامية فى بلاد القفجاق .

وكان اغداق الخوانين على العلماء والفقهاء والصالحين يظهر اثناء
المجالس التى كان يدعو لها هؤلاء الخوانين والتى كانت لا تنعقد الا بحضور
العلماء ، وفى نهايتها كان الخان او السلطان يخلع عليهم الخلع السنية
ويعطهم الأموال الوفيرة ، كما كان هذا الاغداق يظهر أيضا عند زيارة
الخوانين لازوايا والأضرحة والمساجد والمدارس . فضلا عن الأوقاف التى
كان يرصدها خوانين وخواتين مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق لهذه
المؤسسات الدينية الثقافية فقد كانوا يداومون على زيارتها ويتبركون
بمشايخها وزهادها ، ويجزلون لهم العطاء الوفير . وقد سبقت الإشارة الى
قيام السلطان محمد أوزبك خان بزيارة زاوية الفقيه العالم الشيخ نعمان
الدين الخوارزمى ومداومته على ذلك كل يوم جمعة . وكانت الخواتين
والنساء عامة يكثرن من زيارة هذه المؤسسات ومن أعمال البر ، وكان الأهالى
يهدونها من الخيل والبقر والغنم الشيء الكثير (١٧٥) .

وكان بعض الأمراء يتخذون من هذه المؤسسات أماكن لعقد الحفلات
الدينية ، فعلى سبيل المثال كان أمير مدينة أزاق المغولى يأتى لزيارة الزوايا
الموجودة بتلك المدينة للترحيب بمن فيها من الغرباء وتقديم الهدايا والاطعمة
لهم ، ثم يختتم لقاءهم بحفل دينى يقوم فيه الخطيب بالقراءة خطبة باللغة
العربية يشكر فيها الأمير والسلطان ، وكانت هذه الخطبة تترجم الى اللغة
التركية فى نفس وقت القائها ، ثم يقوم القراء بتلاوة آيات من القرآن بترجيع
عجيب ، ثم يأخذون بعد ذلك فى الغناء باللغة العربية ويسمون ذلك الغناء
« بالقول » ثم يغنون بعد ذلك بالفارسية والتركية ويسمونه « الملع » (١٧٦) .

ونتيجة لهذه السياسة التى سار عليها المغول فى تبجيل العلماء

(١٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ،

Howorth : op. cit., v. 2, p. 440.

(١٧٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٩ ، ٢٣٨ .

(١٧٦) المصدر السابق ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

والفقهاء واحترامهم والاغداق عليهم توافد على بلاطهم في سراى وفى عواصم بلادهم الأخرى الكثير من علماء المسلمين وفقهائهم وأدبائهم من شتى أنحاء العالم الإسلامى . وكان خوانين المغول يستقدمونهم ويحرصون على ذلك « ليوقفوا الناس على معالم دينهم ويبصرونهم طرائق توحيدهم ويقتينهم » ، فعل ذلك السلطان بركة خان « وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات » (١٧٧) . وسار خلفاؤه من الخوانين المسلمين وخاصة منذ عصر السلطان محمد أوزبك خان على هذه السياسة ، فامتلات سراى بكثير من العلماء والفقهاء الوافدين عليها سائحين أو متيمين مثل ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) ومولانا قطب الدين محمد بن محمد الرازى (ت ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م) والعلامة الشيخ سعد الدين التفتازانى (ت ٧٩١هـ / ١٣٨٨م) ، والشيخ علاء الدين أحمد بن محمد السيرامى (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) والشيخ نجم الدين عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن نصر الموصلى المعروف بابن النجم (ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) ، والشيخ كمال الدين الخجندى الذى كان من اكابر الصوفية والذى اقام بسراى ، ثم رجع الى تبريز وبها توفى عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م والعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم الشهير بعرب شاه الدمشقى صاحب كتاب « عجائب المقدور فى احوال تيمور » وغيره من المؤلفات والذى اقام فى مدينة حاجى طرخان واخذ فيها عن الحافظ الرازى وبها توفى عام ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م ، والسيد جلال الدين شارح الحاجبية ، وغير هؤلاء من العلماء والفقهاء والادباء والاولياء والصوفيين الذين ازدهمت بهم سراى حتى صارت « مجمع العلم ومعدن السعادات » . . . واجتمع فيها من هؤلاء العلماء « ما لم يجتمع فى سواها ولا فى جامع مصر ولا قراها » (١٧٨) . يظهر ذلك من أسماء هؤلاء العلماء ، فهذه الزاوية شيخها يسمى فلانا الخراسانى ، وتلك بها من المالكية فلان المصرى ، واخرى للفقهاء فلان الخوارزمى ، وهذا مارستان له طبيب شامى ، وتلك الزاوية شيخها فلان السمرقندى ، وما ذلك الا مجرد امثلة من العلماء والفقهاء الذين قابلهم ابن بطوطة وحده فقط ، مما

(١٧٧) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٧٨) المصدر السابق ، ص ٥٧ ، العينى : نفس المصدر ،

ج ٢٢ ورقة ٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٤٧ — ٤٩ ،

Howorth : op. cit., v. 2, 125.

يدل على مدى انفتاح بلاد القفجاق لعلماء الاسلام وعلى تغلغل الروح الاسلامية بين مغول هذه البلاد (١٧٩) .

وقد عمل مغول القفجاق على التمكين للثقافة الاسلامية في بلادهم لا باستقدام العلماء فقط ، بل بايفاد ابنائهم وعلمائهم الى البلاد الاسلامية لينهلوا من معينها وليوطدوا صلة دولتهم بتلك البلاد . ولذلك نلاحظ توافد عدد كبير من أبناء مغول القفجاق سواء كانوا من أبناء السلاطين أم من غيرهم من عامة المغول والقفجاق الى مصر . وقد سبقت الإشارة الى ايفاد أبناء السلطان بركة خان الى القاهرة للدراسة وطلب العلم ، وكانوا هم وغيرهم ممن أتوا الى مصر يدرسون في الجامع الأزهر سنين طويلة يصلون فيها الى درجة كبيرة في اتقان علوم الدين واللغة العربية ، حتى ان بعضهم تولى في مصر ذاتها مناصب القضاء والتدريس ورئاسة المدارس . وبجانب هؤلاء الذين وفدوا الى مصر توافد غيرهم الى بلاد الحجاز وجاوروا بمكة المكرمة ينهلون من علمها وعلمائها (١٨٠) .

كما اتبع مغول القفجاق سبلا أخرى للتمكين للثقافة الاسلامية في بلادهم منها انشاء الزوايا والمساجد والمدارس سواء في العاصمة أم في غيرها من المدن والقرى والنواحي . فالسلطان بركة خان أكثر من بناء المساجد والمدارس حتى يحفظ النشء الجديد القرآن الكريم ويعرف المغول قواعد الدين الاسلامي (١٨١) ، وفي عهد السلطان محمد أوزبك خان غطت الربط والزوايا كل مدينة وقرية ، بل كان في المدينة الواحدة العديد من الزوايا ، تتبع كل منها أحد المشايخ أو الصالحين أو الأمراء والخواتين . ففي مدينة القرم كانت هناك زاوية الشيخ زادة الخراساني ، وقرب هذه المدينة كانت هناك زاوية أخرى تابعة لحاكم القرم الأمير تليكتمور في موضع يعرف بسجان ، وفي مدينة

(١٧٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،

٢٤٠ .

(١٨٠) الرمزي نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٣ — ٣٧ ، ٤٠ .

(١٨١) العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٧ ، ابن خلدون : نفس

المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٣ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٨ ،
Howorth : op .cit., v. 2, p. 118.

أزاق كانت هناك زاوية لشيخ من أهلها يسمى رجب النهر ملكى ، وفى مدينة الماجر كانت هناك زاوية الشيخ محمد البطائحي وبها نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، وكان السلطان والخواتين يأتون لزيارة هذا الشيخ والتبرك به ويجزلون له العطاء . وكانت هناك زوايا كثيرة فى مدينة سراى أهمها زاوية الشيخ نعمان الدين الخوارزمى التى اعتاد السلطان على زيارتها كل يوم جمعة ، وفى مدينة سراجوق كانت هناك زاوية لرجل صالح من الترك يدعى اطا . وبخوارزم زاوية الأمير قطلو دمور نائب السلطان أوزبك ، بالإضافة الى زاوية أخرى بنتها ترابك خاتون زوجة هذا الأمير ، وكانت تدعو فيها الفقهاء ووجوه أهل المدينة للترحيب بالقرباء من العلماء والتجار الوافدين عليها (١٨٢) .

وقد نالت المساجد اهتماما كبيرا من سلاطين مغول القفجاق وخاصة السلطان محمد أوزبك ، فقد ازدهمت مدينة سراى فى عهده بالمساجد الكثيرة. حتى كان بها وحدها ثلاثة عشر مسجدا جامعاً (١٨٣) ، وطبيعى ان المساجد غير الجامعة كانت تفوق هذا العدد بكثير . كما بنى هذا السلطان عددا كبيرا من المساجد فى مدينة بلغار (١٨٤) كما بنى مدرسة للعلم فى مدينة سراى (١٨٥) وكانت المساجد فى الغالب تقوم بدور المدارس فى تلك العصور ، ولذلك. نبارى الأمراء والخواتين فى اقامتها ، مثال ذلك ما فعلته زوجة الأمير قطلو دمور حاكم خوارزم، فقد بنت مسجدا على نفقتها فى تلك المدينة وعمرتة (١٨٦) ، ولا شك ان الكثير من الخواتين قلدنها فى ذلك حبا فى عمل الخير من جهة ، ورغبة فى نشر الاسلام والثقافة الاسلامية من جهة أخرى .

وقد نتج عن ذلك ازدهار كبير للثقافة الاسلامية فى هذا العهد فانتشرت بين المغول بكافة فروعها وألوانها ، فالفقه ومذاهبه المختلفة كانت له مدارس. رائجة ، وكان له معلمون ومدرسون ومساجد معينة تختص كل منها بتدريس

(١٨٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٥ — ٢١٩ ، ٢٣٨ — ٢٤٣ .

(١٨٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(184) Howorth : op. cit., v. 2, p. 440.

(١٨٥) القلقشندى : نفس المصدر، ج ٤ ص ٤٥٧ .

(١٨٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٩ .

مذهب معين ، ففى مدينة سراى كان للشافعية والحنفية والمالكية مساجد خاصة بكل منها يدرس فيها المذهب الخاص بها ، وكان بها القضاة الذين يتبعون هذه المذاهب ، وكذلك كانت مدينة القرم فكان بها قاض للحنفية وآخر للشافعية (١٨٧) . وعلم الكلام والاعتزال كان رائجا فى خوارزم ، ولكن اهلها كانوا لا يظهرون ذلك خوفا من سلاطين المغول الذين كانوا يدينون بمذاهب السنة ويتعصبون لها (١٨٨) فالسلطان بركة خان كان سنيا مغاليا شديدا التمسك بمذهبه ، ولذلك سر كثيرا عندما علم بأن الظاهر بيبرس اقام اماما من آل العباس فى خلافة المسلمين ، فأحيا بذلك الخلافة العباسية السنية اننى كان هولاء قد قضى عليها (١٨٩) وكان السلطان أوزبك ونائبه فى مدينة خوارزم وغيرها يتبعون هذه السياسة ، وكانوا يؤيدون مذهب الحنفية (١٩٠) ، وهو أحد مذاهب السنة الأربعة كما هو معروف .

ولم ترج فى بلاد القفجاق المعرمة بالمذاهب الفقهية فقط بل نبغ كثير من ابنائها وعلمائها فى كثير من العلوم والمعارف الأخرى كالمعاني والبيان والمنطق والأصول والفلسفة والطب ، وكانوا يؤلفون فى هذه العلوم بالفارسية والتركية والعربية التى أقتنوها علماءهم وصاروا أئمة فيها (١٩١) . ومن عجب ان نرى اللغة العربية منتشرة الى حد ما فى هذه البلاد التى لا يتكلم اهلها الا بالتركية أو الفارسية أو المغولية ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لانتشار الاسلام فيها ، فأداء الشعائر الدينية وقراءة القرآن لا بد ان تؤدي الى تعلم اللغة العربية ، ومن ثم تعلم كثير من المغول هذه اللغة وقرأوا بها القرآن الكريم . وكان من عادة سلاطين وأمراء مغول القفجاق ان يتلى القرآن فى مجالسهم ، بل ويخطب الخطباء امامهم باللغة العربية ، ثم يترجم الخطباء ما يقولونه للسامعين بالتركية ، وكذلك الغناء كان يؤدى أيضا باللغة العربية والفارسية والتركية ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك كله . والجدير بالذكر أن

(١٨٧) المصدر السابق ، ص ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، الرمزي : نفس المرجع ج ٢ ص ٣٧ .

(١٨٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٠ .

(١٨٩) العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ٢١٨ أرنولد :

نفس المرجع ، ص ١٥٩ ، Howorth : op. cit., v. 2, p.105.

(١٩٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٠ .

(١٩١) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٧ — ٣٩ .

ابن بطوطة لم يشر اثناء زيارته لتلك البلاد الى وجود مترجمين بينه وبين من زارهم ، وما ذلك الا لوجود كثيرين يعرفون هذه اللغة ، وخاصة من العلماء والفقهاء الذين وفدوا الى هذه البلاد من ديار العرب والاسلام او من ابناء المغول الذين سبقت لهم الدراسة فى تلك الديار . وان دل ذلك على شىء فانما يدل على توطن الثقافة الاسلامية بين مغول القفجاق وغيرهم من سكان دولتهم ، وقد اتخذ هذا التوطن مراكز معينة انتشرت منها هذه الثقافة فى سائر أنحاء الدولة .

وقبل أن نتحدث عن هذه المراكز او هذه المدن التى ازدهرت فيها الثقافة الاسلامية نود ان نشير الى اننا لا نتفق مع ما ذكره سوندرز Saunders من أن دولة القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق لم تصبح ابدا دولة متحضرة لانها قامت فى منطقة رعوية صحراوية لم تعرف الا الأسواق ومحطات القوافل التجارية ولم تظهر فيها المدن الكبرى (١٩٢) . ذلك لأن ابن بطوطة وعرب شاه وغيرهما زاروا هذه البلاد وراوها رأى العين ووصفوا لنا حياة الناس وذكروا لنا ما رأوه من مدن . فابن بطوطة زار هذه البلاد واقام فيها بضعة شهور عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م اثناء حكم السلطان محمود اوزبك ، وعرب شاه زارها بعد ذلك بحوالى قرن واقام فى العاصمة سراى سنين عديدة وتزوج باحدى نسائها وولد له هناك اولاد ، وكلا الرجلين تركا لنا ما رأياه فى كتب لا تزال موجودة حتى الان . وقد اعطانا ابن بطوطة بالذات اسماء عديد من المدن التى زارها مثل مدن الكفا والقرم والماجر والحاج طرخان وأزاق وسرداق وخوارزم وسراى العاصمة (١٩٣) كما ذكر القلقشندي أن مملكة مغول القفجاق كانت تتكون من عشرة اقاليم ووصف لنا هذه الاقاليم وذكر ما تحتوى عليه من مدن (١٩٤) كما ذكر هورث Howorth المدن التى وردت عند ابن بطوطة والقلقشندي وأضاف اليها مدنا اخرى منها بلغارى الجديدة والقرم الجديدة وسراى الجديدة وسيراتشوك وأوردو وأوردو الجديدة ودربنند والشماقى وشبران وبأكو ومحمود اباد وكاس دراسان (١٩٥) . وقد ضرب

(192) Saunders : op. cit., p. 170.

(١٩٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٠ .

(١٩٤) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٥٣ — ٤٦٧ .

(195) History of the Mongols, v. 2, pp. 172, 258, 268.

مسلطين مغول القفجاق عملتهم فى هذه المدن التى ذكرها هؤلاء الكتاب الثلاثة، فهى مدن رئيسية وليست محطات للقوافل فقط ، كما يلاحظ ان منها ما يطلق عليه انه مدن جديدة مما يدل على مدى النهضة العمرانية والحضارية التى قامت أثناء حكم المغول لهذه البلاد .

اذن هناك مدن كثيرة حفلت بها دولة المغول فى بلاد القفجاق وقد تحول كثير من هذه المدن الى مراكز حضارية كبرى احتضنت الاسلام ورعت الثقافة الاسلامية اتم رعاية . وكانت مدينة سراى عاصمة الدولة من أحسن الأمثلة التى يمكن ان نضربها على ذلك . فقد وصفها لنا ابن بطوطة وقال انها كانت من أحسن المدن ، كبيرة المساحة كثيرة العمارة مزدهمة السكان ، حسنة الأسواق متسعة الشوارع (١٩٦) وأشار ابن بطوطة الى كثرة مساجدها العادية والجامعة والى تنوع سكانها وان أغلبهم كان من المغول ، واطلق عليهم انهم « أهل البلاد والسلاطين » وذكر بجانبهم طوائف أخرى غير اسلامية مثل الجركس والروس والروم ، وأشار الى ان كل طائفة منها كانت تسكن حيا خاصا بها فيه أسواقها ومتاجرها وأشار الى طوائف التجار الذين وردوا عليها من مصر وبلاد الشام وغيرها ، كما أشار الى كثرة فقهاءها ومشايخها وأشرفها ، والى فقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والى المدرسين والصوفية (١٩٧) . وقد أشار الى ذلك أيضا عرب شاه وقال انها كانت « مدينة اسلامية البنيان بديعة الأركان » ، وانها كانت من أعظم المدن وصفا وأكثرها للخلق جمعا ، وانها أصبحت فى عهد السلطان محمد أوزبك مجمع العلم ومعدن السعادات واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والأنبياء والظرفاء ومن كل صاحب فضيلة وخصلة نبيلة جميلة فى مدة قليلة ما لم يجتمع فى سواها » (١٩٨) . وأشار القلقشندي الى ذلك أيضا وقال ان قصر الملك بها كان يرتفع فوقه هلال ضخم مصنوع من الذهب الخالص زنته قنطاران ، وقال ان هذه المدينة كانت تزخر بالأسواق والحمامات وخانات التجار (١٩٩) . فهى

(١٩٦) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٧ .

(١٩٧) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(١٩٨) عجائب المقدور ، ص ٥٦ — ٥٧ ، الرمزي : نفس المرجع،

ج ١ ص ٤١١ .

(١٩٩) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٥٧ .

مدينة اسلامية النشأة والطابع لا تكاد تفرقها عن مدن الاسلام في البلاد الأخرى ، نهضت فيها الثقافة الاسلامية بمن وفد عليها من علماء سبقت الإشارة اليهم ، وبمن نبغ فيها من ابنائها حتى صارت كعبة للعلم ومحطة للثقافة والتجارة في نفس الوقت .

ومن المدن الأخرى التي كان لها نفس الطابع مدينة القرم . وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة وأشار الى ما فيها من زوايا كثيرة وقضاة للحنفية والشافعية وخطباء وفقهاء كثيرين منهم الشيخ زادة الخراساني الذي كان الناس هناك يأتون لزيارته ، ومنهم قاضي المدينة الأعظم الشيخ شمس الدين السائلي قاضي الحنفية ، والشيخ خضر قاضي الشافعية ، والفقيه المدرس علاء الدين الآصلي ، وخطيب الشافعية أبو بكر الذي كان يخطب بالمسجد الجامع الذي بناه الملك المنصور قلاوون على نفقته الخاصة بهذه المدينة عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ، والشيخ الحكيم الصالح مظهر الدين الذي كان من الروم وأسلم وحسن اسلامه ، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين ، وغيرهم كثيرون (٢٠٠) .

والقرم قبل ان تكون مدينة فهي اسم لاقليم كبير يشتمل نحواً من اربعين بلداً ، (٢٠١) وهذا الاقليم يعرف عادة باسم شبه جزيرة القرم ، وكان سكانه من المغول مسلمين سنيين على حظ كبير من الثقافة والعلم ، فقد وجدت لديهم مدارس في كل المدن التي حواها هذا الاقليم (٢٠٢) مثل مدينة بركوب (أوركابى) ومدينة جوسليف وأكمجد (سيمفروبول الآن) ، ومدينة صلفات وباخشى سراى التي كانت تحتوى على عدد كبير من المساجد الرائعة التي كانت لا تقل عن واحد وثلاثين مسجداً عندما زارها بالاس Ballas عام ١١٨٢هـ/١٧٦٨م ، وكان معظمها مبنى بالحجارة ومحاطة بمآذن جميلة كما وجد في هذه المدينة أيضاً ثلاث مدارس اسلامية بالاضافة الى الحمامات والخانات وكنيسة اغريقية واخرى ارمنية وثلاث معابد يهودية . وقد ظل اسم

(٢٠٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٥ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١٠ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(٢٠١) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٥٩ .
(٢٠٢) Howorth : op. cit., v. 2, p. 609. (202)

هذه المدينة يتردد حتى حكم خانية القرم اسلام جيراى الثانى (١٩٢٠ - ١٩٩٧هـ/
١٥٨٤ - ١٥٨٨م) (٢٠٣) .

ومن المراكز الثقافية الأخرى التى أزدانت بها شبه جزيرة القرم مدينة
يسمىها المغول سوداق أو سوداق وتسميها العامة سرداق أو سردق ،
وتسمى الآن سولدايا Soldaia . وكانت هذه المدينة من أهم الموانئ فى
شبه الجزيرة ومرساها من أعظم المراسى واحسنها ، ولذلك كانت مقصدا
للتجار يأتون إليها وينزلون بها من شتى انحاء العالم (٢٠٤) . وقد استولى
عليها المغول عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م ثم طردوا من بها من المسيحيين فى بداية
القرن السابع عشر للميلاد (٢٠٥) ، ولعل ذلك يعود الى ما كان يقوم به هؤلاء
المسيحيون من فتن اثار الى بعضها ابن بطوطة ، ولكن السلطان اوزبك
سمح لهم بالعودة الى مدينتهم عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ، كما تكاثرت بها الجنويون
وسيطروا عليها عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، مما أدى الى ازدياد نفوذ النصرانية
بها حتى ضاق الأتراك ذرعا بذلك واستولوا عليها عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م وحولوا
كنائسها لأول مرة الى مساجد وظلت كذلك حتى أتى الاحتلال الروسى لشبه
جزيرة القرم فتبدلت الأوضاع فيها لصالح النصرانية ، وغلب الطابع المسيحى
عليها منذ ذلك الحين (٢٠٦) .

ومن مراكز الثقافة الاسلامية الزاهرة مدينة ازاق ، وكان شعبها
يسمى شعب الأزق ، وكانت تقع على شمل بحر القرم (بحر أزوف الآن) ،
ولذلك كانت مدينة تجارية من الطراز الأول ، قصدها التجار من كل مكان
مسلمين ونصارى ، فازدادت ثروتها وكثرت زواياها ، وقد سبقت الإشارة
الى مدى الازدهار الثقافى والدينى الذى حظيت به هذه المدينة فى ظل

(٢٠٣) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٥٩ ،

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 609-610.

(٢٠٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٩ ، القلقشندى : نفس

المصدر ، ج ٤ ص ٤٦٠ ، Howorth : op. cit., v. 2, p. 622.

(205) Ibid, v. 2, p. 623.

(٢٠٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، ٢٢٩ ، القلقشندى ،

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 623, 624.

ج ٤ ص ٤٦٠ ،

حاكمها محمد خواجه الخوارزمي الذي خرج لاستقبال ابن بطوطة في وفد كبير من الطلبة والفقهاء والقضاة ، وما تبع ذلك من حفلات دينية قرىء فيها القرآن والقيت الخطب باللغات العربية والفارسية (٢٠٧) والتركية .

وبين مدينة أزاق ومدينة سراي وعلى نهر (تان) الذي يصب في البحر الأسود بين نهري الدون (الطونة) وجبال القوقاز ، كانت هناك مدينة تسمى مدينة الماجر (٢٠٨) التي كانت تقع في الجنوب الغربي من مدينة الحاج طرخان . وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة في عهد السلطان محمد أوزبك خان ووصف لنا ما كانت تزخر به من حياة اسلامية تتمثل في كثرة زواياها وحقائها وفي وجود كثير من الصوفية الرفاعية بها ، وأشار إلى ما كان

(٢٠٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦١ ، ٤٦٨ .

(٢٠٨) المجر خليط من المغول والفن والباشقرد والترك ، وكانوا يسكنون قرب جبال الأورال ثم سكنوا في شرقي كييف في القرن التاسع للميلاد . ولما ضيق عليهم الروس الخناق هاجروا جنوبا إلى صحراء حاجي طرخان حيث أقاموا لهم مدينة سميت بمدينة الماجر التي نتحدث عنها الآن ، ولما فتح المغول تلك البلاد أصبح الماجر في طاعتهم ، ولما قام تيمورلنك بغزو بلاد القفجاق خرب مدينة الماجر عام ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م ففر كثير من أهلها غربا واستوطنوا نهر الطونة وعبر بعضهم نهر الدنيبر واستقروا في هنغاريا وبلاد المجر الحالية عند أخوانهم الذين كانوا يسكنون فيها من قديم . وكان الماجر من عبدة الأوثان والنار ، ولما استقر الاسلام في دولة مغول القفجاق أصبحت مدينة الماجر تزخر بالحياة الاسلامية ، مما يفهم منه ان معظم سكانها ان لم يكونوا كلهم قد اعتنقوا الاسلام ، ولما هاجر فريق منهم الى بلاد المجر الحالية اثر غزو تيمورلنك كما سبق القول كان هؤلاء المهاجرون من الماجر على دين الاسلام فنشروه في مهجرهم الجديد ، ولا يزال الاسلام منتشرا بين حوالى ٢٠٪ من سكان جمهورية المجر الحالية ، وان كان هؤلاء المسلمون يتعرضون لاضطهاد شديد في هذه الأيام ، لتغيير دينهم واجبارهم على استبدال اسمائهم بأسماء أخرى غير اسلامية .

انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٦٨ ، الرمزي : تلفيق الأخبار ، ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، جريدة « المسلمون » ، العدد ٤٣ ص ١٧ .

يتصف به اهل هذه المدينة من حب لهؤلاء الصوفية حيث كانوا يهبونهم الكثير من الخيل والبقر والغنم ، كما كان السلطان نفسه والخواتين يأتون لزيارتهم والتبرك بهم ويجزلون العطاء لهم . وقد اثار ابن بطوطة الى ما كان يمتاز به اهل هذه المدينة من حب للخير ومساعدة للغرباء وخاصة للذين يتهياون للسفر منهم (٢٠٩) .

ومن مراكز الثقافة الاسلامية الاخرى مدينة الحاج طرخان التى كانت تقع قرب مصب نهر اتل (الفولجا) فى بحر الخزر (قزوين) ، وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة ، وكانت محلة السلطان محمد اوزبك خان وخواتينه قد انتقلت اليها ، ولكن ابن بطوطة لم يترك لنا وصفا لمظاهر الحياة الاسلامية بهذه المدينة ، وكان ما صرفه عن ذلك رغبته فى زيارة القسطنطينية فى صحبة الخاتون بيلون زوجة السلطان محمد اوزبك وابنة امبراطور القسطنطينية حيث كانت قد ابدت رغبتها فى زيارة ابيها لتضع حملها عنده ، فاذن لها السلطان بالسفر وانتهر ابن بطوطة هذه الفرصة وسافر معها وفى حمايتها الى القسطنطينية (٢١٠) .

ومع ذلك فقد كانت مدينة الحاج طرخان تحتل مكانة كبيرة فى دولة القبيلة الذهبية حيث كان ينزل بها السلاطين فى فصل الشتاء ولذلك طغت عليها مظاهر الحياة الاسلامية ، وخاصة فى عهد السلطان محمد اوزبك الذى كان قد قصر جهده على نشر الاسلام فى شتى انحاء دولته الواسعة . وقد تحولت هذه المدينة وما يحيط بها من مدن ونواحي الى خانية تتمتع بالحكم الذاتى اثناء ضعف دولة القبيلة الذهبية ومستقلة تماما بعد ان سقطت تلك الدولة نهائيا عام ٩٠٧هـ / ١٥٠٢م ، وظلت كذلك حتى سقطت فى يد الروس عام ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م (٢١١) .

(٢٠٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٢١٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢١١) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣ — ٩ .

ومن مراكز الثقافة الاسلامية ذات الاهمية الكبرى مدينة بلغار (٢١٢) .
وقد سبق الحديث عنها وعن قدم الاسلام بها وأن ذلك يعود الى القرن الرابع
للهجرة / العاشر للميلاد ، وعن انها كانت اشهر مدينة فى دولة القبيلة
الذهبية بعد عاصمتها سراى . وقد زارها ابن بطوطة فى شهر رمضان عام
٧٢٦هـ / ١٣٢٥م وصلى مع أهلها صلاة المغرب والعشاء والتراويح ، وأشار
الى قصر الليل بها ، واقام بها ثلاثة ايام (٢١٣) ، وأشار القلقشندى الى ان
اهلها كانوا مسلمين على المذهب الحنفى (٢١٤) ، وأشار غيره الى انهم كانوا
خليطا من المغول والبلغار ، والى ان بلادهم اصبحت موثلا للاسلام وعلمائه
وعلموه ، بعد ان اصبحت تلك البلاد داخلة ضمن دولة مغول القفجاق ذات
الصلات الوثيقة بمصر وبالإخلافة العباسية سواء فى بغداد ام فى القاهرة .
فقد كانت بلاد البلغار قبل غزو المغول لها بلادا نائية منقطعة عن العالم
الاسلامى (٢١٥) ، اما بعد هذا الغزو وبعد اسلام مغول القفجاق فقد توافد
عليها علماء المسلمين من بخارى وايران ومصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى ،
كما ان علماء البلغار وطلابها كانوا يذهبون الى تلك البلاد ايضا للاستزادة
من علوم الاسلام وثقافته ولغته ، ولذلك ظهر بينهم عدد كبير من العلماء ،
نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر القطب الكبير الخواجة صلاح الدين بن
عمر البلغارى الذى كان مريدا للشيخ الصوفى الكبير نجم الدين الكبرا ، صاحب
الطريقة الكبراوية . وكان القفجاق قد أسروه وهو ابن ثلاث وعشرين عاما ،
واقام بينهم سبع سنين ، وتصوف ولقى مشايخ الصوفية هناك وسكن مدينة
بلغار تسع سنين ، ثم رحل الى بخارى وكerman ومراغة ، ودخل فى سلك
دعوته فى بخارى عدد كبير من المريدين ، منهم الشيخ عمر الباغستانى جسد
الخواجة عبيد الله أحرار الصوفى الكبير المشهور ، وظل الشيخ حسن
البلغارى يجمع حوله المريدين والاتباع حتى توفى فى تبريز عام ٦٩٨هـ
/ ١٢٩٨م (٢١٦) .

(٢١٢) أنظر ما سبق ان ذكرناه عن البلغار واسلامهم ، ص ١٠٧ —

- (٢١٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٥ هـ
(٢١٤) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦٢ .
(٢١٥) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣١٦ .
(٢١٦) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

وهناك أيضا باشقرد ناصر الدين الناصرى الذى وفد الى مصر وصار مهاوكا لأحد سلاطينها ووصل فيها الى مرتبة الأمراء ، ونال قدرا كبيرا من الثقافة الاسلامية واتقن اللغة العربية ، وظل عشرين عاما لا يتكلم بالتركية حرصا منه على اتقان العربية ، وقد رحل الى دمشق ومات بها عام ٧٥٢هـ / ١٣٥١م . وقد أثنى عليه كثير من علماء الاسلام فى عصره (٢١٧) .

وهناك علماء بلغاريون آخرون مثل الشيخ برهان الدين ابراهيم بن خضر البلغارى صاحب كتاب أصول الحسامى الذى انتهى من تأليفه عام ٧٥١هـ / ١٣٥٠م ، والشيخ ابو محمد صدر الدين بن علاء الدين البلغارى الذى كتب اجازة لأحد تلاميذه عام ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م ، والشيخ محمد البلغارى الذى قال عنه صاحب كشف الظنون أنه خزينة العلماء وزينة الفقهاء (٢١٨) . وغير هؤلاء كثيرون لم نذكر اسماءهم نظرا لأنهم عاشوا فى بلغار قبل الغزو المغولى لها ، مما يدل على توطن الاسلام بهذه البلاد التى كان لها دور كبير فى مساعدة سلاطين مغول القفجاق فى نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى أرجاء دولتهم الواسعة الأرجاء .

ومن المظاهر الأخرى الدالة على عمق العقيدة الاسلامية عند مغول القفجاق وعلى عظيم انفعالهم بالحياة الاسلامية هو قيامهم بواجب الجهاد سواء للدفاع عن بلادهم او فى مهاجمة البلاد التى كانت تتربص بهذه البلاد سواء من الصليبيين أم من المغول الوثنيين فى ايران ، او لفتح بعض البلاد الأخرى وضمها الى حوزتهم ونشر الاسلام بها مثلما حدث فى سيبيريا وآسية الوسطى وجنوب روسيا ، او لمساندة وقفة الاسلام فى مصر والشام سواء ضد الصليبيين أو ضد مغول ايران الوثنيين .

وكان سلاطين مغول القفجاق على علم بالتحالف الذى تم بين مغول ايران الذين لم يكونوا قد تحولوا الى الاسلام بعد ، وبين الصليبيين سواء فى بلاد الشام وأرمينيا وجورجيا ام فى اوربا . وكان هدف هذا التحالف ضرب المسلمين فى بلاد الشام ومصر ، والفصل بين سراى والقاهرة حتى لا يلتقيا فى خندق واحد ضد هذا الحلف غير المقدس . وقد رد السلطان بركة على

(٢١٧) المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٢١٨) المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ذلك بالتحالف مع مصر وبضرب الصليبيين فى أوربا الشرقية ، وبارسال الحملات التى توغلت فيها حتى وصلت الى بولندا والمجر ، حتى ينشغل أهل تلك البلاد عن تدعيم اخوانهم من الصليبيين فى بلاد الشام والذين كان الظاهر ببرز يدير ضدهم معارك طاحنة ناجحة ، كما شن بركة خان هجمات على مغول ايران حتى يشغلهم عن بلاد الشام فلا يتعرضوا لها (٢١٩) ، وبذلك أمكن ضرب التحالف المغولى الايرانى الصليبي ضربة قاصمة ، وتم انقاذ الاسلام فى بلاد الشام .

ولا يهمنى هنا أن نذكر تفاصيل تلك الحملات التى قام بها بركة سواء فى أوربا او ضد ايران ، او تفاصيل علاقاته مع مصر ، بقدر ما يهمنى إبراز الطابع الاسلامى والتأثير الذى نتج عن هذه الحملات او تلك العلاقات من حيث نشر الاسلام والثقافة الاسلامية بين مغول القفجاق وتدعيم روح الاخوة الاسلامية بينهم وبين مصر .

ومنذ البداية فقد برز الانفعال بالاسلام وتقاليده بشكل بارز عند بركة خان سلطان مغول القفجاق وعندما قام ابن عمه هولكو ايلخان مغول ايران بغزو بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وقتل خليفة المسلمين المستعصم بالله العباسي ، وقتل أهل بيته وآلآفا من المسلمين علمائهم ومفتيائهم وعامتهم . وكان غضب بركة خان لهذا الحادث الاليم الذى راح بالخلافة العباسية هائلا وشديدا ، ونتج عنه ان ساءت العلاقات بينه وبين هولكو ، وتوعده بالحرب والقتال انتقاما لما حدث ببغداد كعبة الاسلام ولخليفة المسلمين (٢٢٠) .

(٢١٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٥٤ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٢٢ .

(٢٢٠) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١ ص ٣٣٢ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١٠ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٢٢ ، Saunders : op. cit., p. 156. Howorth : op. cit., v. 2, p. 1012.

وللوقوف على اسباب العداء العديدة بين مغول القفجاق ومغول ايران ، وعلى تفاصيل العلاقات بين القاهرة وسراى ، انظر : فايد حماد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٠٥ — ٢١٨ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٢ .

وفى نفس الوقت كان الظاهر بيبرس سلطان المماليك فى مصر والشام .
قد سمع باسلام بركة خان ، وسمع بغضبه على هولاءكو ، فأرسل له عام
١٢٦١هـ/١٢٥٩م يحرضه على جهاده والتصدى له ، ويهون له من أمره ،
ويعرفه بأن ذلك واجب عليه لتواتر الأخبار باسلامه الذى يفرض عليه ضرورة
مجاهدة الكفار من أمثال هولاءكو (٢٢١) . واستجاب بركة خان لهذا النداء
خاصة بعد أن علم بأطماع هولاءكو فى بلاده ، ورأى مؤامرة بعض الأمراء الذين
أغضبهم اسلامه (٢٢٢) ، فقام بركة باتخاذ الخطوات العملية لمواجهة هذا
الغزو الوثنى لبلاده وبلاد الشام ، فأرسل الى فرقته التى كانت ضمن
جيش هولاءكو يأمرها بالعودة الى سراى أو الذهاب الى مصر ، فسار جند
هذه الفرقة الى مصر واستقبلهم الظاهر بيبرس عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م بكل
مظاهر الحفاوة والتكريم ، وأقنعهم بصحة الدين الاسلامى ، فاعتنقوا
وأسلموا وحسن اسلامهم ، وبلغ المغول ما ناله اخوانهم فى مصر من الاحسان
والانعام ، فتواهد بعضهم عليها جماعة اثر جماعة ، حيث طابت لهم الحياة
واعتنقوا الاسلام كاخوانهم من قبل (٢٢٣) .

وقد ساعد على ذلك أنهم وجدوا حكام مصر من نفس أصلهم ونفس
جنسهم ، حيث كان الظاهر بيبرس ومماليكه من أصل تغجائى ، وهكذا تعاون
الملكان : بركة فى بلاد القفجاق ، والظاهر بيبرس فى مصر ، على تحويل من
يتولون حكمهم من المغول الى الاسلام (٢٢٤) ، فهما اذن يسيران فى طريق

(١٢١) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٨ ورقة ١٧ ، ٣٠ المقيزى :
السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٥ ، العينى : نفس المصدر ج ٢٢ ورقة ١٦٣ .

(٢٢٢) ارنولد : نفس المرجع ص ٢٧١ ،
Saunders : op. cit., p. 156.

(٢٢٣) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٨ ورقة ١٧ ، ٢٥ ، ٢٦ : العينى
نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٢٢١ ، المقيزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٧٣ ،
٤٧٤ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
Saunders : op. cit., p. 117.

(٢٢٤) أبو القدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٩ ، ١١ ، الديار بكى :
نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٧٨ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ٧
ص ٩٤ .

واحد وهو العمل على تدعيم وقفه الاسلام ضد هجمات الصليبيين والمغول يتدعيم الحركة الاسلامية ذاتها ويتميم العلاقات الشخصية والدولية بينهما ، وقد نالت هذه العلاقات دفعة قوية حينما ارتبط الملك برباط المصاهرة ، حيث تزوج الظاهر بيبرس من ابنة بركة وأنجب منها ابنا سماه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان على اسم جده خان القفجاق (٢٢٥) ، كما ارسل بركة اولاده الى مصر لينهلوا من ثقافتها الاسلامية كما سبق القول ، وتردد التجار والعلماء بين القاهرة وسراى ، وتم التحالف بين البلدين ، مما قوى من عزيمة السلطان بركة فى مهاجمة هولاكو الذى كان قد تحالف فى نفس الوقت مع صليبيى اوربا وبلاد الشام ، وملوك ارمينيا وجورجيا المسيحيين ضد مغول القفجاق وضد مصر ، واشتعلت نيران الحرب بين بركة وهولاكو عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، وانزل هو وقائده نوغاي بقوات هولاكو هزيمة ساحقة على ضفاف نهر ترك Terek (٢٢٦) ، وارسل بركة الى الظاهر بيبرس فى مستهل شهر رجب عام ٦٦١هـ / مايو ١٢٦٣م رسالة يقول فيها « فليعلم السلطان اننى حاربت هلاوون (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لاعلاء كلمة الله تغضبا لدين الاسلام ، وانه باغ والباغى كافر بالله ورسوله » (٢٢٧) ، كما ارسل له رسالة اخرى فى ذى القعدة من نفس العام يحثه فيها على مساعدته ضد هولاكو لاعتدائه على المسلمين ، ويلتمس منه ارسال جيش الى الفرات لقطع طريق الرجعة على هولاكو ، ولحاصرته من الشمال والجنوب (٢٢٨) .

(٢٢٥) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٦٤١ بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٨ ،
Saunders : op. cit., p. 170.
Howorth : op. cit., v. 2, p. 125.

(٢٢٦) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ١ ص ٢٣٤ ، ابو شامة ص ٢٢٠ ، النويرى : نفس المصدر ج ٢٨ ورقة ٣١ ، الديار بكري : نفس المصدر ج ٢ ص ٣٧٩ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٢ ، ٩٣ ،
Saunders : op. cit., 156.

(٢٢٧) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٨ ورقة ٣١ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٢١٩ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٩٥ .
(٢٢٨) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٨ ورقة ٢٥ ، ٣١ ، الديار بكري : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٧٩ .

Saunders : op. cit., pp. 117, 156 ; Howorth : op. cit., v. 2, 118.

وقد استجاب الظاهر بيبرس لمطالب بركة التي كانت تتفق وسياسة مصر في رد عادية مغول ايران عن بلاد الشام ، فجهز الجيوش وأرسلها الى تلك البلاد لهذا الغرض ، وزاد على ذلك بأن أمر بالدعاء لسلطان بركة على المنابر في مكة والمدينة وبمصر والقاهرة بعد الدعاء للظاهر بيبرس ، كما أشاد الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله بالسلطان بركة ودعا له بنفسه في خطبة صلاة الجمعة (٢٢٩) مما قوى من شأن بركة في نفوس شعبه وفي صراعه ضد مغول ايران .

ولا شك ان هذه الرسائل وتلك العلاقات المتينة التي ربطت بين القاهرة وسراى لتدل دلالة مؤكدة على عمق العقيدة الاسلامية في نفس السلطان بركة وعلى مدى انفعاله بالتقاليد الاسلامية ، وعلى مدى ما نفخه انتصار بركة في موقعة تريك وانتصار المماليك على هولاء في موقعة عين جالوت في الاسلام من روح جديدة وقوى من شأن الجبهة الاسلامية المتصدية لهولاء في مصر والشام ، فقد استحوذت تلك الهجمات التي شنّها بركة انتباه هولاء وصرفت عن الهجوم على بلاد الشام ، كما سهلت لمصر طريق الحصول على الرقيق التركي عبر البحر الاسود (٢٣٠) ، مما مكنها من مواصلة مقاومتها لأعدائها وأعداء الاسلام من الصليبيين ومغول ايران الذين كانوا على الوثنية في ذلك الحين (٢٣١) ، كما قوت انتصارات بركة وبيبرس على هولاء من شأن الحركة الاسلامية بين مغول التفجاق أنفسهم واصبح لمصر تأثير كبير في بلاط سراى ، ووصل تجارها وفتهاؤها ومهندسيها المعماريون الى سراى وظل توافدهم مستمرا لاحظه ابن بطوطة بنفسه عند زيارته لسراى عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ، وفي اشارة خاطفة منه تدل على ذلك كله. يلتفت نظرنا الى قيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بتعمير المسجد الجامع بمدينة القرم على نفقته الخاصة ، والى انتشار المذهب الشافعي في سراى.

(٢٢٩) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٩٥ — ٤٩٨ .

(٢٣٠) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ — ٤٣١ ،
Saunders : op. cit., p. 159.

(٢٣١) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٣ ،
ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ ص ١١٤ ١١٥ ،
Saunders : op. cit., p. 159.

وباقى مدن المملكة (٢٣٢) . وهذا المذهب لا بد وانه واصل الى تلك البلاد من مصر ، فهى المهد الذى ترعرع فيه هذا المذهب وانتشر منه الى الشرق والغرب .

اذن دور مصر واضح فى دعم الحركة الاسلامية بين مغول القفجاق ، وظل هذا الدور يذكر لها طوال حكم المغول لبلاد القفجاق وظل زعماء البلدين مغولا ومماليك يجاهدون اعداء الاسلام سواء بالتصدي لمغول ايران ام بالتصدي والهجوم احيانا على الدولة النصرانية سواء فى الشرق او الغرب ، وخاصة فى عصر السلطان محمد اوزبك خان (٧١٢ — ٧٤٢هـ / ١٣١٣ — ١٣٤٢م) ، وهو السلطان الذى بلغت الحركة الاسلامية فى عهده قمة الازدهار والقوة والنمو .

غير ان تغير الأوضاع على المسرح السياسى فى منطقة الشرق الأدنى ادى الى تغيير فى اتجاهات سياسة اوزبك وسلاطين مصر بعض الشيء ، فقد ظهرت على المسرح وقتذاك قوة سوف يكون لها شأن كبير ، وهى قوة الترك العثمانيين الذين اقاموا دولة لهم منذ بداية القرن الرابع عشر للميلاد فى آسيا الصغرى ، ووقفت هذه الدولة حاجزا بين فعالية الاتصال بين سراى والقاهرة (٢٣٣) ، كما أصبحت خطرا يهدد كلا من القسطنطينية ومغول القفجاق ومغول ايران ، ومن ثم حاول اباطرة القسطنطينية ان يوطدوا علاقاتهم بمغول القفجاق ، كما حاول مغول ايران ان يحسبوا علاقاتهم العدائية بمصر والشام الى علاقات طيبة ودية ، ولذلك تأثر تحالف مغول القفجاق بمصر ، ولم يستجب سلاطين مصر لمطالب اوزبك فى التصدي لايخانات ايران (٢٣٤) . اما فى بقية نواحي العلاقات بين القاهرة وسراى فقد ظلت كما هى ، بل زادت توثقا وقوة ، ودلت على استمرار مظاهر الأخوة الاسلامية التى ربطت بين البلدين حتى قال فى ذلك احد الكتاب المعاصرين العظام انه « ما زال بين ملوك هذه المملكة — يقصد مملكة مغول القفجاق —

(٢٣٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٣٨ ،

٢٤٢ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨ ،

Howorth : op. cit., v. 2, p. 105.

(233) Saunders : op. cit., p. 165.

(٢٣٤) فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢١٦ .

وبين ملوكنا — يقصد ملوك مصر من سلاطين المماليك — قديم اتحاد وصدق.
وداد من أول أيام الظاهر بيبرس وإلى آخر وقت (٢٣٥) » .

وقد ظهر الوداد وذلك الاتحاد في شكل داوم المصاهرات التي ربطت.
بين السلطان محمد أوزبك خان وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقد تزوج الأخير من أميرة مغولية هي الخاتون دلنبية بنت طغاي بن هندو بن ياطو بن جوجي بن جنكيز خان عام ٧١٩هـ/١٣١٩م (٢٣٦) كما وصلت بعد ذلك بعشرين عاما رسل (٢٣٧) الملك أوزبك إلى مصر تطلب مصاهرة سلطان مصر (٢٣٨) ، فالمصاهرات متبادلة والمصالح قائمة ، والتجار مترددون هنا وهناك ، والعلماء وطلاب العلم يعقدون أوامر الصلات بين البلدين (٢٣٩) ، وينشرون الإسلام بين مغول القفجاق ، ولذلك لا غرابة إذا ما رأينا رسالة تخرج من سراي يرسلها السلطان محمد أوزبك لسلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون يخبره فيها في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م بانتشار الإسلام في بلاد القفجاق ، وبامتداد هذا الانتشار إلى حدود الصين ويهنئه على ذلك (٢٤٠) . وتهنئة.

(٢٣٥) العمري : التعريف : ص ٤٧ ، القلقشندي : نفس المصدر ،
ج ٤ ص ٤٥١ .

(٢٣٥) العمري : نفس المصدر ، ص ٤٧ ، ابن الوردي : نفس المصدر ،
ج ٢ ص ٢٦٩ أبو المحاسن : ج ١٠ ص ٧٤ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١
ص ٥٢٠ ،

Saunders : op. cit., p. 164.
Howorth : op. cit., v. 2, p. 150.

(٢٣٧) للوقوف على تفاصيل المراسلات التي تمت بين أوزبك والناصر
محمد ، أنظر : فايد حماد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢١٣ — ٢١٦ ،
الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥١٢ — ٥٣٧ .

(٢٣٨) المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ق ٢ ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢٣٩) أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦٨ ، ابن بطوطة : نفس
المصدر ، ص ٢٣٨ ، الرمزي : نفس المرجع ج ٢ ص ٣٣ — ٣٨ ، ٤٧ — ٤٩ ،
Saunders : op. cit., p. 170.

(٢٤٠) العمري : التعريف ، ص ٤٧ ، ابن الوردي : نفس المصدر ،
ج ١ ص ٢٦٩ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٢٠ .

«الناصر بذلك لا تحتاج الى تعايق ، وتدل دلالة كافية على مدى صدق الرابطة التى ربطت بين سراى والقاهرة ، وعلى مدى عمق روح الأخوة الاسلامية وعمق العاطفة الدينية التى تغلغت فى نفوس وقلوب مغول القفجاق . ولا يشوب هذا الأمر تلك العلاقة التى ربطت بعض سلاطين مغول القفجاق بدول أوروبا المسيحية فى فترات معينة . فقد اجبرت الظروف السياسية التى اثرنا اليها السلطان محمد اوزبك على سبيل المثال الى اقامة علاقات تجارية نشطة مع أوروبا ، وقد تخلل هذه العلاقات نوع من التساهل نحو التبشير المسيحى فى بلاده ونحو الكنيسة الروسية التى كانت تدين له بالطاعة . فقد أصدر فرمانا لمطرانها بطرس عام ٧١٣هـ / ١٣١٣م يحذر فيه رعاياه وامراء دولته من الحاق اى اذى برجال تلك الكنيسة او الاعتداء على اموالها او خدامها ، وان توفر الحرية التامة لاقامة الشعائر الدينية للمسيحيين فى بلاده دون ان يتعرض لهم احد بسوء ، كما سمح للبابا بندكت الثانى والعشرين بالتبشير بالمسيحية فى البلاد التى تقع على البحر الاسود (٢٤١) .

وقد نتج عن ذلك ان ازداد الوجود النصرانى فى تلك البلاد وبنيت الكنائس وتكاثف نشاطات تجار جنوة وغيرها هناك حتى صاروا اغلبيية السكان فى بعض مدن شبه جزيرة القرم . وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك فى مدينة الكفا ورآه فيها قرع النواقيس الكثيرة ، وعندما امر المؤذن بالاذان وتلاوة القرآن من فوق صومعة المسجد الوحيد بتلك المدينة ، خاف عليهم امامها من بطش سكانها المسيحيين وأسرع اليهم فى درعه وسلاحه (٢٤٢) ، مما يدل على قوة التواجد المسيحى فى تلك المدينة .

ولذلك ليس غريبا ان نسمع ان البابا يوحنا الثانى والعشرين قد ارسل رسالة الى السلطان محمد اوزبك يشكره فيها على عطفه الذى أظهره للمسيحيين ، ولحايمته للبعثات الكاثوليكية التى قدمت الى بلاده تبشر بالمسيحية ، وقدم مبعوث خاص من هذا البابا الى سراى عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م

(٢٤١) باسيلوس خرياوى : نفس المرجع ، ص ٧٣ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ ،
Howorth : op. cit., v. 2, pp. 154, 156, 170-171.

(٢٤٢) ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢١٤ .

جهدية بابوية قيمة لهذا السلطان (٢٤٣) وليس غريبا أيضا ان نرى هذا السلطان يحاول ان يقيم نوعا من التوازن السياسى فى شبه جزيرة آسيا الصغرى التى تطل على دولته من ناحية الجنوب والتى كانت قد أصبحت مجالا للتنافس بين دولة الترك العثمانيين الفتية وبين الامبراطورية البيزنطية المتداعية ، وكان السلطان محمد أوزبك لا يرضى ان ينال من قوة دولة الترك العثمانيين لاشتراكه معها فى الدين والجنس (٢٤٤) ، ولا يحاول ان يرهب بيزنطة التى أظهرت له المودة وصاهرته ودفعت له « قطيعة مال مقرر » ، وجهلة مال مقدرة « (٢٤٥) .

ولكن هذه العلاقة الطيبة التى ربطت أوزبك بالغرب وبيزنطة لم تمنعه من واجب الجهاد ضد من يتعرض لدولته بسوء ، اذ يخبرنا ابن خلدون بأن هذا السلطان ارسل الى الناصر محمد بن قلاوون يطلب مساعدته ومساندته فى جهاده للارمن المسيحيين (٢٤٦) . ولا شك ان هؤلاء الارمن كانوا ضالعين فى التحرشات التى كان يقوم بها مغول ايران ضد مغول القفجاق فى منطقة الحدود المشتركة بينهما والتى تتمثل فى بلاد القوقاز (٢٤٧) ، مما دعا السلطان أوزبك وسلاطين مصر الى القيام بغزو الارمن واخضاعهم أكثر من مرة (٢٤٨) .

وقد سار سلاطين مغول القفجاق بعد أوزبك خان على نفس هذه السياسة التى كانت تأخذ بعين الاعتبار الأوضاع السياسية الناشئة فى

(243) Saunders : op. cit., p. 165 ; Howorth : op. cit., v. 2, p. 156.

(244) Saunders : op. cit., p. 165.

(٢٤٥) العمري : التعريف ، ص ٥٢ ، ابن بطوطة ، نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .

Saunders : op. cit., p. 164.

(٢٤٦) العبر ، ج ٥ ص ٩٢٦ ، ١١٣٩ ، ١١٦٥ .

(247) Saunders : op. cit., p. 165 ; Howorth : op. cit., v. 2, p. 171..

(٢٤٨) ابن ابيك الدوادارى : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٣٩٧ — ٣٩٩ ابن

خلدون : نفس المصدر ج ٥ ص ١١٤٠ ، ١١٦٥ .

المنطقة ، وفى نفس الوقت تحرص على تدعيم روابط الأخوة الاسلامية بمصر وغيرها من القوى الاسلامية المجاورة ، وتقوم بواجب الجهاد اذا ما دعت الضرورة لذلك .

مما سبق يتبين لنا أن مغول القفجاق قد اسلموا وحسن اسلامهم وانهم انفعلووا بالتقاليد الاسلامية سواء فى الحرص على اداء الشعائر الدينية والعبادات الاسلامية ، أم فى جلب الثقافة الاسلامية والعمل على توطئتها وتدعيمها بانشاء المساجد والمدارس والزوايا وتشجيع العلماء واستقدامهم واجزال العطاء لهم ، وايفاد الطلاب الى مصر وغيرها ، وقد برزت الاتجاهات الاسلامية أيضا فى مظاهر حياتهم المختلفة وفى الاتصال بالقوى الاسلامية وخاصة مصر والتحالف معها ضد غارات مغول ايران الذين كانوا لا زالوا على الوثنية حتى قرب نهاية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر للميلاد ، او ضد غارات الصليبيين الذين كانت بقاياهم لا زالت تابعة فى بعض نواحي بلاد الشام والى كانت تدعمها أوروبا بالغارات على بلاد الشام ومصر بين الحين والآخر . وهكذا انتصر الاسلام فى احدى معاركه العظمى ضد وثنية مغول القفجاق فاحتواهم وظوعهم للدفاع عن قضيتهم التى ما زالت غير محسومة حتى الآن باستمرار الصراع بينه وبين الصليبية من ناحية وبين أعدائه الجدد من الشيوعية والصهيونية من ناحية اخرى .

الفصل الرابع

تحول مغول ايران الى الاسلام

فى حديثنا عن هذا الموضوع سوف نتبع الأسس السابقة التى اتبعناها
تلى حديثنا عن تحول مغول بلاد القفجاق الى الاسلام ، وهى أننا سوف نقسم
حديثنا هذا الى ثلاث نقاط : النقطة الأولى هى مرحلة الحكم الوثنى المغولى
لايلخانية ايران ، وهى ما يمكن ان نسميها مرحلة التمهيد والتهيئة لانتشار
الاسلام بين مغول هذه الايلخانية ، وفى هذه المرحلة سوف يظهر الصراع بين
الاسلام من ناحية وبين البوذية والمسيحية من ناحية أخرى ، وسوف نرى
ذلك منعكسا على العلاقات بين المغول انفسهم وعلى الصراع على السلطة
ففى احد الايلخانات يعتقد الاسلام ونرى باقئهم يثقون على دياناتهم الشامانية
او البوذية ويميلون الى المسيحية فى بعض الأحيان ويتحالفون مع اوربا
المسيحية ومع ملوك الشرق المسيحيين وصليبيين بلاد الشام ، ويدور الصراع
بين الاسلام وبين هذا الحلف المغول الوثنى المسيحى ، ولم يستطع الاسلام
ان ينل قدرا كبيرا من النجاح فى هذه المرحلة ، غير انه اعد اذهان
المغول لاستقباله واعتناقه ، فنرى بعض الايلخانات الذى لم يعتنقوه اصلا
يعملون على مداراة المسلمين والتودد اليهم واستخدامهم فى شتى وظائف
الدولة ، ونرى بعضهم يأخذ فى اضطهادهم ، ولا تنتهى تلك المرحلة الا بمقتل
بايدو عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م واعتلاء غازان بن ارغون بن ابغا بن هولاكو عرش
ايران .

ومنذ عهد غازان تبدأ الفترة الثانية والحاسمة فى انتشار الاسلام بين
مغول ايران ، وفيها تم النصر النهائى له على غيره من الأديان فلم يعقل العرش
بعد ذلك مغولى وثنى مطلقا . وفى هذا الصدد سوف نبين كيف اعتنق
ايلخانات ايران الاسلام ، وكيف قضوا على فلول الوثنية والنصرانية
وكيف طاردوا اعداء الاسلام فى كل مكان ، ثم نختم حديثنا بالنقطة الثالثة وهى

القضاء الضوء على المظاهر الاسلامية التى دلت على عمق العقيدة الاسلامية
فى نفوس هؤلاء المغول .

١ — مرحلة التمهيد والتهيئة لتحول مغول ايران الى الاسلام : (٦٢٤ —
٦٩٤هـ/١٢٢٧ — ١٢٩٥م) .

تتميز هذه المرحلة باستكمال الشكل النهائى لایلخانية ايران منذ ان
اسند الخان الاعظم منكو خان بن طولى بن جنكيز خان (٦٤٩ — ٦٥٨هـ/
١٢٥١ — ١٢٥٩م) الى اخيه هولاکو امر الاستيلاء على عراق العجم وقلاع
الاساعيلية ودولة الخليفة المستعصم بالعراق (١) . وقد نجح هولاکو فيما
أسند اليه واستكمل غزو ايران كلها ووقعت بغداد فى يده عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م
واسقط الخلافة العباسية العتيدة ، وصارت تحت يده البلاد التى تسمى
الآن بايران وتركيا والعراق ، والتى كانت تضم اقاليم عديدة ، كاتليم خراسان
وكرسيه او عاصمته نيسابور ، وعراق العجم وعاصمته أصفهان ، وعراق
العرب وعاصمته بغداد ، وأذربيجان وعاصمتها تبريز التى صارت عاصمة
للایلخانية كلها ، واقلیم خوزستان وعاصمته شستر ، وفارس وعاصمتها
شيراز ، وديار بكر وعاصمتها الموصل ، وبلاد سلاجقة الروم وعاصمتها
قونية . كما كانت تضم الى جانب هذه الاقاليم والممالك بعض الأجزاء الشرقية
مما يعرف الآن بأفغانستان وباكستان ، وخاصة اقليم سجستان والرخج
وكرمان والفر (٢) . ولما كانت ايران هى الأساس فى تكوين هذه المملكة
المغولية او هى واسطة العقد ، وكانت عاصمة المملكة وهى مدينة تبريز
احدى مدن ايران ، فاننا سوف نستخدم تعبير ايلخانية ايران للدلالة على كل
هذه الاقاليم والممالك التى ضمها هولاکو الى دولته متبعين فى ذلك القلقشندى
الذى سماها بمملكة ايران وأشار الى اقاليمها العديدة فى تفصيل أكثر مما
وجدناه عند ابن خلدون (٣) .

(١) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٤٨ ، القرىزى : السلوك .
ج ١ ق ٢ ص ٣٨٣ .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر : ج ٥ ص ١١٥٣ — ١١٥٤ .
القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١٤ — ٣٩٨ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١٣ — ٣٩٨ .

وتكفى نظرة واحدة يمكن ان نلقيا على هذه الأقاليم التي تكونت منها ايلخانية ايران لنعرف طابع هذه الايلخانية وطابع سكانها . فقد كانت تضم فى غالبها أقاليم وممالك اسلامية فيما عدا ارمينية وبلاد الكرج (جورجيا) ، ولذلك كان معظم سكانها يدينون بالاسلام ، خلافا لخانية مغول القفجاق التي كان كثير من سكانها يدينون بغير الاسلام . ورغم هذا الفارق فقد كان مغول القفجاق أسبق الى الاسلام من مغول ايران لسبق اسلام ملوكهم كما سبق القول ، ولذلك كان نضال الاسلام ضد وثنية مغول ايران ابعد مدى واطول زمنا واكثر جهدا . وقد اصاب المسلمين فى هذا النضال الكثير من العنت والاضطهاد والاذى وخاصة اثناء غزوات هولاكو التي اسقط فيها بغداد والخلافة العباسية وقتل مئات الآلاف من المسلمين وخرب دورهم وحطم مدنهم وأصابهم فى ذلك من الفزع والهول بما لا يمكن وصفه ، حتى خرج الناس بعد انتهاء هذا الهول ، وكانهم خارجون من القبور ليوم النشور (٤) .

وبعد ان هذا الهول ، واستقرت الأمور لهولاكو ولابنائهم من بعده ، وكونوا أسرة حاكمة تتوارث الحكم فى هذه الايلخانية حتى نهاية عهدها ، بدأت الصلات التي كانت تربط ايلخانات ايران بأباطرة المغول فى قراقورم تنفصم وتتلاشى بالتدريج (٥) ، واخذ مغول ايران يرتبطون بهذه البلاد التي توارثوا حكمها واقاموا فيها وصاروا جزءا من شعبها وسكانها ، وكان لذلك اثره الكبير فى تشرب هؤلاء المغول للثقافة والحضارة الاسلامية السائدة فى ايران ، وانتهى بهم الأمر فى النهاية الى اعتناق الاسلام . ولكن اسلامهم لم يتم بين يوم وليلة ، فقد كان الصراع شديدا بين الاسلام وبين الاديان الأخرى التي حاولت تحويل المغول اليها مما عرضنا له فى الفصل الأول . وقد تأثر بعض ايلخانات ايران بالمسيحية وأعلن واحد منهم اعتناقه للاسلام ، ثم عاد التأثير البوذى المسيحى مرة أخرى ، ثم تغلب الاسلام فى النهاية . وقد ظهرت هذه التطورت بصورة واضحة عندما اعتنق تكودار بن هولاكو - ثالث

(٤) ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ ، المقرئى نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .
(٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ .

ايلخانات ايران — الاسلام ، وكان أول اياخان مسلم يحكم ايلخانية ايران ،
وتسمى باسم احمد تكودار او احمد سلطان (٦٨١ — ٦٨٣ هـ / ١٢٨١ —
١٢٨٤ م) (٦) .

ويذكر بعض المؤرخين ان تكودار هذا كان مسيحيا فى طفولته فقد
ربته أم مسيحية وعمد باسم نيقولا Nicholas تيمنا وتشرفا باسم البابا
الذى كان يحمل هذا الاسم (٧) ، ولكنه اعتنق الاسلام عندما بلغ سن الرشد
يتأثر بعض المسلمين الذين كان متصلا بهم (٨) .

ولكن هذه الرواية ليس لها نصيب من الصحة ، فلم يثبت ان تكودار
اعتنق النصرانية ، ولم يثبت ايضا انه اعتنق الاسلام عندما بلغ سن الرشد
لأن من قال بذلك ليسوا من المسلمين ، وهم يستندون فى مصادرهم الى
رواية قديمة لمؤرخ أرمنى مسيحى ، ومعروف ان امثال هؤلاء المؤرخين يحاولون
ان يصوروا ان ملوك المغول كانوا مسيحيين او كانوا — على الأقل — يميلون
الى المسيحية ، حتى يسهل جذب أحفادهم الذين اعتنقوا الاسلام الى
المسيحية (٩) . والحقيقة ان تكودار اسلم وهو صبي لم يبلغ الحلم بعد
يتأثر شيخ صوفى يدعى كمال الدين عبد الرحمن . وكان والد هذا الشيخ
مملوكا روميا للمستعصم آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد . ولما قتل هولوكو
هذا الخليفة عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م اظهر هذا الشيخ الزهد وتصوف ونال رضا
ابغا بن هولوكو ، ولكنه لم يتمكن من التأثير عليه ، فلم يعتنق ابغا الاسلام ولم
يتحول عن البوذية التى كان يدين بها ، ولكنه تمكن من التأثير على أخيه
تكودار . فقد اتصل به هذا الشيخ وزين له الاسلام فأسلم وتسمى بأحمد ،

(٦) ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ٧٢ ، ابن خلدون : نفس
المصدر ، ج ٥ ص ١١٥٧ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢٠ ،
القرطبي : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٠٤ ، ٧١١ ، ابو المحاسن ، نفس
المصدر ، ج ٧ ص ٣١٠ .

(٧) Saunders : op. cit., p. 132 ; Howorth : op. cit., v. 3, 285.

(٨) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٠ .

(٩) الرمزي : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

فوعده هذا الداعية بانتقال الملك اليه . ولما حدث ذلك واصبح احمد تكودار سلطانا على ايلخانية ايران عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م ارتفع شأن هذا الشيخ عنده وعند امرائه ووزرائه وعظمت منزلته لديهم حتى صار سفيرا لآحمد الى سلطان مصر المنصور قلاون عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م ليبرم بينهما صلحا بصفتهم سلطانين مسلمين (١٠) .

وتدل هذه الرواية على أن احمد تكودار اسلم قبل ان يلى العرش وهو صبى صغير ، يؤكد ذلك ما سبقت الاشارة اليه من ان بعض الصوفيين الاحمدية دخلوا به النار وهو صبى صغير بين يدي ابيه هولاكو ، فوهبه لهم وسماه احمد (١١) ، ويؤكدده ايضا رسالته التى ارسلها الى المنصور قلاون والتى يقول فيها انه اعتنق الاسلام وهو « فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة » (١٢) ، ويؤكدده ايضا ما يقوله ابو المحاسن ابن تفرى بردى من انه تولى العرش عام ٦٨١هـ وهو ابن ثلاثين عاما (١٣) ، ومعنى ذلك انه ولد عام ٦٥١هـ ، وانه كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما عندما توفى ابوه هولاكو عام ٦٦٤هـ (١٤) .

اذن فلم يكن احمد تكودار حديث عهد بالاسلام حينما اعتلى عرش ايلخانية ايران ، اذ كان قد مر على اسلامه اكثر من سبعة عشر عاما ، وعلى ذلك فلايست هناك شبهة فى انه اعتنق الاسلام لتحقيق مصالح سياسية شخصية ، لانه كان يعلم تماما ان اسلامه لن يحقق له اية مصلحة من هذا النوع ، الا فى انه ربما يثير الأمراء الذين كانوا على غير دين الاسلام . كان احمد تكودار يريد الا يكون نشازا فى هذا المحيط الاسلامى الكبير الذى يعيش فى وسطه ، وكان يريد الخير لنفسه ولاهله ولقومه من المغول حتى لا ينفر منهم اهل الاسلام فى ايران او غير ايران . ولذلك فقد أسرع هذا

(١٠) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

(١١) مخطوط كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٤١ .

(١٢) المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ، ص ٩٧٨ .

(١٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣١٠ .

(١٤) المقرئى : نفس المصدر : ج ١ ق ٢ ص ٥٤١ ، ابوالمحاسن :

نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٢٠ .

الايلىخان المسلم بمجرد توليه العرش باتخاذ كافة الاجراءات التى تدل على عميق اسلامه وايمانه ، فأرسل الى بغداد رسالة يعلن فيها اسلامه ويدعو أهلها الى السير طبقا للشريعة الاسلامية والى اظهار شعائر الاسلام (١٥) ، ويأمر بأن تترك لهم حرية العمل بسائر الشعائر الدينية حسبما اعتادوا عليه منذ ايام خلفاء بنى العباس ، ويقر على نفسه بأنه يعرف ان النصر دائماً للإسلام وحتى يوم القيامة ، وان رسالة محمد (ص) حق ، وان هناك الهة واحدا فقط (١٦) وهو كلام يدل فى وضوح على مدى صدقه فى اسلامه وحيه لدينه الجديد . وقد دفعه هذا الحب الى قيامه ببذل قصارى جهده لتحويل كافة المغول والتتار الى الاسلام ، ولجأ فى ذلك الى بذل العطايا والمنح والقباب الشرف حتى ان عددا كبيرا من التتار اعتنقوا الاسلام فى عهده (١٧) .

ورغم هذا القول الصريح الذى نقله ارنولد عن هيثون Haithon المؤرخ الأرمنى المسيحى المعاصر ، والذى يفيد بعدم استعمال احمد تكودار لوسائل العنف والاضطهاد لتحويل التتار او غيرهم الى الاسلام ، الا اننا نرى هذا المؤرخ الأرمنى يعود مرة اخرى ويحمل على هذا السلطان المسلم وعلى الاسلام ذاته ، ويقول ان اسلام المغول كان نتيجة لاتباعهم وتقليدهم لهذا السلطان فيما ذهب اليه — أى ان اسلامهم لم يكن عن اقتناع — ونتيجة ايضا لاضطهاده المسيحيين الذى ظهر — حسب قوله — فى نواح عدة ، منها انه أمر بأن تسترد الأماكن التى كان المسيحيون واليهود قد أخذوها عقب استيلاء المغول على بلاد الاسلام ، وأمر بأن تمحى اسمائهم منها ، كما أمر بأن تتحول معابد البخشيين — أى كهنة البوذية — وكنائس المسيحيين الى مساجد ، ويقول هيثون أيضا بأن هذا السلطان المسلم أمر بتخريب كنائس المسيحيين فى تبريز وهدد بقطع رأس أى واحد منهم يرفض اعتناق الاسلام ، واستدعى ملوك ارمينيا وجورجيا المسيحيين الى بلاطه (١٨) .

(١٥) ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٣١٠ .

(16) Howorth : op. cit., v. 3, p. 186.

(١٧) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦١ .

(18) Howorth : op. cit., v. 3, p. 288.

ولكن هذه الاتهامات تبعد كثيراً عن الحقيقة لأن قائلها استندوا فقط على رأى أحد المؤرخين المسيحيين المعاصرين من أمثال هيثون المؤرخ الأرمنى، كما أن كتاب المسلمين المعاصرين لم يشير إلى ذلك ، وما أشار إليه بعضهم وفى وقت لاحق هو أن أحمد تكودار « الزم أهل الذمة بلبس الغيار » (١٩) أى الملابس المميزة لهم ، وهو أمر كان متعارفاً ومتفقاً عليه منذ أيام الإسلام الأولى بمقتضى شروط الصلح التى تمت بين أهل الذمة والعرب الفاتحين (٢٠) كما أن هذه الاتهامات ينفيها أبو الفرج ابن العبري — وهو كاتب مسيحي معاصر حينما يقول بأن أحمد تكودار عامل شعبه برقة وعطف وخاصة رؤساء الديانة المسيحية (٢١) مما يدل على مدى التجنى فى وصف هذا السلطان بالتعصب واضطهاد أصحاب الأديان الأخرى . ولا شك أن هذه تهمة رماه بها خصومه السياسيون فيما بعد عندما أرادوا الانقضاض عليه ، وكان هؤلاء الخصوم يميل بعضهم إلى المسيحية وآخرون إلى البوذية ، فدبروا أمرهم ورموه بهذه التهمة التى كان منها براء . وإذا كان هناك من تهمة فى نظرهم فهو أنه كان مخلصاً لدينه أشد الإخلاص ، وأنه لم يدخر وسعاً فى إعلاء شأن هذا الدين ، وهو ما أثار انصار البوذية والمسيحية ، خاصة عندما بدأ يتخذ الخطوات العملية لدعم الحركة الإسلامية . فقد أمر بأن يصرف ربيع الأوقاف فى مصارفه الأصلية ولا يستولى عليه أو يصرف فى أى غرض آخر ، كما اتخذ الترتيبات اللازمة لرعاية قوافل الحج إلى مكة . وأرسل المائتين الغذائية إلى أهلها ، كما كان يقضى جزءاً من يومه مع المشايخ والفقهاء يستمع لدروسهم (٢٢) ، وأخذ فى بناء المساجد والجوامع والمدارس ، ورتب القضاء وانقاد لأحكام الشريعة الإسلامية (٢٣) وزوج بناته للامراء المسلمين من المغول (٢٤) ، وأراد أن يعمق ارتباطه بالإسلام والممالك الإسلامية ، فأرسل فى جمادى الأولى عام ٦٨١هـ / أغسطس ١٢٨٢م سفارة كبيرة إلى سلطان

(١٩) ابن حبيب نفس المصدر ، ج ١ ص ٧٢ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣١٠ .

(٢٠) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ ص ٨٩٥ ، ٨٩٦ .

(٢١) ابن العبري : نفس المصدر : ص ٥٠٦ .

(22) Howorth : V. 3, pp. 288-289.

(٢٣) المقرئى : نفس المصدر ج ١ ق ٣ ص ٧٠٧ — ٧٠٨ أبو

المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣١٠ .

مصر المنصور قلاوون يخبره باسلامه فى رسالة هامة تفيض حبا فى الاسلام واخلاصا لمبادئه وحرصا على حقن دماء أهله وحفظ أراضييه . وقد بين احمد تكودار فى هذه الرسالة ايضا انه ارسل بعض المشايخ لدعوة التتار الى الاسلام وانه امر ببناء المساجد والمشاهد والمدارس والربط التى كان قد أصابها الخراب والدمار ، وانه امر برعاية اوقاف المسلمين وبتجهيز الحجاج وتأمين سبلهم وحماية قوافلهم ، وانه اعطى الحرية للتجار كى يتوافدوا الى بلاده ، « وليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم » ، ويلتمس فى نهاية الرسالة محالفة سلطان مصر والصلح معه حتى « تعمّر البلاد . . . وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة . . . وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون » (٢٥) .

وتعتبر هذه الرسالة وثيقة تاريخية هامة تبين مدى عمق الاسلام وصدقه فى نفس هذا السلطان المغولى وتدل على مدى التحول العميق فى صورة المغولى التى كانت تتسم بالفظاعة والوحشية وسفك الدماء كانه وحش نافر فى جنبات الدنيا يلتهم الأحياء وينبش قبور الموتى (٢٦) ، الى صورة أخرى تتسم بأسمى العواطف الانسانية وحب الخير والرغبة الصادقة فى تقوية دعائم الاسلام ونشره بين المغول الوثنيين وجمع كلمة المسلمين فى بلاد الشرق الأدنى . وهى صورة أثارت اعداء الاسلام وقتذاك ، وجلبت الدهشة لبعض الكتاب المحدثين (٢٧) .

وقد دامت المراسلات بين احمد تكودار وبين السلطان قلاوون الذى رد على رسالة تكودار السابقة وهناه على دخوله فى دين الاسلام مما أذهب

(٢٤) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١٢٥ .
 (٢٥) ابن العبري : نفس المصدر ، ص ٥٠٦ — ٥١٨ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ص ٤١٩ ، ٤٢٥ ، رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٦٦ ، ٩٧ ، أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٧ ، النويري : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٢٤ ، العبري : مسالك الأبصار ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٣٧٨ — ٩٨٤ ، أرنولد نفس المرجع ص ٢٦٠ — ٢٦٣ ،

Howorth : Op. Cit., p. 3, pp. 290-292.

(٢٦) ابن ابيك الدوادارى : كنز الضرر ، ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢٧) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

الأحقاد وازال الجفوة والعداء بين البلدين مما دفع بأحمد تكودار ليرسل وفدا آخر عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م يحمل رسالة مكتوبة باللغة المربية يستحث عقد الصلح بينه وبين سلطان مصر (٢٨). وقد نتج عن هذه العلاقات الطيبة أن استقر السلام بين مصر ومغول إيران في عهد هذا السلطان المغولي المسلم فلم نسمع عن أى صدام بينهما في عهده ، مما يدل على صدقه في طلبه الصلح وتحقيق السلام وخدمة الاسلام (٢٩) .

ولكن هذا السلطان المغولي المسلم لم يستمر في الحكم مدة طويلة ، فقد نار عليه ابن أخيه ارغون بن ابغا وقتله بمساعدة بعض الأمراء واعتلى العرش مكانه . ويذكر هورث Howorth نقلا عن هيثون كما يذكر بعض المؤرخين المسلمين ان السبب في ذلك هو ان احمد تكودار حمل التتار على الاسلام فثار عليه عسكره وتآمروا ضده مع ارغون وقتلوه (٣٠) . وهي تهمة أخرى يسندوها هؤلاء القوم الى هذا السلطان ، وكما فندنا تهمة اضطهاده لأصحاب الأديان الأخرى فاننا نقول في امر هذا الاتهام الجديد ان الشق الأول وهو حملة التتار على الاسلام غير صحيح ، لأننا اشرنا الى أسلوبه السلمى في الدعوة الى الاسلام ، اما الشق الثانى وهو ان عسكره نكموا عليه اسلامه وتآمروا على قتله مع ارغون فهو صحيح في ضوء ما سبقت الاشارة اليه من صراع المسيحية واليهودية مع الاسلام لاكتساب المغول ، وفي ضوء عوامل أخرى تتعلق بأحمد تكودار وعلاقته بالأمراء المنافسين له على العرش ، وهي عوامل اشار اليها المؤرخون المعاصرون لهذا السلطان وجعلوها السبب الرئيسى في مقتله .

(٢٨) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، أبو الفدا : ج ٤ ص ١٧ النویری : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٢٤ ، ٢٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٢ ، المقریزی : ج ١ ق ٣ ص ٧١٧ ، Howorth : op. cit., V. 3, pp. 293-296, 308-309. ، ٧٢٣

(٢٩) المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ .

(٣٠) أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨ ، العمري : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٣٨ ، ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ٩٠ ، المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٥٧ .
Howorth, op. cit., v. 3, p. 310.

من هذه العوامل نرى ان ارغون كان يطمع فى استرداد عرش ابيه الذى حرمه منه عمه احمد تكودار باسراعه فى اعتلائه ذلك العرش دون انتظار لحضور ارغون الذى كان غائبا عن تبريز حين وفاة ابيه ابغا (٣١) ، كما ان العلاقات بطبيعتها كانت سيئة بين ارغون وتكودار بسبب الاجراءات التى كان الأخير قد اتخذها ضد الأول لظلمه لأهل خراسان الذين كان أميرا عليهم واعتدائه بالقتل على واليهم وجيه الدين زكى بن عز الدين طاهر . اذ ان احمد تكودار لم يرضه هذا الجبروت من ارغون ، فأرسل اليه جيشا حاصره وهزمه وأتى الى تبريز حيث اودع السجن (٣٢) . هذا بالإضافة الى ان ارغون كان يتآمر سرا مع أخى احمد تكودار المسمى قنقورتاي لقتل السلطان والاستيلاء على السلطة ، ولما فشل خبر هذه المؤامرة الى السلطان احمد تكودار امر بقتل أخيه هذا مما أثار حفيظة اولاده وجعلهم يصممون على الثأر لأبيهم ، كما احتفظ ارغون غصم هو الآخر على الثأر لصديقه وعمه وللإستيلاء على مقاليد الحكم فى نفس الوقت (٣٣) .

هذه هى الأسباب الحقيقية التى أدت الى مقتل أول سلطان مغولى مسلم فى ايلخانية ايران ، وقد ساعد على تعضيد المتآمرين على قتله ما أثاره بالطبع الأبراء الموالون للمسيحية والذين اتهموه كما سبق القول باضطهاده للمسيحيين وشكوه الى الخان لأعظم قوبيلاي خان وقالوا انه بذلك خالف سنن اجداده (٣٤) سواء باعتناقه الاسلام وعدم تطبيقه اليساق شريعة جنكيز خان او باضطهاده للمسيحيين على حسب زعمهم . وقد أدى ذلك كله الى تألف اعداء الاسلام وأعداء هذا السلطان وعلى رأسهم ارغون وعناصر الشمامانيين المعادين للمسلمين واولاد قنقورتاي وبعض الأمراء الآخرين الذين كانوا يطمعون فى الوصول الى مراكز هامة اذا ما تولى ارغون العرش، استطاع هؤلاء المتآمرون

(٣١) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، ص ٩٠ — ٩٣ ، ١٠٠

— ١٠٢ .

(٣٢) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣٥ .

(٣٣) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥١٨ — ٥٢٠ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣٦ ، رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، Howarth : op. cit., v. 3, pp. 286, 297-8.

(٣٤) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

ان يخر جوا ارغون من السجن وان ينتضوا معه على احمد تكودار وان يقتلوه
ويولوا ارغون عرش البلاد عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م (٣٥) .

وباعتلاء ارغون العرش (٦٨٣ — ٦٩٠هـ/١٢٨٤ — ١٢٩١م) علا
صوت البوذية والشامانية والمسيحية واليهودية في ايلخانية ايران ، وقد
سبقت الاشارة الى تحالف ارغون مع اوربا النصرانية ومع ملوك الشرق
المسيحيين في ارمينيا وجورجيا ومع صليبي بلاد الشام في محاولة منه لضرب
الاسلام سواء في بلاد الشام ام في بلاد القفجاق ، ويقال انه كان مسلما
تتحول الى دين البراهمة الهنود واستقدم سحرتهم من الهند (٣٦) ، كما انه
اسند الوزارة الى يهودى يعرف باسم سعد اليهودى الموصلى ولقبه سعد
الدولة ، فاشتد الاضطهاد بالمسلمين ، وتأمر هذا الوزير على تحويل الكعبة
الى معبد بوذى ، وان لم تنجح المؤامرة ، وأخذ في تعيين اقاربه واصدقائه
من اليهود في المناصب الهامة للدولة ، بعد ان صرف المسلمين عن المناصب
التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية (٣٧) وارسل جماعة من يهود تخلص
ولاة على تركات المسلمين ببغداد عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨ م ، فحكموا بعدم توريث
ذوى الأرحام مما ادى الى قيام فتنة قام فيها العوام بنهب متاجر اليهود (٣٨) .
وظل المسلمون يعانون حتى سلب الله ارغون على وزيره اليهودى فقتله ،
ومات هو نفسه بعلة الصرع وتولى العرش أخوه كيخاتو بن ابغا (٦٩٠ —
٦٩٤هـ/١٢٩١ — ١٢٩٥م) (٣٩) .

(٣٥) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥١٨ — ٥٢٠ ، ابن الفوطى :
نفس المصدر ، ص ٤٣٦ ، أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨ ، العمرى :
نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٣٨
Howorth : op. cit., v. 3, pp. 289, 297, 307.

(٣٦) المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ ،
Saunders : op. cit., p. 133.

محمد جمال الدين سرور : دولة بنى ثلاون في مصر ، ص ١٧٢ .

(٣٨) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٥٥ .

(٣٩) ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٤١ ، ابن خلدون : نفس
المصدر ، ج ٥ ص ١١٥٨ ،
Saunders : op. cit., pp. 133, 134.

وفى عهد هذا الايلخان ساءت الأحوال بالنسبة للمغول ، اذ كان هذا الايلخان الجديد سىء الخلق قبيح الأفعال أباح المنكرات ، فتآمروا عليه وقتلوه وولوا بدله ابن عمه بايدو بن طرغاي بن هولكو (٦٩٤هـ/١٢٩٥م) (٤٠) ، الذى اعتنق النصرانية (٤١) او كان يميل اليها ويفضلها على الاسلام ، حتى انه بذل كثيرا من الجهد لوضع العقبات فى سبيل انتشاره بين المغول (٤٢) .

ورغم هذا كله ورغم فرحة المسيحيين والوثنيين بسياسة هؤلاء الايلخانات الثلاثة الذين اعقبوا احمد تكودار ، وهم ارغون وكيخاتو وبايدو . الا ان انتشار الاسلام كان يسير بين مغول ايران بخطى حثيثة ، واضطرد عدد الداخلين منهم فى الاسلام واخلصوا له حتى انهم كانوا يحتالون فى الدفاع عنه وعن اراضيه فى عهد هؤلاء الايلخانات الوثنيين اذا ما علموا باتجاههم نحو غزو بلاده فى بلاد الشام او غيرها، فكانوا ياقنون الخوف ويثبون روح التردد ويثبطون هم القواد حتى لا يقوموا بهذا الغزو، وكان الجيل الجديد من المغول الذى ولد وثب فى ايران سريع التأثير بهذا الدين الذى كان يدين به غالبية السكان وكان يدين به معظم امهات هذا الجيل الجديد ، ولذلك وجد هؤلاء الايلخانات — الثلاثة انفسهم فى وضع لا يحسدون عليه ، واضطروا رغم قيامهم بمضايقة المسلمين واضطهادهم فى بعض الاحيان كما اشرنا ، الى مداراتهم بقدر ما يستطيعون (٤٣) .

وقد اتخذت هذه المداراة مظاهر عديدة ، منها ما قام به ارغون من الانعام على القضاة والفقهاء والخطباء الذين اموا الاحتفال الكبير الذى اقامه المسلمون فى تبريز عاصمة الدولة بعيد الفطر عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م ، ومنهسا أيضا ما قام به ارغون من اتخاذ احدى المسلمات زوجة له ، فدخل الاسلام.

(٤٠) ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٢ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٧٥ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٥٨ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .
(41) Sauners : op. cit., p. 135.

(٤٢) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٦ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٤٣) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ج ٢ ص ١١٣ ،
Saunders : op. cit., p. 135.

فى محيط أسرته : فأسلم حفيده من ابنته اولجтай وتسمى باسم الأمير حسين . واتبع كيخاتو نفس السياسة نحو المسلمين ، فقام باعفاء علمائهم واشراهم من بنى هاشم من دفع جميع الضرائب على اختلاف انواعها ، كما قام بكتابة نقوش اسلامية على اوراقه المالية التى اصدرها ، فكان على احد وجهيها نقش التشهد الاسلامي « أشهد الا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله » ، كما اسند وزارته الى صدر الدين الزنجاني وصار حكم تبريز والعراق وراثيا فى اسرة هذا الوزير ، كما قرب اليه امراء المغول المسلمين مثل الأمير حسن بوقو كما تزوج من اميرات مسلمات مثل عائشة خاتون بنت طوغو بن ايلكاي نويان ، وباد شاه خاتون بنت قطب الدين سلطان كرمان ، وذلك بجانب زوجاته الأخريات التى كانت احداهن مسيحية . أما بايدو ، فرغم ما قيل عن تنصره او ميله الى النصرانية الا انه لم يجسر على اظهار عطفه على المسيحيين ، وكان يحاول ترضية المسلمين بكل جهده حتى انه جعل ابنه يصى معهم كما يصلون . وقد شجعت هذه السياسة التى اتبعها هؤلاء الايلخانات كثيرا من المغول على الدخول فى الاسلام وأصبحوا يؤدون فرائضه ويحملون السبح فى ايديهم ويكثرون من التنسك (٤٤) .

وكان التطور الطبيعى لذلك كله هو الانتصار النهائى للاسلام ، حتى قيل ان مقتل بايدو كان بسبب ما اشتهر به من بغض الاسلام وتفضيله للمسيحية عليه رغم الإدارة التى اظهرها نحو الاسلام والمسلمين (٤٥) ، وصار تحقيق النصر النهائى حقيقة واقعة بعد مقتل بايدو وقيام غازان على رأس الحكم فى ايران .

٢ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول ايران :

تبدا هذه المرحلة الهامة والنهائية فى انتشار الاسلام بين مغول ايلخانية ايران واصطبغهم بالصبغة الاسلامية منذ عهد غازان بن ارغون بن ابغا بن هولاكو (٦٩٤ — ٧٠٣ هـ / ١٢٩٠ — ١٣٠٤ م) وكان هذا الايلخان الذى بدأ عهد

(٤٤) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١٢٤ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ١٣ ، ١٤ ، ١٧ — ٢٠ ، Malcolm : op .cit., p. 271. (٤٥) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٦ .

الاستقلال التام عن قراقورم وقطع آخر خيوط العلاقة بالخوانين العظام مسلما قبل أن يتولى عرش ايران التي أصبحت منذ عهده خانية ، وأصبح حاكمها يسمى بلغة المغول خانا بدل أن كان حاكم ايران يسمى ايلخانا أى نائباً عن الخان الأعظم بقراقورم ، وكانت ايران نفسها قبل عهد غازان ايلخانية ، أى جزءاً من امبراطورية المغول الكبرى .

اذن واكبت مرحلة الفصر النهائى للاسلام على غيره من الأديان مرحلة استقلال مغول ايران عن قراقورم ، وكان هذا من العوامل التى اطلقت عقلا الاسلام حتى بلغ الذرا منذ عهد غازان وتحول مغول ايران الى حصن حصين للاسلام وأصبحت ذرية هولاكو تدفع به الى الامام وتعمل بكل ما وسعها من جهد لتعويضه عما لحقه على يد زعيمها هولاكو من خسارة وبوار .

وانه لشيء مدهش حقا ان نرى الاسلام يكتسح وثنية المغول ويقتلعهما من قلوبهم القاسية ويكون طوق النجاة الذى يتعلق به حاكم قوى مثل غازان . كى ينقذ عرش ايران من مسيرة الوثنية المتحالفة مع المسيحيين ، فيعلن اعتناقه للاسلام قبل ان يصل الى هذا العرش حتى يتمكن من تجميع قوى الاسلام الزاحلة والمتفلطلة داخل الأسرة المغولية الحاكمة ، وداخل جنود المغول وعامتهم ، وحتى يجد المساندة اللازمة لتحقيق هدفه فى الانتصار على اعدائه من امراء المغول الوثنيين المتنازعين على العرش .

اعتنق غازان الاسلام فى اليوم الرابع من شهر شعبان عام ٦٩٤هـ / ١٩ يونية عام ١٢٩٥م ، ويجمع المؤرخون على أن اعتناق غازان للاسلام كان بتأثير انايكه وقائد جيشه نوروز Nawruz . وكان هذا القائد قد وعد غازان الذى كان اميرا على خراسان بمساعدته ضد بايدو Baidu الذى كان قد قتل كيخاتو عم غازان واستولى على العرش ، وكانت هذه المساعدة نظير وعد من غازان باعتناقه الاسلام . وقد اعلن غازان تحوله الى الاسلام فعلا فى اليوم الذى سبقت الاشارة اليه على يد الشيخ صدر الدين ابراهيم بن الشيخ سعد الدين حمويه الجوينى وتسمى باسم محمود وسمى اخاه اولجايتو باسم محمد ، ووزع فى هذه المناسبة كثيرا من العطايا والأموال على المشايخ والعلماء ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على الناس ، وكان يوم اسلامه يوما مشهودا . ثم زار مقابر الأولياء والمساجد ، ولم ينس

أن يرسل نبأ إسلامه الى العراق وخراسان ، وأخذ يتعلم من نوروز بعض الآيات القرآنية ، كما تعلم الصلاة وصام رمضان عام ٦٩٤ هـ ، وكان يتناول معه طعام الإفطار كل مساء كثيرون من التبرك والفرس ، « وفشا الإسلام في التتار » منذ ذلك الحين (٤٦) ، وأعلن غالبية جنده وضباطه اعتنائهم للإسلام ، وسار امراء المغول على نفس المنوال فأعلن احدهم وهو فيروزكوه هو وثمانون ألفا من اتباعه وصناديد قومه من المغول تحولهم الى الاسلام (٤٧) .

وقد تمكن غازان بفضل هذه القوة الاسلامية النامية وبفضل تأييد اتباعه وقائده نوروز ومن معه من جند المغول المسلمين ، وبتأييد الائمة والفتهاء الذين وقفوا معه في دعواه ضد بايدو من أن يزحف من خراسان وينتصر على هذا المفتصب الذي لم يحكم اكثر من ثمانية اشهر والذي انتهى الأمر بفراره وقتله . وبذلك آل عرش المغول في ايران في ذي الحجة عام ٦٩٤ هـ / اكتوبر ١٢٩٥ م الى محمود غازان . ومنذ ذلك التاريخ لم يحكم هذه البلاد حاكم مغولي غير مسلم (٤٨) .

وقد أشار بعض المؤرخين الى ان غازان اعتنق الاسلام بدافع المصلحة

(٤٦) شرف خان البرليسي : نفس المصدر ج ٢ ص ١٥ ، العمري : نفس المصدر ، ج ١٦ ، ق ٣ ورقة ٦٦٥ ، ابن الوردي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٤٠ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢٠ ، المقرئزي : نفس المصدر ج ١ ق ٣ ص ٨٠٥ ، ابن حجر العسقلاني ج ٣ ص ٢٩٢ ، الديار بكري . نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٨١ ، كتاب في التاريخ ، ورقة ٣٤١ .

(٤٧) شرف خان البرليسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ ، أبو الحسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٧١ ، Howorth : op. cit., v. 3, p. 490.

(٤٨) ابن الفوطي : نفس المصدر ، ص ٤٨٣ ، أبو الفدا نفس المصدر ج ٤ ص ٤٣ ، ٤٤ ، شرف خان البرليسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ ، ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ابن الوردي : نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٠ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢٠ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ١٤ ، ١٦ — ٢٠ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٤ ، Saunders : op. cit., p. 135.

السياسية ، وأنه لم يكن مخلصا في اسلامه (٤٩) ، ويستدلون على ذلك بأمرين الأمر الأول هو أنه حاول أن يتراجع أو يرتد عن الاسلام عندما أخبره بعض الفقهاء بأن « دين الاسلام يحرم نكاح نساء الآباء » . وكان غازان قد استحوذ على نساء أبيه حسب عادة المغول وحظيت احداهن عنده ، وكان اسمها خاتون وأراد أن يتزوجها ولما قيل له ذلك شرع يفكر في الارتداد عن الاسلام ، ولكنه لم يفعل بتأثير بعض خواصه الذين قالوا له « ان أباك كان كافرا ، ولم تكن خاتون معه في عقد صحيح ، انما كان مسافحا بها ، فاعقد انت عليها ، فانها تصلح لك » ، فلقى هذا القول قبولا من نفسه وعمل على تنفيذه (٥٠) .

والأمر الثاني هو موثقه العدائي من سلاطين المالك في مصر والشام ، وهم الذين كانوا يعتبرون حماة الاسلام ضد صليبية العالم المسيحي ، ووثنية المغول في ذلك الحين ، كما أنه اظهر تقاربه مع البابوية وملوك اوربا وأعلن الحرب على ديار الاسلام في بلاد الشام ، وارثكب فيها من الاثام والمنكرات وهو السلطان المسلم ، ما ذكر الناس بهولاكو وجنكيز خان الذين كانوا على الوثنية (٥١) .

أما الأمر الأول وهو زواج غازان المسلم من زوجة أبيه فاننا نرجح عدم حدوثه لأن الزواج من نساء الآباء كان عادة متبعة عند المغول الوثنيين ، وحيث أن أباه ارغون قد توفي عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، فلا بد أن غازان قد استحوذ على نساء أبيه عقب هذا التاريخ مباشرة كما هي العادة ، والراجع أن ما حدث من زواجه من احداهن انما كان قبل اعتناقه الاسلام الذي حدث

(٤٩) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٢٠ ، ٢٣ ،

Howorth : op. cit., v. 3, p. 384.

(٥٠) ابن حجر العسقلاني : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ ص ٣٠٢ ، محمد جمال الدين سرور : نفس
المرجع ، ص ١٧٥ .

(٥١) ابن أبيك الدواداري : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ ،
المقريزي : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، فايد عاشور : نفس
المرجع ، ص ١٦٢ ، Malcolm : op. cit., v. 1, pp. 275-7.

(٥٢) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ج ٢ ص ١ ، ٢٢٠ ، ج ٢
ج ٢ ص ٦ ، ٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٧٠ .

كما أشار المؤرخون في عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م (٥٣) . وحتى لو أتى هذا الزواج بعد ذلك التاريخ ، فإنما كان على سبيل عدم الفهم لقواعد الاسلام ، اذ كان غازان وقتذاك حديث عهد بدينه الجديد . وهناك ما يفيد بأن هذه الزوجة التي حاول غازان أن يرتد عن دينه لهيامه بها كما قال ابن حجر والشوكاني ، كانت هي السبب في قتله ، فقد انضمت للمتأمرين على قتله في سهولة وكأنها كانت تكره الزواج منه ، مما يعطى انطبعا بعدم صحة ما رواه ابن حجر والشوكاني . فقد روى ابن ابيك الدواداري بأن هذه الزوجة كانت تسمى هميا خاتون ، وانها تزوجت بعد وفاة والد غازان بأمر مغولي يسمى بلغاق شاه ، ثم تزوجت بعد ذلك من غازان ، اى انها لم تتزوج من غازان بعد وفاة والده مباشرة ، كما انها استجابت لبعض امراء المغول الذين احسوا بالخطر من غازان بعد هزيمتهم في موقعة شقحب امام جند الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ، ونفذت لهم دون تردد ما اشاروا به وقتلته لهم بالسهم (٥٤) ، ولم يذكر ابن ابيك شيئا عن هيام غازان بها أو عن محاولة ارتداده عن الاسلام بسببها ، علاوة على أن ابن ابيك كان معاصرا لغازان وكان يجتمع هو وابوه برسل الملك الناصر محمد عندما يعودون الى بلاد الشام بعد مقابلة غازان ، وكان يسمع منهم ما كانوا يرونه ويسمعون به في بلاط ذلك الملك المغولي ، ومنهم من كان موجودا في تبريز عند وفاة غازان مثل الأمير حسام الدين ازهر المجيرى والقاضى عماد الدين السكرى اللذين كانا قد أرسلوا مبعوثين الى غازان عام ٧٠١هـ/١٣٠١م وظلا هناك حتى وفاة غازان (٥٥) ، وعادا وتابلهما ابن ابيك ولم يقولوا هما أو غيرها من الرسل الذين سبقوهما أو اتوا بعدهما بمثل ما قاله ابن حجر (٥٦) والشوكاني ، ولم يرد هذا الخبر عند أى من المؤرخين سواء كانوا معاصرين أو متأخرين الا ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الذى توفى بعد هذا الحديث بمائة وستين عاما ، علاوة على أنه لم يشر الى المصدر الذى روى عنه هذا الخبر ،

-
- (٥٣) العمري : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٦٥ ، شرف خان البرليسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ .
 (٥٤) ابن ابيك الدواداري : كنز الدرر ج ٩ ص ١١٢ .
 (٥٥) ابن ابيك : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ — ٧٦ ،
 ١٢٩ — ١٣٠ .
 (٥٦) الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ٢٩٢ .

اذ يقول « ولما أسلم (غازان) قيل له ان دين الاسلام يحرم نكاح الآباء . . . الخ » فلم يحدد لنا ابن حجر من الذى قال او أفتى بهذه الفتيا . وقد ردد الشوكائى الذى توفى بعد ذلك عام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م هذا القول ولم يكلف نفسه هو الآخر بالبحث عن المصدر الذى أخذ عنه ابن حجر ما زعمه من السلطان محمود غازان .

وعلى ذلك فما قاله ابن حجر العسقلانى من قصة محاولة غازان الارتداد عن الاسلام لا اساس لها من الصحة ، وهى بالتأكيد قد وضعت وضعا لتشويه صورة غازان كمسلم بسبب ما فعله بمسلمى الشام الذين ينتمى اليهم ابن حجر العسقلانى نفسه ، هذا الفعل الذى جعل كثيرا من الناس لا يصدقون بخبر اسلامه ، حتى ان شعراء مصر والشام الذين قالوا شعرا بمناسبة هزيمته فى شقحب كانوا يثيرون الى كفره او شركه (٥٧) ، كما تشكك الناصر محمد نفسه فى حقيقة اسلامه بسبب ذلك أيضا وعبر عن ذلك فى رسالته التى أرسلها له عقب انتصار غازان فى موقعة حمص عام ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م ، وما حدث بعدها لمسلمى الشام (٥٨) .

ولكن الحقيقة ان غازان كان مسلما صادق الاسلام والايمان برغم ما حدث فى بلاد الشام ، وكان لا يمكنه أن يرتد عن دينه الجديد ، لأن هذا الدين كان هو القوة الوحيدة التى ساندته كما رأينا ضد أعدائه من أمراء المغول الوثنيين ، وضد بايدو ومن معه من الأمراء الذين كانوا قد اشتركوا فى قتل كيخاتو عم غازان واغتصبوا منه العرش لحساب بايدو .

واننا فى الحقيقة نتساءل ، اذا كان غازان قد حاول ان يرتد عن دينه الجديد بهذا الشكل السهل ، أو لهذا السبب المتافه ، فما الذى جعله اذن يعتنق الاسلام ويتخلى عن الديانة التى نشأ عليها هو وآباؤه وأجداده ؟ وای شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام امير أو حاكم فى مثل قوة غازان ونفوذه ووسطوته فيلهمه تبديل دينه ويحوله الى الاسلام وهو ابن من غزوا العالم (٥٩) ، وسيطروا على آسيا وأزالوا دولها وامبراطورياتها ، وتحكموا فى مصيرها

(٥٧) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر : ج ٩ ص ٨٩ ، ٩٢ .

(٥٨) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٥٩) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٤ .

زمننا طويلا ، ووصل نفوذهم في أوروبا الشرقية حتى بولندا والمجر ، واذلوا الروس وجعلوهم يدفعون لهم الجزية ويدورون في فلكهم حتى بداية القرن السادس عشر للميلاد (٦٠) .

وإذا كان زواج غازان من زوجة أبيه الوثني لم يحدث إلا عندما كان غازان نفسه وثنيا كما بينا وكما نرجحه ، وحتى إذا كان هذا الزواج هو الموقف الوحيد الذي استدل به البعض على ضعف إسلامه وإيمانه وهو ما نستبعده ، فإن هناك عشرات المواقف والأحداث والأفعال والأقوال التي تدل بشكل واضح وقوي على قوة هذا الإيمان وعلى سلامة هذا الإسلام ، مما يذهب دليلا على إخلاصه لدينه الجديد ، ذلك الإخلاص الذي جعل بعض المؤرخين يقولوا انه « كان أجل ملوك المغل من بيت هولاكو » (٦١) .

ومن الأفعال والمواقف الدالة على ذلك انه بدأ أولا يحقق استقلال دولة المغول في إيران والعراق وآسيا الصغرى عن خانية المغول العظمى ببلاد الصين والخطا لأن تلك الخانية كانت خانية وثنية يعتنق خوانينها وأهلها جميعا البوذية وغيرها من الديانات الوثنية ، وعمل غازان كل ما في وسعه حتى تخلص من كل ما كان يربط بلاده بتلك الخانية الوثنية . وخاصة بعد موت قوبلاي خان الذي كان موته عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م نهاية لوحدة الامبراطورية المغولية التي كانت تضم دول المغول في كل آسيا وشرق أوروبا . كما كان حكم غازان في نفس الوقت حداً فاصلاً بين دولة المغول الوثنية في إيران وبين دولة المغول الإسلامية التي ازدهرت على يديه في تلك البلاد (٦٢) .

ذلك ان غازان رفض ان ينقش اسم الخان الأعظم على عملة إيران لأنه كافر وغير مسلم ، وأصدر عملة إسلامية نقش عليها عبارة « لا اله الا الله محمد رسول الله » وخص نفسه بالذكر على العملة وفي الخطبة دون الخان

(٦٠) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٥٠ ، ٥٧٧ — ٥٨٠ ، ج ٢ ص ٥١ — ٥٧ باسيليوس خرباوي : تاريخ روسيا ، ص ١١٦ .
(٦١) المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٩٥٦ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢١٣ .

الأعظم وطرد نائبه من بلاده ، وألقى لقب ايلخان ، أى نائب الملك ، واتخذ لنفسه لقب (الخان) أى أنه لم يقبل ان يصبح نائبا لحاكم غير مسلم حتى لو كان ذلك الحاكم هو الخان الأعظم ، وفى نفس الوقت اعطى لنفسه اسما اسلاميا فتسمى باسم السلطان محمود ، كما وضع التاريخ الخانى الذى نسب اليه منذ ذلك الحين ، وغير شعار الدولة المسمى (آل تمغا) أو التمغا ، أو الطمغا ، وهو الشعار الذى تصدر به الكتب والفرمانات (٦٣) وكان مربعا ، فجعله مستديرا لأن الدائرة أفضل الاشكال الهندسية واكثرها كمالا ، كما امر بان تتوج رعوس الكتب والمنشورات والفرمانات بعبارة الله اكبر (٦٤) . وبذلك تأكدت الهوية الاسلامية لخانية المغول فى ايران وتوابعها ، وبدأت الطبقة المغولية الحاكمة المسلمة تنصهر فى جمهرة الشعب الايرانى المسلم .

وقد أراد محمود غازان ان يؤكد ويعمق من هوية دولته الاسلامية فبذل كل ما فى وسعه لتحطيم كل ما هو وثنى ، فقام على معابد الوثنية يحطمها ، حتى معبد ابيه الفخم الذى كان مثالا لمعابد البوذية والذى حظى بالكثير من الأوقاف ، قام عليه ودمره تدميرا ، وهدد بالموت كل من بنى معبدا للاصنام او النيران ، وأصر فى عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م على ان يتحول كل المغول الى الاسلام ، وأمر كهنة المغول من البوذيين والشامانيين بالتحول الى الاسلام او الرحيل الى مواطن هاتين الديانتين فى القبت وكشمير ومنغوليا ، وأذن من فضل البقاء منهم فى ايران بالقتل ان لم يعتنقوا الاسلام ، ونفذ سياسته تلك بكل شدة وعنف حتى انه لم يتورع عن قتل خمسة من اقاربه الأمراء وثمانية وثلاثين اميرا آخرين لمناوئتهم للاسلام (٦٥) . وبذلك انتصر الاسلام فى معركته مع

(٦٣) كما ان الطمغا هو شعار السلطان او الأمير ، فهو أيضا البراءة التى تصدر عن السلطان او الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين خائف .

انظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٣٣ .

(٦٤) المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ، ص ٩٥٦ ، ابن حجر :

نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٩٣ ، شرف خان البديسى : نفس المصدر ، ج ٢

ص ١٦ ، ١٧ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٢٥٤، ٢٤٤، ٢٠

Malcolm : op. cit., v. 1, p. 271.

Saunders : op. cit., pp. 135, 136.

Howorth : op. cit., v. 3, pp. 399, 525.

(٦٥) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٦ ،

Saunders : op. cit., pp. 136, 137.

البوذية والشامانية انتصارا نهائيا ، وضاع الحاجز الذي كان يحول دون التفاهم بين الحكام والمحكومين في إيران منذ ذلك الحين (٦٦) .

وقد ساعد على ذلك ان السلطان محمود غازان اخذ في صبح ادارات الدولة بالصبغة الاسلامية ، فجعل اعوانه من الوزراء والقواد والكتّاب والموظفين من المساميين خاصة ، مثال ذلك الأمير نوروز الذي عهد اليه بمنصب أمير الأمراء وجعله قائدا عاما للجيش ، وصدر الدين احمد الزنجاني الذي عهد اليه بمنصب الوزارة ولقبه بلقب صدر جهان (٦٧) ، ورشيد الدين فضل الله الهمذاني مؤلف كتاب جامع التواريخ الذي اتخذ منه مستشارا ووزيرا . وقد اشار هذا الوزير المؤرخ على غازان بضرورة اصلاح الأوضاع الاقتصادية بتخفيض الضرائب المفروضة على الفلاحين والتجار (٦٨) ، كما قام هذا الوزير برعاية العلوم والفنون فشيّد ضاحية قرب تبريز سرعان ما تحولت الى جامعة وألحق بها مكتبة ومعهدا لنسخ المخطوطات ، وبنى فيها مساكن اقام فيها طلاب العلم وأهل الفن القادمون من جهات مغولية صرفة (٦٩) . واستمر هذا الوزير وأولاده من بعده في تولي منصب الوزارة في عهد السلطان محمد خدا بنده وعهد ابنه السلطان ابو سعيد ، وظلوا يسيرون على سياسة ابيهم في تحبيب المغول في الاسلام حتى قال ابو الفدا عن احدهم وهو على شاه وزير السلطان ابو سعيد أنه « هو الذي نسج المودة بين الاسلام والتتار » (٧٠) .

وهناك جانب آخر يدل على عميق اخلاص السلطان محمود غازان لاسلامه وينفى عنه ان اسلامه لم يكن بدافع المصلحة السياسية . ذلك انه اظهر تحمسا شديدا لدينه الجديد وصار يحافظ على اداء الصلوات في اوقاتها وعلى صيام شهر رمضان ، وكانت فرائض الدين كلها متبعة في حماسة وغيره .

(66) Saunders : op. cit., pp. 136, 141.

(٦٧) شرف خان البديسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ — ١٧
Howorth : op. cit., v. 3, p. 399.

(68) Saunders : op. cit., p. 141.

(٦٩) ابري : تراث فارس ، ص ١٨٤ .
(٧٠) شرف خان البديسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٩٦ .

شديدة خلال حكمه كله ، وكان لا يبدأ التحرك لآى معركة الا بعد ان يصلى هو وجيشه ركعتين يبتهل فيهما للتماس المساعدة من الله (٧١) ، علاوة على انه كان يتبع الشريعة الاسلامية فى كل شئونه ، حتى انه كان ينصح القضاة والمشايخ قائلا لهم : « حذرونى اذا فعلت شيئا مخالفا للشريعة والدين ، وتأكدوا انه عندما تكون ثلوبيكم صادقة فان كلماتكم سوف تقنعنى ، لأنها سوف تكون معبرة عن الاخلاص والحماس الصادق والشجاعة ، وسوف يكون لها وزنها الكبير ، والا فانها فقط سوف تثير غضبى » (٧٢) .

وكان من مظاهر تطبيق السلطان محمود غازان للشريعة الاسلامية انه كان يعمل على محاربة ضروب الفساد المختلفة كشرب الخمر والبغاء والربا الذى أصدر قرارا بتحريمه ، كما أصدر قرارا بمعاقبة من يتفوه بالفاظ الكفر او اى لفظ يسيء الى الاسلام ، كما الزم شعبه بارتداء العمامة حتى يتميز المسلم من غير المسلم (٧٣) .

أما الأمر الثانى الذى أثار الغبار حول اسلام السلطان محمود غازان ودفع البعض لأن يقول بأن اسلامه هذا كان لمصلحة سياسية او انه لم يكن مخلصا فى اسلامه ، هو ان اسلامه لم يكن له اثر فى توطيد علاقته بسلاطين المماليك فى مصر والشام ، وفضل ان يسير على سياسة من سبقه من ايلخانات المغول الوثنيين فى بسط نفوذه على بلاد الشام ، ولذلك قضى فترة طويلة من حكمه فى محاربة سلاطين المماليك (٧٤) الذين كانوا قد استأصلوا منذ بضع سنوات الوجود الصليبي من تلك البلاد بالاضافة الى حمايتهم لها من خطر الاحتلال المغولى الذى تعرضت له منذ سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/

(٧١) العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٦٥ ،

Saunders : op. cit., p. 136.

Howorth : op. cit., v. 3, pp. 437, 490.

(72) Howorth., op. cit., v. 3, pp. 399, 490.

(٧٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ، ص ١٧٦ ،

مصطفى بدر : نفس المرجع ص ٣٦ — ٣٨ ، ٤٦ — ٤٨ ،

Howorth : op. cit., v. 3, p. 453.

(٧٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ١٧٦ ،

دولة الظاهر بيبرس ، ص ١٠٧ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٨٠ .

١٢٥٨م . وكان الأخرى بهذا السلطان المغولى المسلم أن يحمى ظهر الممالك من الهجمات الصليبية التى بدأت تقصد مصر ذاتها ، ولكنه تقارب مع البابوية وحاول التحالف مع ملوك اوربا والحصول على مساعدات تلك الدول الأوربية الصليبية ، فأرسل سفارات الى ملكى انجلترا وفرنسا لمؤازرته (٧٥) ، واستعان بنصارى الأرمن والكرج (٧٦) تهما كما فعل هولاكو من قبل ، وغزا بلاد الشام أكثر من مرة وارتكب جنده اثناء هذا الغزو من ضروب التدمير والقتل والفساد وارتكاب المنكرات والاعتداء على الحرمات واتخاذ بعض المساجد اصطبلات (٧٧) ، وهو السلطان المسلم الذى كان لا يحل له ولا لجنده ان يفعلوا ذلك او يأتوه .

اذن فقد كانت سياسة غازان الخارجية لا تطابق سياسته الاسلامية الداخلية التى أشرنا الى طرف منها ، ولذلك فقد كانت تبدو وكأنها تتناقض . تهما مع عقيدته الجديدة التى اعتنقها وأظهر الاخلاص لها . والأمر ليس على هذا النحو تماما ، وفك هذا التناقض وتفسير هذا الوجه من سياسة غازان . وبيان وجه الحقيقة فيه ليس بالأمر العسير ، ونحن هنا لا يهمننا أن نتحدث عن مظاهر هذه السياسة او احداثها بقدر ما يهمننا ان نبرز مدى صلتها أو علاقتها بحقيقة اسلامه ، او مدى قربها او بعدها عن دينه الجديد لئلا نرى ان كانت تلك السياسة تمس اخلاصه لهذا الدين أم ان هناك أمورا أخرى دفعت له لاتخاذ هذه السياسة دفعا .

وفى هذا الصدد فإننا سوف نتناول مسألتين متداخلتين لا تنفك احدهما عن الأخرى ، المسألة الأولى هى موقفه من المسيحيين بشكل عام سواء داخل

(٧٥) فايد حماد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٦٢ ، ميور : نفس المرجع ، ص ٧١ .

(٧٦) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢١ ، ٦٧ ، ٦٩ .

(٧٧) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٦ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ، ص ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٦ ، ابن حجر : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٣ ، الشوكانى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣ .

ببلاده أم خارجها ، والمسألة الثانية هى موقفه من سلاطين المماليك فى مصر والشام بالمفهوم الذى أشرنا إليه .

وبالنسبة للمسألة الأولى فقد كان السلطان محمود غازان شديدا وعنيفا فى معاملته لأهل الذمة داخل مملكته ، ذلك أنه « الزمهم الغيار ، فكانت علامة النصارى شد الزنار (٧٨) فى أوساطهم ، واليهود خرقة صفراء فى عمامتهم » . واسترد الدور والتصور والأربطة التى كان المسيحيون قد استولوا عليها عقب استيلاء المغول على بغداد ، وأزال ما بها من تماثيل وخطوط سريانية وجعل بعضها مجالس للوعظ والارشاد الإسلامى (٨٠) . وبلغ التطرف مداه حينما أمر هو ووزيره نوروز بحرق الأيقونات المسيحية أو بتحطيمها وألقائها فى شوارع تبريز ، كما حطمت الكاتدرائية النسطورية وقصر المطران فى مراغة ، ونفى مطران هذه المدينة بعد أن ضرب وعذب بشدة كما صدرت الأوامر بتخريب كل كنائس جورجيا ، وقتل بعض قسيسها وقدم بعض سكانها المسيحيين إلى الموت ، أما الذين هربوا من هذا المصير ، فقد سلبت أمتعتهم وبيعت زوجاتهم وأولادهم فى سوق الرقيق ، وأمر غازان بتحويل كنائس كثيرة ومعابد بوذية إلى مساجد ، وقاسى المسيحيون فى عهده كثيرا من الاضطهاد فى بغداد والموصل وحمص وتبريز ومراغة وبلاد الروم (٨١) حتى أصبح من المتعذر عليهم السير فى الشوارع ، وصارت نساءهم يذهبن إلى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم لصعوبة التمييز بينهن وبين نساء المسلمين (٨٢) .

(٧٨) الزنار جمعه زناتير ، وهو حزام ، أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة فى العصور الوسطى . أنظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٢٤ .

(٧٩) ابن النوطى : نفس المصدر ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(80) Saunders : op cit., p. 136.

(81) Howorth : op cit ., v. 3, pp 421 — 422, 427;

Saunders : op. cit, pp. 136, 141

(٨٢) محمد جمال الدين سرور نفس المرجع ، ص ١٧٥ .

هذا هو شكل العلاقة التي كانت بين السلطان محمود غازان وبين رعاياه من المسيحيين ، وهى علاقة اعتقد ان فيها كثيرا من المبالغة ، ولكنها تتفق وتحسمه الشدائد لدينه الجديد ، وكما رأينا فقد اضطهد المغول البوذيين حتى يسلوا او يعودوا الى ديار البوذية فى المشرق الأقصى قبل ان يضطهد المسيحيين ويجبرهم على التزام حدودهم وعلى الكف عن نشاطهم التبشيري . فى ديار الاسلام . وهذا الجانب من سياسته لا يدل الا على اخلاصه التام لدينه الجديد الذى اعتنقه ذلك الحاكم القوى دون ارغام او اكراه .

ولا يتناقض مع هذه السياسة — من وجهة نظره كما سنرى — ما عرفه عن اتصاله بالبابا بونيفاس الثامن وبعض ملوك اوربا الصليبية ، ذلك ان هذا الاتصال كان يخدم سياسته تجاه بلاد الشام . وكانت تلك السياسة تلتقى فى جانب منها مع اهداف البابوية ، فالبابا كان يريد محالفة مغول ايران بعد ان نجح الاشراف خليل بن قلاوون فى الاستيلاء على آخر حصن للصليبيين فى عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م ، فهدموا هذا البابا لحرب صليبية ضد مصر عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ، وحاول التحالف مع غازان للانتقام منها ولاستعادة بيت المقدس مرة اخرى . اما غازان فكان يريد ان يحقق حلم آباءه فى السيطرة على بلاد الشام ، ويحطم التحالف الذى كان يربط سلاطين المماليك بأعدائه من مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفقاز ، ويحطم من يقف فى طريقه لتحقيق هذه الأهداف حتى ولو كان وزيره نوروز (٨٣) .

وعلى ذلك فقد تلاقى هدف غازان والبابا فى محاربة سلاطين مصر والشام ، وان كان التحالف بينهما لم يتم ، ولم يصل غازان فى استعاقته بغير المسلمين فى غزوه لبلاد الشام أكثر من ضمه جند الأرمن والكرج الذين كانوا تحت طاعته وحكمه الى جيشه الذى غزا تلك البلاد (٨٤) . ورغم ذلك فقد

(٨٣) المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٨٣٧ ، ٨٧٤ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ، ص ١٧٦ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٣٥ .

(٨٤) ابن ايبك : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ابن خلدون نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٨٨٨ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ملحق ١٥ ص ١٠٢٦ .

حرص غازان على أن يعطى هذا الغزو وجها اسلاميا ، فجعل له تبريرا اسلاميا او ذريعة دينية تجيز له من وجهة نظره هذا الغزو . فهو يقول فى رسالته التى ارسلها للسلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٠هـ / ١٣٠١م بعد انتصاره على جيوش مصر فى موقعة حمص عام ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م ، انه لم يغز بلاد الشام فى ذلك العام الا بسبب « اغارة عسكر مصر على ماردين وبلادها فى شهر رمضان المعظم الذى تعظمه الامم فى سائر الاقطار ، ويغلل فيه الشيطان وتغلق فيه ابواب النار ، فطرقوا (اى جند مصر) البلاد وهتكوا محارم الله عز وجل سرعة بغير مهلة ، واكلوا الحرام وركبوا الاثام وفعلوا مالا تفعله عباد الأصنام ، فأتانا أهل ماردين وبلادها مستصرخين مسارعين ملهوفين ، بالأطفال والحريم ، وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم ، فوقفوا بأبوابنا ولاذوا بجنابنا ، فهزتنا نخوة الكرام وحركتنا حمية الاسلام ، فركبنا على الفور بمن معنا ، ولم يسعنا ان نجمع بقية جيوشنا ، وقدمنا النية وعاهدنا الله على ما يرضيه عن بلوغ الأمنية ، وعلمنا ان الله لا يرضى لعباده ان يسعوا فى الأرض بالفساد ، وانه ليغضب لهتك الحريم والأولاد . . . » ويؤكد غازان فى نهاية رسالته على أن هذا هو السبب الذى جعله يغزو بلاد الشام لأخذ القصاص لأهل ماردين وديار بكر ، وأنه يعتقد الاسلام سرا وعلانية ، ويعمل بفروضة « فى كل وصية » ، وأن اسلامه يجعله هو والملك الناصر مسئولين عن ازهاق ارواح المسلمين ، ولذلك فهو يطلب الصلح بعد أخذ قصاص أهل ماردين (٨٥) .

هذا عن السبب المباشر الذى اظهره غازان لغزوه بلاد الشام ، وهو سبب كما ترى اسلامى الصورة دينى الطابع ، فهو يأخذ القصاص من فئة مسلمة لفئة اخرى مسلمة . ولم يكن هذا الامر او هذا السبب ذريعة كاذبة اتخذها غازان تكئة لغزو بلاد الشام ، فقد اعترف الملك الناصر محمد بن قلاوون بهجوم بعض جنده فعلا على أهل ماردين وبارتكابهم لما اشار اليه غازان ، ولكنه برر ذلك كما هى العادة « بأن الذى فعل ما فعل من الفساد لم يكن

(٨٥) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٥٣ — ٥٥ ، ابن الوردي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، التلغشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٩١٥ ، أبو الحاسن : نفس المصدر ج ٨ ص ١٣٦ — ١٣٩ .

برأينا ولا من امرانا (امرائنا) والأجناد ، بل هو من الأطراف الطماعة ممن لا يؤبه اليه، ولا يعول في قول ولا عمل عليه» (٨٦) كما اسفده لسبب آخر وهو عدم وجود صلح او موادة بينه وبين غازان (٨٧) ، وكأن عدم الصلح يبيح له العدوان على اطراف بلاد غازان ، وهو نفس المنطق الذي كان يسير عليه غازان هو الآخر ، فهو يقول انه كاتب سلاطين مصر وأنذرهم ليرتدعوا عن المظالم والفساد ، وانه لم يحاربهم الا بعد أن رفضوا الزجر والموعظة وبعد أن أودعوا سفراءه السجن تجبرا وغرورا (٨٨) .

ومهما كان من أمر غازان وما اتخذ من عدوان جند مصر على أهل ماردین كسبب لغزوه بلاد الشام ، وما اعطاه لهذا السبب من شكل اسلامي كما ترى ، فقد رأى غازان سببا آخر اعطاه نفس الحجة على سلاطين مصر ، وكان لهذا السبب ايضا نفس الطابع ونفس الشكل الاسلامي ، وهو في هذه المرة لا يتهم جند مصر بالعدوان والفساد ، ولكنه يتهم سلاطين مصر انفسهم بهذه الصفات ، ويشير الى ظلمهم وخروجهم على مقتضيات الايمان الصحيح ، وأن ذلك هو السبب في غزوه لبلاد الشام انقاذا لها من هؤلاء الحكام الفاسدين الظلمة . يفهم ذلك من نص الأمان الذي اعطاه غازان لأهل دمشق عقب استيلائه على شمالي بلاد الشام عام ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م ، اذ يقول لهم في هذه الأمان انه سمع ان « حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم قيام ولا انتظام وكان احدهم (اذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد) (٨٩) ، وشاع شعارهم بالحيف على الرعية ، وأضاعوا الحقوق المرعية ، ومدوا ايديهم العادية الى حريمهم وأموالهم واولادهم وعيالهم ،

(٨٦) ابن ابيك الدواداري : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٨٧) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٤٤ ، المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١٨ ، ١٠١٩ .

(٨٨) المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١٣ ، ١٠١٤ .

١٠٢٥ .

(٨٩) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، آية رقم ٢٠٥ .

والتخطي عن جادة العدل والانصاف ، وارتكابهم الجور والاعساف ، حملتنا
الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية على أن توجهنا الى هذه البلاد لازالة
هذا العدوان واماطة هذا الطغيان . . ونذرنا على أنفسنا ان وفقنا الله تعالى
لفتح البلاد ازلنا الفساد عن العباد ممثلين للأمر الالهى (ان الله يأمر بالعدل
والاحسان) (٩٠) ، فله علينا بذلك الامتنان . . . » (٩١) .

فهو كما ترى يبرر غزوه لبلاد الشام بهذه الأسباب ، ويريد ان يقيم
العدل ويمنع الفساد الذى عم وانتشر فى هذه البلاد ، ولذلك نهانه بمجرد
ان استولى عليها حرص على توشير العدالة لاهلها ، فعين فى حكمها الأمير
سيف الدين قبحق الذى كان حاكما لها من قبل وفر اليه خوفا من بطش
حسام الدين لاجين سلطان مصر فى ذلك الحين ، وحرص غازان على ان ينص
فى فرمان توليته على ان يراعى « تقوى الله فى احكامه ، وخشيته فى نقضه
وابرامه ، وتعظيم الشرع وحكامه ، وتنفيذ افضية كل قاض على قول امامه ،
وليتعاهد الجلوس للعدل والانصاف فى سائر ايامه ، واخذ الحق للمشرؤف
من الاشراف ، وليقم الحدود والتصاص على كل من وجبت عليه ، وليكف الكف
العادية عن كل ما يرد اليه . . . » (٩٢) فغازان حريص على اقامة العدل وعلى
اقامة الحدود وتطبيق الشريعة الاسلامية .

ولا شك ان بعض أمراء بلاد الشام الذين فروا الى بلاط غازان قد
اعطوه صورة سبئة عن سياسة سلاطينهم تجاه الرعية ، وحثوه على القيام
بغزو تلك البلاد لانقاذها من ظلم هؤلاء السلاطين ، ولاقامة الحق واعادة

(٩٠) القرآن الكريم ، سورة النحل ، آية رقم ٩٠ .

(٩١) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢١ ، النويرى :
نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ — ٣٢٦ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١٠
ق ٣ ص ١٠١١ ، ١٠١٢ .

(٩٢) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٧ ، المقرئى :
نفس المصدر ج ١ ق ٣ ، ملحق ١٣ ض ١٠١٥ .

الإسلام الى قلوب أهلها (٩٣) . ويبدو ان امراء المغول وسلطانهم غازان قد صدقوا ما فعله هؤلاء الأمراء الفارون اليهم لدرجة ان أحدهم قال انهم ما غزوا بلاد الشام وما خربوها وما اخذوا أموالها الا لان شيخهم افتاهم بذلك عقابا لأهل تلك البلاد الذين كانوا « لا يصلون الا بالآجرة » ، ولا يؤذنون الا بذلك ، ولا يتفقهون الا بمثل ذلك » . أى بالآجرة (٩٤) . كما ان عقابهم كان لسبب آخر ساقه احد قواد المغول عندما سأل ابن تيمية ان يسرح من عنده من اسرى دمشق، فرفض القائد تسريحهم لأن أهل دمشق فى نظره — هم قتلة الحسين بن على رضى الله عنهما (٩٥) ، رغم بعد الشقة بين أهل دمشق فى ذلك الحين. وبين حادث مقتل الحسين ، ولكن يبدو ان ذلك القائد اعتبرهم كذلك لانهم من نسل القتلة وذريتهم ، فهو يأخذ الذرية بذنب الآباء والأجداد .

فغازان وجنده اذن يغزون بلاد الشام عقابا لأهلها الذين نكصوا عن الدين وصاروا لا يؤدون فرائضه الا اذا اخذوا الأجر على ذلك ، و لان جدودهم قاتلوا أهل البيت وقتلوه ، ون كان هذا الكلام فى رأينا لا يستقيم بحال ، فما لأهل دمشق فى عام ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م بالحسين رضى الله عنه ، وكيف يأخذون الأجر على اقامة الصلاة والأذان ، وممن يأخذونها ، الا أن من صور لهم ذلك سواء كان من بينهم من فقهاء ايران — واعتقد أنهم من فقهاء الشيعة — أم من امراء الشام الفارين اليهم ، نجحوا فى استغلال عواطف المغول الشجيرة نحو الإسلام ، وازادوا من حماسهم له واخلصهم فى نصرته على هذا النحو السقيم ، وخاصة فى عهد غازان الذى ما تولى الملك الا بمساعدة المسلمين من المغول فى بلاده ، والذى جعل الإسلام هو الدين الرسمى للدولة وحاول ان يقتضى على غيره من الأديان فى بلاده كما رأينا . وقد بلغ تحبسه للإسلام

(٩٣) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٤ ، النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقد ١٠٣ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ٨٨٩ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٨٧١ ، ٨٧٢ .

(٩٤) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٣ .

(٩٥) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣٦ .

أن ادعى احد امرائه بأن « جنكيز خان كان مسلما ، وكل من خرج من ذريته مسلمين ، ومن خرج من طاعته فهو خارجي » (٩٦) .

ومعنى ذلك ان غازان ومن معه من امراء المغول وجندهم كانوا يعتقدون في احقيتهم في مقاتلة سلاطين مصر والشام الذين يجب ان يدينوا لهم بالطاعة والولاء ، حيث ان هؤلاء السلاطين ليسوا من بيت ملك ، وهم عبيد اصلا ، فكيف يحل لهم ان يناجزوا غازان او يدعوا شرف الدفاع عن الاسلام (٩٧) . فغازان اذن كان يرغب ان يكون هو صاحب الكلمة الاولى بين المسلمين ، وكان يعتبر نفسه القوة الوحيدة التي تستطيع الدفاع عن بلاد الاسلام ، ومن ثم يجب ان تكون له المكانة الاولى بين ملوك المسلمين (٩٨) ، لانه ينحدر من بيت عريق غزا العالم وخضع لناموس الاسلام ، واتصف بالعدل وعمل على القضاء على الفساد والمظالم (٩٩) .

فسلاطين مصر والشام في نظر غازان وجنده عبيد وخوارج ، وظلمة وفاسدون جبارون يعتقدون على اهل ماردين ويظلمون سكان مصر والشام ، ويجب اخضاعهم لعدل الاسلام ولنواميسه ، ويجب اخذ القصاص منهم لمن اعتدوا عليهم ، من ثم اتى غزو غازان لبلاد الشام عام ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م حيث انتصر على قوات المماليك في حمص وخطب له على منابر دمشق باسم « السلطان الاعظم سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان » (١٠٠) .

هذا هو الوجه الاسلامي لتفكير غازان ولغزوه بلاد الشام ، ولكن كيف يتفق ذلك الوجه مع عيث جنده في بعض نواحي تلك البلاد وما قاموا

(٩٦) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣٢ .

(٩٧) Saunders : op. cit., p. 138.

(٩٨) فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٩٩) ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢١٣ .

(١٠٠) ابن ابيك الدواداري : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٤ ، المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦ — ٨٨٨ ، ٨٩١ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٩٧ .

فيها من افساد وفساد وارتكاب لأشنع الجرائم والمفكرات ؟ (١٠١) وما هو موقف غازان من تلك الأفعال المنكرة التي جعلت البعض يتشكك في اخلاصه للإسلام ، بل جعلت بعضهم يصنفه بالكفر والشرك كما سبق القول ؟

ويجيب على هذه التساؤلات احد الكتاب المعاصرين لغازان ويقول ان هذا السلطان لم يبح لجنده هذه الأفعال ولا ارتضاها منهم ولا أقرهم عليها ، بل عاقبهم بالقتل واصدر مرسوما لجنده « بالآلا يتعرض احد من العساكر على اختلاف طبقاتهم وتباين اجناسها واختلاف لغاتها ، لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الاسلامية ، وان يكفوا أظفار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم ، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه ، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة وآمال مفسوحة ، بعمارة البلاد وبما هو كل واحد بصدده من نجارة وزراعة وغير ذلك من كل صناعة ، وكان هذا الهوج العظيم وكثرة العساكر ، وتزاحم هذه الدساكر ، فتعرض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم الى نهب بعض الرعايا وأسرهم ، فقتلناهم ليعتبر الباقون ويقطعوا أطعامهم عن النهب والسلب وغير ذلك من الفساد ، وليعلموا اننا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة في اذية احد من العباد ، ولا يتعرضوا لأحد من اهل الأديان على اختلاف اديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فكل منهم قد عاد منا في أمان ... » (١٠٢) .

هذا هو موقف غازان من اعتداء بعض جنده على بعض اهالي بلاد الشام ، وهو موقف واضح الدلالة على عدم موافقته على ما قام به بعض جنده الذين كان منهم من لا يدينون بالإسلام ، اذ كان فريق منهم يتظاهر بالإسلام ويخفي الوثنية في قلبه (١٠٣) ، وبعضهم كان حديث عهد بالإسلام ، وآخرون من جند غازان كانوا من الأرمن والكرج المسيحيين ، وهؤلاء كانوا

(١٠١) ابن ابيك : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٦ ،
المقريزي : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٦ .

(١٠٢) ابن ابيك الدواداري : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٢ ، ٢٣ ،
النويري : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ — ٣٢٦ ، المقريزي : نفس
المصدر ، ج ١ ق ٣ ملحق ١٢ ، ص ١٠١٢ .

(103) Howorth : op. cit., v. 3, p. 454.

ينتهزون اى فرصة لصب العذاب على المسلمين ايا كانوا ، ولتخريب المساجد وانتهاك الحرمات . واظن ان ما حدث فى دمشق « وجبل الصالحية من افعال قبيحة مما تقشعر لهول سماعه الأبدان » (١٠٤) ، كان من فعل هؤلاء الجند المسيحيين بالمشاركة مع بعض المغول الذين تظاهروا باعتناق الاسلام ، علاوة على الفتوى التى سبقت الاشارة اليها والتى اُباحت لجند غازان من المسلمين الانتقام من اهل الشام لتقاعسهم عن شعائر الدين او لأنهم كانوا من سلالة قتلة الحسين بن على (رضى الله عنهما) .

هذا هو التبرير الذى ساقه المؤرخون لما فعله جند غازان مسلمون وغير مسلمين ، فى بعض نواحي بلاد الشام ، وهذا هو موقف غازان . ورغم ذلك فان ما حدث من هؤلاء الجند ليس بالشئ الكثير اذا ما قورن بما حدث لاهل هذه البلاد نفسها على ايدى جند الدول الاسلامية الاخرى ، فقد اشار كثير من المؤرخين الى افعال اشد هولاً حدثت على يد الخوارزمية الذين اغاروا على بعض بلاد الشام قبل القزو المغولى لها (١٠٥) بل ان بعض سكان بلاد الشام نفسها « من الجبلية — اى سكان الجبل — والعربان كانوا على

(١٠٤) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٨ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١١ .

(١٠٥) يقول بعض المؤرخين ان جلال الدين خوارزم شاه وصاحب اذربيجان قبل استيلاء المغول عليها ، زحف على مدينة خلاط فى شمال بلاد الشام عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وحاصرها ثم افتحها عنوة واعمل فيها « السيف » وفعل افعال التتار قتلاً واسترقاقاً ونهباً ، ثم قبض على نائبها وقتله « وبعد ذلك بعشر سنوات هاجم الخوارزمية الذين كانوا يسكنون بلاد سلاجقة الروم بعد مقتل سلطانهم جلال الدين على يد المغول عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م ، واغاروا على مدينة حلب ومنج وغيرها ، « وارتكبوا من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتار » « واقبح ما فعله التتار » .

انظر : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣١٧ ، ٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ابو الفدا : تاريخه ج ٣ ص ١٧٥ ، ١٧٦ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٥٣٦ ، ابن الوردي : تاريخه ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ص ٧٦٧ ، ٧٧٢ ، ٧٧٤ .

الناس أشد من التتار حتى كأن لهم على الاسلام تار « (١٠٦) . وهى اشارة الى ما فعله هؤلاء العربان عقب هزيمة جند مصر والشام فى موقعة حمص عام ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م امام غازان ، ويقول ابن ابيك الذى ساق اليها هذا الخبر ، ان ما فعله التتار بدمشق لا يقاس ايضا بما فعله جند الفاطميين همها من قبل ، ولو عرف الناس ما فعله هؤلاء الجند « لاستقل عندهم فعل التتار هذا واستصغروه » (١٠٧) .

وما لنا نذهب بعيدا وواقع الحال ينبؤنا بحدوث مظالم ونكبات حدثت بعد رحيل المغول عن بلاد الشام على يد حكامها ورعاتها من امراء المماليك ، وكانت هذه المظالم لا تقل فداحة وغرما عما نسب للمغول . اذ يحدثنا المؤرخ المعاصر ابن ابيك الدوادارى — وهو احد امراء المماليك وكان مقيما فى بلاد الشام — ان امراء المماليك فرضوا على الناس ضرائب فادحة وصادروا اموالهم حتى ضج الناس « وتسحب اكثر ارباب الاملاك واستخفروا » ، فقام الامراء بقطع الاشجار ، بثمارها وبيعها حطبا بعد فرار اصحابها حتى يجنوا ما ارادوا جمعه من اموال ، ويعلق هذا المؤرخ على ذلك ويقول ان هذا العمل كان على « اهل دمشق اشد من كل شئ مر بهم من اول حال والى ذلك التاريخ » ، ويقول ان هذا المال الذى جمع ظلما سرق الكتاب والجباة معظمه ، وما بقى استقر فى جيوب الامراء ولم ينفق منه شئ فى تحصين البلاد او تحسين احوال اهلها (١٠٨) .

فلا يهولنك ما ذكره البعض عن افعال جند غازان ببعض نواحى بلاد الشام . فالحروب من طبيعتها ان يحدث فيها مثل هذا النعيث والافساد ، ولا يحمل ذلك على صاحب الغزو ويتهم بانه غير مسلم او انه مسلم غير صادق الايمان ، اذ لا سيطرة له على كل الجند عقب احراز نصر او اكتساح بلاد . وقد حدد غازان موقفه مما فعله بعض جنده وعاقبهم بالقتل على النحو الذى سبقت الاشارة اليه ، بل انه بكر بالرحيل عن بلاد الشام بعد ان رأى ثقل وطاة جنده على الناس ومضايقتهم لهم ، ومين فى حكمها سيف الدين شيجى

(١٠٦) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٧ .

(١٠٧) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١٠٨) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٤٤ .

نائب الشام السابق الذى كان قد فر الى غازان ، بعد ان امره باقامة العدالة واقامة الحدود . وقد قابل ابن تيمية امراء غازان وقواد جنده قبل رجيلهم الى ايران ، وشهد لهم بالايمان والاسلام وان فيهم « دين وسكون وصلاة حسنة » وقال « انهم يكتبون فى جميع فرامينهم بقوة الله وبميثاق الملة المحمدية » ، وسمع منهم ان ما جعلهم يفعلون ما فعلوه هو تلك الفتوى التى امتاز بها شيخهم (١٠٩) .

ونحن هنا لا نبرر ما فعله جند غازان او ما فعله السابقون واللاحقون بأهل الشام ، ولكننا نريد ان نضع ما فعله هؤلاء الجند فى موضعه الصحيح ونعطيه حجه الذى يستحقه ، لا نزيد ولا نبالغ كما فعل الآخرون حتى اتهموا هذا الحاكم المسلم بما اتهموه به ، وهو الذى جعل الاسلام هو الدين الرسمى لدولة المغول فى ايران ، والذى تحمس لهذا الدين تحمسا جعله يحاول أن يجعله الدين الوحيد فى دولته ، ففضى على البوذية والشامانية وقلص من حجم المسيحية فى بلاده بمنع نشاطها التبشيري ، فلاقى هذه الديانات على يديه ضربة لم تنق منها ابدا . أما البوذية فقد انسحبت الى مواقعها فى شرقى آسيا ، وأما النصرانية فقد تقوضت على نفسها فى بعض جبال شمالى ايران والعراق . وبذلك حقق الاسلام انتصاره النهائى على هذه الديانات أثناء عهد السلطان محمود غازان ، ولم يتول عرش ايران حاكم مغولى بعده الا وهو معتنق لدين الاسلام ، واتسمت حياة المغول فى معظم أمورها واحوالها منذ ذلك الحين بسمات اسلامية بارزة واضحة لا تكاد تفتقر عما كان موجودا عند المسلمين فى الدول الاسلامية الأخرى ، مما يدل على انفعالهم العميق والكبير بالاسلام وحياته ومظاهره وتقاليده رغم حداثة عهدهم به .

٣ — مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول ايران :

من هذه المظاهر التى يمكن ملاحظتها بسهولة هو أن سلاطين مغول ايران اتخذوا لأنفسهم القبايا واسماء عربية اسلامية ، مثال ذلك تكودار الذى سعى نفسه السلطان احمد تكودار ، وغازان الذى سعى نفسه

(١٠٩) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٥ ، ٣١ — ٣٣ ، المقريزى :

نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١٥ .

السلطان مظفر الدنيا والدين محمود غازان ، وأولجايتو (١١٠) الذى سسمى

(١١٠) ذكر ابن بطوطة ان اسم اولجايتو محمد خدا بنده مختلف فيه ،
فقال ان اسمه خدا بنده بمعنى عبد الله ، لأن (خدا) بالفارسية تعنى اسم
الله عز وجل ، و (بنده) تعنى غلاما او عبدا ، وقيل ان اسمه (خرينده)
بمعنى غلام الحمار او راعى الحمير ، لأن (خر) بالفارسية تعنى الحمار .
وقال ان السبب فى تسميته بهذا الاسم الأخير ان المغول كانوا يسمون
المولود باسم اول داخل على اهل البيت عند ولادته ، فلما ولد هذا السلطان
وكان اول داخل هو الزمال (أى الشخص الذى يحمل الأشياء على الحمير)
وكانوا يسمونه خرينده ، فسمى هذا السلطان به . وكذلك سموا اخاه غازان
او قازان ، فقازان او قازغان وهو الاسم الحقيقى ، معناه (القدر بكسر
الثاني) ، وقيل سسمى بذلك لأن جارية زملت تحملا قدرا عند ولادته . (انظر ،
رحلة ابن بطوطة ، ص ١٥٢) ويذكر هورث Howorth ان اولجايتو لقب
باسم خدا بنده التى تعنى عبد الله ، وان السنيين تلاعبوا بهذه الكلمة ،
وسموا خرينده التى تعنى عبد الحمار وذلك عندما تشيع ، وانه فى معظم
وثائق الدولة كان يسمى اولجايتو محمد خدا بنده ، وتبين النقود التى ضربها
والموجود منها عدد فى المتحف البريطانى ان اسمه المنقوش عليها هو
« غياث الدنيا والدين اولجايتو سلطان محمد » .

Howorth : op .cit., v. 3, pp. 535, 580.

انظر :

وأورد أبو المحاسن بن تغرى بردى رواية تفيد بأن اسم هذا السلطان هو
خدا بنده ، أى عبد الله باللغة الفارسية ، وأن والده هو الذى سماه باسم
خرا بندا الذى يعنى عبد الحمار (لاحظ ان أباه ارغون كان غير مسلم) ، لأن
أباه كان اولاده يموتون وهم صغار ، فقل له بالتسمية القبيحة حتى يعيش
ابنه ، ففعل وسماه بهذا الاسم ، ولما أصبح خدا بنده سلطانا كره هذا الاسم
واستقبحه وهدد من قال به .

انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٣٨ .

وقد ورد اسم هذا السلطان فى بعض كتب التاريخ العربية باسم محمد خرينده
(انظر : أبو الفدا ، ج ٤ ص ٩٩ والعمرى : ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨ ، ٦٨٣ ،
ابن الوردي : ج ٢ ص ٢٦١ ، الديار بكرى : ج ٢ ص ٣٨١ كما ورد فى بعضها
الأخر باسم محمد خدا بنده (انظر : ابن ابيك الدوادارى ، ج ٩ ص ١١٢ ،
١١٨ ، ابن بطوطة : ص ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٩) ، وكذلك ورد بهذا
الاسم فى كتب التاريخ الفارسية (انظر شرف خان البدليسى ص ٢٢ — ٢٤ ،
النظامى عروضى سمرقندى ، ص ١١٢) والاسم الأخير هو الاسم الذى اشتهر
به هذا السلطان .

نفسه محمد خدا بنده ، أى محمد عبد الله وسمى اولاده أبى يزيد وبسطام وأبى سعيد ، وتلقب بلقب غياث الدين ، ثم توالى بعد ذلك أسماء سلاطين مغول إيران على هذا النحو . بل ان بعضهم سمي اولاده على اسماء المدن العربية مثل دمشق وبغداد ونحوها ، انفعالا بالاسلام وأهل بلاده (١١١) .

يضاف الى ذلك ان مغول إيران : سلاطين وأمرء وخواتين وجندا ورعية حافظوا على اداء الفرائض الاسلامية من صلاة وصيام وحج ونحوها ، وتحمسوا لادائها تحمسا شديدا وبالغوا فى ذلك حتى ان الخواتين كان لكل واحدة منهن امام ومؤذن وقراء للقرآن خاصون بها (١١٢) . وكانت مجالس العلم تعتقد برعاية الخوانين والخواتين ، وتحت اشرافهم وعلى سبيل المثال كان السلطان محمد خدا بنده يجتمع فى مجلسه العلماء والحكماء والمنجمون ومؤرخو الأديان والشعوب من جميع البلاد الاسلامية وغيرها ، فكان مجلسه يضم علماء وحكماء الخطا والصين والهند وكشمير والتبت والأويغور واقوام الترك الآخرين والعرب والفرنج (١١٣) وكانت الخواتين (أى زوجات السلاطين والأمرء من المغول) بحكم كثرتهم وفراغن أكثر اقامة لمجالس العلم التى كانت تعتقد فى المدارس والمشاهد والزوايا بحضور القضاة والفتهاء والشرفاء وطلبة العلم الذين كانوا يأخذون فى تلاوة القرآن الكريم بأصوات حسان حتى ينتهوا من قراءته كله ، ثم يؤتى لهم بالطعام والفواكه والحلوى ، نابذاً إنتهى القوم من الطعام قام الواعظ يخطب الحاضرين ويعظهم ، ويستمر هذا المجلس العلمى الدينى من بعد صلاة الظهر الى صلاة العشاء ، كل ذلك والخاتون بجوارهم وفى غرفة تطل على الحاضرين ، وكانت الخاتون تعتقد هذا المجلس العلمى دوريا كل ليلة اثنين فى ضريح احمد بن موسى الكاظم اذى على الرضا العلوى ، وتعتقد أيضا مجاسا آخر كل ليلة جمعة فى ضريح آخر هو ضريح القطب أبى عبد الله بن خفيف بشيراز (١١٤) .

(١١١) ابن ابيك الدوادار : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٨٩ ، ٣٤٥ ، أبو الفدا ، ج ٤ ص ٩٩ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١١٦٢ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٨ ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٨ .

(١١٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٥ .

(١١٣) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ١ ص ١٩٥ .

(١١٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد بلغ من عمق العقيدة الإسلامية في نفوس سلاطين مغول إيران أنهم كانوا يذكرون أسماء الخلفاء الراشدين على منابر بلاهم في خطبة الجمعة (١١٥)، بل أن عملتهم كانوا ينقشون عليها أسماء هؤلاء الخلفاء ما عدا فترة قليلة كان السلطان محمد خدا بنده قد تحول فيها إلى مذهب الأئمة الاثنى عشرية، فحلت أسماء الإمام علي بن أبي طالب وابنائه وبقية أسماء الأئمة الاثنى عشر محل أسماء الخلفاء الراشدين (١١٦). ولم يلبث هذا السلطان نفسه أن عاد إلى مذهب السنة وسار من أتى بعده من سلاطين المغول في إيران على هذا النحو كما سيجيء في حينه.

وقد ذكر هؤلاء السلاطين أسماء الخلفاء الراشدين في خطبهم وعملتهم حتى يتجنبوا ذكر أسماء الخلفاء العباسيين الذين كانوا يعيشون في القاهرة وقتذاك بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد هولاكو، ويعود السبب في ذلك إلى علاقة العداء التي كانت قائمة بين مصر ومغول إيران لفترة طويلة منذ ذلك الحين، وإلى العداء والكراهية التي كان يكنها الخلفاء العباسيون في مصر لبيت هولاكو بالذات، وهو البيت الذي قضى على الخلافة العباسية في بغداد وورث حكمها في العراق ونفوذها الأدبي في المشرق الإسلامي. وقد بذل الخليفة العباسي المستنصر بالله بمصر محاولة لاسترداد العراق بتشجيع من الظاهر بيبرس، وذهب مع بعض الجند إلى بلاد الشام وقصد بغداد عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م ولكن محاولته فشلت بعد أن تخلى عنه من كان معه من قلبي الجند عند اللقاء مع التتار قرب الأنبار، وانتهت هذه المحاولة بهزيمته وموته ولم تتكرر بعد ذلك (١١٧)، واستمر العداء بين العباسيين في مصر وسلاطين مغول إيران مما دفع بهؤلاء السلاطين إلى عدم ذكر أسماء

(١١٥) المصدر السابق، ص ١٣٨، العيني: نفس المصدر، ج ٢٣ ق ١ ورقة ١٠٣، Howarth: op. cit., v. 3, p. 399.

(١١٦) رشيد الدين الهمداني: نفس المصدر، م ٢ ج ١ ص ١٣٧، ١٣٨، العيني: نفس المصدر، ج ٢٣ ق ١ ورقة ١٠٣، ١٠٤، ibid: v. 3, p. 580

(١١٧) ابن كثير: نفس المصدر، ج ١٣ ص ٢٣٢، أبو شامة: نفس المصدر، ص ٢١٤، المقرئ: نفس المصدر، ج ١ ق ٢ ص ٤٥٠، ٤٦٢، ٤٦٧، ميور: نفس المرجع، ص ٤٣.

العباسيين. على منابر بلادهم ، كما أدى الى عطفهم على الشيعة ، بل ان احدهم اصبح شيعيا وحاول ان يصبغ الدولة كلها بهذه الصبغة(١١٨) .

وهكذا بلغ التحمس والانفعال بالاسلام درجة واضحة في هذه الناحية وهو ظهور المذاهب المختلفة للسنة والشيعة عند مغول ايران . فالسلطان محمود غازان (٦٩٤ — ٧٠٣هـ / ١٢٩٥ — ١٣٠٤م) كان سنيا ولكنه كان لا يرغب ان يكون سلطانا للسنة وحدهم ، بمعنى انه لا يود ان يتحيز لهم ضد غيرهم من اصحاب المذاهب الاخرى ، ولذلك فقد مد يد الصداقة والعطف للشيعة وآل البيت ، فبنى منازل في المدن الكبيرة مثل تبريز واصفهان وشيراز وبغداد وغيرها لرعايتهم ، وخصص اوقافا خيرية للانفاق منها على الاشراف من آل علي بن ابي طالب (رضى الله عنه) ، وأمر بمد قنوات مائية الى كربلاء ومشاهد الشيعة الاخرى بالعراق ، وقام بنفسه تكريما للشيعة بزيارة ملكية الى مشهد الحسين بن علي (رضى الله عنهما) في كربلاء ، وذهب غازان الى ابعد من ذلك عندما قرر ان النبى (صلى الله عليه وسلم) ظهر له في المنام مرتين مصحوبا بعلي بن ابي طالب وابنيه الحسن والحسين حيث تقدمهما له مخبرا اياه ان يعاملهما كالخوة له ، وأمره ان يسلم عليهما ويعانقهما(١١٩) .

ولا شك ان هذه الرواية من وضع الشيعة الذين حاولوا استمالة سلاطين المغول الى صفونهم ضد اهل السنة ومذهبهم ، وهى محاولة كتب لها الفشل في النهاية في عهد السلطان اولجايتو محمد خدا بنده (٧٠٣ — ٧١٦هـ / ١٣٠٤ — ١٣١٦م) ، وهو اخو السلطان السابق غازان ، وكان هذا السلطان الذى اشتهر باسم محمد خدا بنده قد اتبع المذهب الحنفى بتأثير الأئمة الذين كانوا يحيطون به عندما كان واليا على خراسان أثناء حكم أخيه السلطان محمود غازان . ولما توفي غازان واعتلى اخوه محمد خدا بنده عرش البلاد تحول الى المذهب الشافعى عام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م بتأثير وزيره رشيد الدين فضل الله الهمداني صاحب كتاب جامع التواريخ والذى كان يميل

(١١٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١ .

(119) Howorth : op. cit., v. 3, p. 453 ;
Saunders : op. cit., p. 136.

الى هذا المذهب ويحمى اتباعه ويعمل على نشره . وقد تمكن هذا الوزير من ان يصدر قرارا بتعيين نظام الدين عبد الملك الشافعى المذهب قاضيا لقضاة ايران كلها ، مما رفعه فوق فقهاء الحنفية ، فقام احدهم بمناظرة هذا القاضى الشافعى ، وأخذ كل منهما يسفه الآخر ويعيب مذهبه فى حضور السلطان محمد خدا بنده ، مما كان له تأثير سىء فى نفس هذا السلطان ونفس ضباطه ، لدرجة انه تساعل لماذا ترك ديانة آباءه واجداده الى هذه الديانة التى ينقسم اتباعها شيعة وفرقا تسفه كل واحدة منها الاخرى وتبجحها . وقد انتهز الكهنة الشامانيون هذه الفرصة واشاروا على السلطان بالتخلى عن عقيدة الاسلام ، ولكنه رفض ذلك واستجاب لمشورة احد امرائه الذى اشار عليه بأن يتحول الى مذهب الشيعة الامامية الاثنى عشرية . وقد استنكف السلطان فى البداية فمن أن يصبح رافضيا شيعيا يخالف اهل السنة والجماعة ، ولكن هذا الأمير ، او احد فقهاء مذهب الأئمة الاثنى عشرية وهو السيد تاج الدين الاوى الرافضى ، نجعله يتحول الى هذا المذهب ، وقال احدهما او كلاهما له ان السنة والشيعة لا يختلفان الا فى ان الشيعة يقولون بوراثة الحكم فى آل على بن ابي طالب متفقين فى ذلك مع قوانين المغول فى مذهب توريت الحكم لآل جنكيز خان حسب اليساق ، وأن السنة يقولون بغير ذلك ويجيزون للناس من غير البيت الحاكم ان يتولوا الحكم مما يناقض قوانين المغول فى وراثة الحكم ، فاقترح السلطان محمد خدا بنده وتحول الى مذهب الأئمة الاثنى عشرية منذ عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م . يؤيد ذلك النقود التى ضربها هذا السلطان فى ذلك التاريخ ، فقد جاءت النقوش والكتابات المدونة عليها مخالفة للنقود التى سكنت قبل ذلك والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة ، اما النقود التى ضربها بعد تشييعه فتذكر أسماء على وابنائهم وبقية أسماء الأئمة الاثنى عشر (١٢٠) .

ولم يكتف هذا السلطان بذلك بل أمر بتغيير صيغة خطبة الجمعة لتتفق مع مذهبه الشيعى الجديد ، وطلب من قواده واتباعه أن يسيروا على منهجه ،

(١٢٠) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ج ٩ ص ٣٤٦ ، شرف خان البديلى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١ ، العمري : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٦ ، الديار بكري : نفس المصدر ج ٢ ص ٣٨١ ، النظامى عروضى السمرقندى : نفس المصدر ، حاشية ٢٧ ص ١١٢ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ ص ١٦٣
Howorth : op. cit., v. 3, pp. 557-559, 580.

فأطاعوه جميعا عدا القليل الذى صمم على البقاء على مذهبه (١٢١) ، وحاول هذا السلطان أيضا ان يحمل جميع رعاياه فى كافة الأمصار التابعة له على اتباع هذا المذهب وكتب بذلك الى العراقيين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان ، وسعت الرسل الى تلك البلاد لتنفيذ أوامره ، فامتنع اهل بغداد عن ذلك وهددوا خطيب المسجد بالموت ان غير فى شعائر الصلاة او حذف اسماء الخلفاء الراشدين من الخطبة ، وفعل مثل ذلك اهل شيراز وأصفهان ، فأمر السلطان باستدعاء قضاة هذه البلاد كي يحاسبهم ويعاقبهم على عصيان أوامره . وكان قاضى بغداد هو « الشيخ الامام قطب الاولياء نريد الدهر ذو الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد » ، فأمر السلطان بالقائه طعنة لكلا بئس شرسة تأكل احبه كان يقتنيها هذا السلطان لمثل هذه الأمور . فلما اطلقت الكلاب على ذلك القاضى « بصبست اليه وحركت أذناها بين يديه » ولم تنله بسوء . ولما علم السلطان بذلك خرج حافى القدمين وأكب على رجلى القاضى يقبلهما ، واخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من ثياب — وهى عادة عند المغول كانوا يفعلونها مع من يودون المبالغة فى تكريمه ورفع شأنه — ثم قام السلطان وأدخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ، وتراجع السلطان عن مذهب الشيعة الإمامية وكتب بذلك الى جميع أنحاء دولته وأمر الناس ان يسيروا على مذاهب اهل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء لذلك القاضى واعاده الى بلاده معززا مكرما واعطاه ضمن ما اعطاه مائة قرية من قرى جهمكان ، والزم نفسه بزيارة قبر الامام احمد بن حنبل فى بغداد اثناء الليل ، فكان يذهب الى هناك حيث يجلس ويبكى عند القبر ويستغفر ربه من الذنوب ويعود دون ان يشعربه احد (١٢٢) .

وهكذا انتصر اهل السنة والجماعة على الشيعة وعاد المغول

(١٢١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ج ٩ ص ٢٠٦ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،

ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٨ ، ميور : نفس المرجع ، ج ٨١ .
Howorth : op. cit., v. 3, p. 559.

(١٢٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن حجر : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٦٨ ، العيني : نفس المصدر ، ج ٢٣ ق ١ ورقة ١٦ ، ١٧ ، ١٠٤ .

وسلاطينهم الى مذاهب السنة مرة اخرى ، واعلن السلطان ابو سعيد بهادر خان بمجرد توليه العرش بعد وفاة والده محمد خدا بنده عام ٧١٦هـ / ١٣١٦م التزامه بمذهب ابي حنيفة ، واحاط نفسه بفقهاء الحنفية ورجال الدين والمثقفين (١٢٣) . وأمر باراقة الخمر في مدينة السلطانية — التي بناها ابوه واتخذها عاصمة للبلاد — وبغداد وغيرهما من مدن الدولة ، وأمر بالمفاداة في الناس بقتل اى انسان يوجد عنده شئ من الخمر ، ونفذ القتل فعلا في رجلين بسبب ذلك ، كما امر بتزويج البغايا حتى يقضى على البغاء (١٢٤) .

ولم يفعل المغول وسلاطينهم بالاسلام ومذاهبه وتقاليده على هذا النحو فقط ، بل ان بعضهم تحول الى حياة الصوفية بها غيها من زهد شديد وتكشف ورع بالغ . وقد بلغ الأمر بأحد امرائهم المتصوفين أنه كان يلبس تحت ثيابه ذوبا خشنا مصنوعا من شعر الماعز أو وبر الجمال ، ولما ظن حراس السلطان ابي سعيد ان ذلك الثوب الداخلى الغليظ ربما يكون درعا وضعه ذلك الامر تحت ثيابه خيفة على نفسه من الاغتيال او التعرض لاي اذى ، بوأرادوا معرفة حقيقته فمسكوه من ثيابه على سبيل المزاح والمضحكة ، ولما تبين لهم وللسلطان حقيقة امره قام اليه السلطان وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له : سن آطا ، اى (انت ابنى) بالتركية ، واعطاه هدية قيمة (١٢٥) .

وقد بلغ من حب هذا الأمير المغولى للصوفى للاسلام انه تعلم اللغة العربية وكان يتكلم بها ، مما يدل على رغبة أكيدة في تعلم علوم الدين بولغته (١٢٦) التى اعتنى بها المغول ، ولم يكن هذا الأمير المغولى هو الوحيد الذى تعلم العربية من بين امراء المغول وملوكهم ، فقد كان السلطان محمود غازان الذى جعل الاسلام الدين الرسمى للدولة يفهم اكثر ما يقال باللسان العربى بجانب المامه التام باللغة الفارسية . وكان تعلم اللغة العربية والفارسية ونسخ الكتب العربية وخاصة القرآن الكريم مزدهرا في دولتهم

(١٢٣) العيني : نفس المصدر ، ج ٢٣ ق ١ ورقة ١٠٧ ،
Howorth : op cit ., v. 3, p 624

(١٢٤) العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٩١ ، ابن الوردي :

نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، القرىزى : نفس المصدر ج ٢ ق ٢
ص ٣٩٧ ، ٤٠٤ .

(١٢٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣١ .

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

وعلى أيامهم حتى ان فن النسخ والتجليد والتذهيب وصل فى عهدهم الى ارقى مستوى ، يظهر ذلك من المصاحف الرائعة التى طلبها السلطان محمد خدا بنده من فناني همدان وقاشان وبغداد والموصل (١٢٧) . كما أدت رعاية سلاطين المغول لعلوم الدين ولغته الى ازدهار كبير للثقافة الدينية والأدبية وخاصة فى عهد السلطان أبى سعيد بهادر خان (٧١٦ — ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ — ١٣٣٥ م) حيث ظهر فى عهده نوابغ الشعراء والأدباء واثان من اشهر المؤرخين (١٢٨) أحدهما سبقت الاشارة اليه وهو رشيد الدين الهمداني ، والثانى هو فخر الدين ابو سليمان عبدالله البناكتى صاحب كتاب فى التاريخ يسمى «روضة اولى الالباب» (١٢٩) . وذلك ليس بغريب اذ ان هذا السلطان تربى فى بيت يروج بالعلم ، اذ كان ابوه اولجايتو محمد خدا بنده يميل شخصيا الى البحث والاطلاع على انواع العلوم والمعارف والى الاستقصاء لفنون الحكايات والتواريخ ويمضى أكثر وقته فى اكتساب صنوف الفضائل والكمال (١٣٠) .

وقد أدى هذا الانفعال بالاسلام ومذاهبه وتقاليده ولغته وعلومه ان ظهر احترام سلاطين المغول الكبير لعلماء الاسلام وفقهائه ورجاله . فالسلطان محمد خدا بنده كان يعظم العلماء والفقهاء ويرفع منزلتهم فى مجلسه وأمام كبار رجال دولته ، فقد كان يجلس الشيخ صفى الدين الأردبيلى على يمينه على المائدة ، والشيخ علاء الدولة السنائى على يساره (١٣١) ، وما سلف من حديثنا عن تأثيره بأحد فقهاء الشيعة الامامية ثم عودته الى السنة بعد ان رأى كرامة احد علمائها واظهاره الاحترام العظيم لهذا العالم حتى انه امر بادخاله الى نسائه للتبرك به ، وحتى انه قبل رجله واعاده الى بلده عزيزا مكرما لدليل كبير على مدى تغلغل الروح الدينية فى نفس هذا السلطان المغولى المسلم الذى رعى حرمة علماء الاسلام واجزل لهم العطاء وعمل على نشر مؤلفاتهم حتى انه امر بأن تنسخ مؤلفات رشيد الدين فضل الله الهمداني

(١٢٧) ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٩٢ ابرى : نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(128) Howorth : op. cit., v. 3, pp. 626-627.

(١٢٩) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ١ ص ١٢٦ ،

(١٣٠) المصدر السابق : م ٢ ج ١ ص ١٩٤ .

(131) Howorth : op. cit., v. 3, p. 537.

فى التاريخ وغيره والتى كانت تتع فى عشرة مجلدات تشتمل على ثلاثة آلاف ورقة ، على نفقة الدولة ، وامر بأن توضع هذه المؤلفات فى المسجد ، واعطى صاحبها مكافأة ضخمة (١٣٢) .

أما ابنه السلطان أبى سعيد فقد كان أكثر من أبيه رعاية واحتراما لفقهاء الاسلام ، وكان ولاته وكبار رجال دولته يسيرون على نفس هذا المنوال ويعطينا ابن بطوطة الذى زار هذه البلاد فى عهد هذا السلطان صورا حية . تنطق بالاحترام الشديد الذى كان يحظى به فقهاء الاسلام وعلمائه فى هذا العهد . من ذلك ما حدث عندما وصل رسول السلطان أبى سعيد — وهو أمير مغولى — لزيارة القاضى الشيخ مجد الدين بن محمد بن خداد فى شيراز وكان هذا الأمير قد قدم فى نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدمه وأصحابه ، ونزل خارج شيراز ثم دخلها فى خمسة من رجاله فقط ، ولما وصل الى منزل ذلك القاضى ، دخل اليه وحده منفردا تأدبا واحتراما . ولما رآه خلع « شاشيته » (١٣٣) عن رأسه وأكب على رجل القاضى يقبلها وجلس بين يديه . ممسكا بأذن نفسه احتراما لذلك القاضى على عادة المغول (١٣٤) . وقد فعل نفس الشيء ملك شيراز ابواسحاق بن محمد شاه ينجو ، ورأى ذلك ابن بطوطة بنفسه عندما كان فى زيارة لهذا الشيخ عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م بعد عودته من بلاد الهند ، ووصف لنا هذا الملك المغولى وقال عنه أنه كان من خيار الحكام والسلاطين ، وأنه كان حسن الصورة والسيرة والهيئة ، كريم النفس جميل الأخلاق متواضعا (١٣٥) . وهى صورة تغاير تماما ما عرفناه من صورة المغولى الذى رأيناه يخرب ويدمر أمام جنكيز خان وهولاكو . ولا شك ان هذا التغيير لا يعود الا لتسرب الاسلام وحضارته بروحها وتقاليدها الى عقول وقلوب هؤلاء المغول ، فبالغوا فى احترام فقهاء الاسلام وأعلوا مكانة علمائه على هذا النحو الذى أشرنا اليه ، كما أنهم أكثروا من بناء المنشآت الدينية حفاظا عليه ورعاية لعلومه وفنونه .

(132) Ibid : v. 3, p. 561.

(١٣٣) الشاشية او الشاش هو ما يلف حول غطاء الرأس من قماش برقيق ، انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٢٧ .

(١٣٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

(١٣٥) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

واكتثار مغول ايران من المنشآت الدينية والعلمية الاسلامية ظاهرة جديرة بالتسجيل ولها دلالتها المعبرة عن مدى انفعالهم بالاسلام وتقاليده . فالسلطان محمود غازان يبنى الكثير من المدارس والمساجد والحمامات في جميع أنحاء دولته وخاصة في القرى والنواحي الخالية من هذه المنشآت ، كما بنى جامعا ومدرسة بجانب القبة التي انشأها في دار السلطنة بتبريز لتكون ضريحاً له (١٣٦) . وقد زار ابن بطوطة هذا الضريح ووجد عليه مدرسة وزاوية يقدم فيها الطعام للوارد والصادر من الناس (١٣٧) . كما امر غازان بتخصيص كثير من الأوقاف لتزويد المؤسسات التي امر بانشائها بالأثاث والأواني والمصابيح والأخشاب وكافة النفقات الضرورية المتنوعة ، كما خصص اوقافاً أخرى لرعاية مائة من الصبيان الذين كانوا يتعلمون القرآن الكريم ويحفظونه عن ظهر قلب ، وخصص اوقافاً أخرى للصرف على المحتاجين والاقطاء وغيرهم ، وحرر بذلك سبع وثائق حفظت واحدة منها عند ناظر الوقف في تبريز وأرسلت واحدة لتحفظ في الكعبة بمكة المكرمة ، وثالثة حفظت في الأرشف بتبريز ، ورابعة في دار القضاء ببغداد ، وأرسلت الوثائق الثلاث الباقيات لتحفظ في سائر الولايات ، وعين رشيد الدين بن فضل الله الهمداني لمراقبة تنفيذ ذلك (١٣٨) .

وقد سار الوزراء ورجال الدولة على سياسة غازان في الاكتثار من انشاء المساجد والمدارس سواء في تبريز أم في غيرها من النواحي واثقفوا عليها الأوقاف ، مما مكن الناس من اقامة الشعائر الدينية في القرى التي كانت تخلو من هذه المنشآت (١٣٩) فالوزير الختلائي على شاه — على سبيل المثال — بنى جامعا كبيرا في تبريز كان ارتفاع جداره الأمامي ثمانين ذراعاً . وقد زار ابن بطوطة هذا المسجد الجامع عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ، ورأى على جانبه مدرسة وزارية وقال ان صحن هذا المسجد كان مفروشاً بالمرمر وجدرانه

(١٣٦) شرف خان البديسي : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٧ ،
Howorth : op. cit., v. 3, p. 453.

(١٣٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٦ .
(138) Howorth : op. cit., v. 3 ,pp. 451-452 ;
Saunders : op. cit., p. 137.

(١٣٩) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٣٦ — ٣٧ ،
Howorth : op. cit., v. 3, p. 453

مكسوة بالقيشاني ، ويشقه نهر ماء ، وبه انواع الاشجار المختلفة ، وان القراء كانوا يقومون بقراءة بعض سور القرآن الكريم عقب صلاة العصر في سحن هذا المسجد كل يوم ، ويجتمع لذلك اهل هذه المدينة (١٤٠) .

ونتيجة لكثرة الانشاءات التي امر السلطان محمود غازان ورجاله بانشائها وخاصة في تبريز ، فقد تحولت هذه المدينة لتصبح عاصمة كبرى جميلة مزدحمة بالمساجد والأسواق والحصانات والمدارس تحيط بها الحدائق والخانات ، ويتبعها كثير من الأوقاف الخيرية سواء كانت اراضى زراعية اخذ الفلاحون في اصلاحها وزراعتها نظير اعفائهم من الضرائب خلال السنة الأولى من عملهم فيها ، ام بنايات ومؤسسات رصدت لها الاموال اللازمة لتجديدها أو انشائها من جديد ، كما اخذت تبريز تزدان بالطرق النظيفة والكبارى التى تسهل الدخول والخروج منها ، حتى أصبحت قبلة الناس وقبلة العلماء والتجار ، وتحولت الى مركز من مراكز الثقافة الاسلامية البارزة في دولة مغول ايران (١٤١) .

وقد سار السلطان محمد خدا بنده على نهج اخيه محمود غازان في هذا الميدان ، فأكثر من بناء المدارس وعين فيها الاساتذة والمدرسين ، فبنى قرب مقبرته مدرسة عين فيها ستة عشر أستاذا ، وكان يتعلم فيها مائتان من الطلاب (١٤٢) . كما امر هذا السلطان بأن تصرف اموال الأوقاف حسب ارادة أصحابها دون ان ياخذ الموظفون العشر من ريعها كما كان متبعاً من قبل (١٤٣) ، كما بنى عاصمة جديدة للدولة بين قزوین وهمدان عام ٧١٣هـ / ١٣١٢م وسماها السلطانية . وقد ازدهمت العاصمة المغولية الجديدة بالكثير من القصور والمساجد والمدارس والمستشفيات التى كانت مزودة بالأطباء والأدوية وما يحتاجه المرضى ، كما بنى فيها مسجداً جامعاً على نفقته الخاصة ومدرسة على نمط المدرسة المستنصرية في بغداد ، وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة في بناء المنازل الجميلة بتلك المدينة ، حتى ان احد احيائها كان

(١٤٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٦ ،

(141) Howorth : op. cit., v. 3, p. 542 ;

Saunders : op cit., p. 137.

(142) Howorth : op. cit., v. 3, p. 559.

(143) Ibid : op. cit., v. 3, p. 536.

يحتوى على عشرة آلاف منزل مبنية على نفقة الوزير رشيد الدين خاصة ، وكان السلطان محمد خدا بنده ينفق خمسين تومانا كل عام فى بناء هذه المدينة ، مما يدل دلالة مؤكدة على نهضة عمرانية اسلامية كبيرة حدثت فى عهد هذا السلطان ، واصبحت مدينة السلطانية التى بناها تمثل احد مراكز الثقافة الاسلامية الهامة سواء فى نشر هذه الثقافة أم فى نشر الاسلام ذاته ، فقد تحول اليه عدد كبير من الأطباء اليهود الذين كانوا يعملون بها ، كما تحول اليه عدد من المغول الذين كانوا لا يزالون على الشامانية او البوذية (١٤٤) .

وقد ازدادت هذه الحركة نشاطا وقوة فى عهد السلطان ابي سعيد ومن أتى بعده من حكام المغول ، وضرب الوزراء والخواتين وحكام الأقاليم بسهم واغر فى هذا الميدان . مثال ذلك طاش خاتون أم الأمير ابي اسحاق حاكم شيراز التى قامت ببناء مدرسة كبيرة وزاوية كانت تقدم الطعام للواردين على شيراز ، كما خصصت الرواتب للمدرسين والفقهاء والطلاب ، وكانت تعقد فيها مجالس العلم وقراءة القرآن بطريقة دورية ومنظمة ، وكانت تدق لها الطبول والأنفار والبوقات عند حضورها لسماع هذه المجالس كما كان يفعل مع الملوك والسلاطين (١٤٥) . وقد بلغ من حمس امراء المغول فى بناء الزوايا والمساجد والمدارس ان واحدا منهم عمر وحده اربعمائة وستين زاوية وقسم خراج بلاده لثلاثة اقسام ، قسم ينفق منه على تلك الزوايا والمدارس — ويلاحظ ان الزاوية كانت تسمى ايضا باسم مدرسة فى ذلك العهد — وقسم ثان يخصص لرواتب الجند ، والقسم الثالث يخصص لنفقاته وأسرته وعبيده وخدمه ، ويهدى منه لسلطان المغول فى تبريز (١٤٦) .

وقد برزت فى هذه الفترة مدينة شيراز كمركز هام من مراكز الثقافة

(١٤٤) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠ ، رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١٦٦ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٦٣ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ٢ ق ٢ ص ٣٩٠ ، ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٨ .

Howorth : op. cit., v. 3, pp. 537, 560, 501, 582.

Saunders : op. cit., p. 143-144

(١٤٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٤٢ .

(١٤٦) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

الاسلامية حتى انها كانت تنافس مدينة دمشق فى حسن اسواقها وبساتينها وانهارها ، وتقوى اهلها وصلاحهم وورعهم وتدينهم وعلمهم ، حتى ان نساءها كن يجتمعن لسماع دروس الوعظ والارشاد كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالمسجد الجامع فى اعداد كبيرة تصل الى الالف والالفين بأيديهن المراوح تروحن بها على انفسهن من شدة الحر (١٤٧) ، مما يدل على نهضة اسلامية كبيرة فى فترة الحكم المغولى لايران . وقد اضرينا صفحا عن ذكر اسماء العلماء والفقهاء والكتاب والأدباء والمؤرخين الذين ازدانت بهم مراكز الثقافة الاسلامية فى هذا العهد نظرا لكثرتهم من ناحية ، ونظرا لتوافر ذلك فى كتب الادب والتاريخ القديمة والحديثة، ولأن هذه البلاد من البلاد الاسلامية العريقة التى ضربت بسهم وافر وعظيم فى مجال الثقافة الاسلامية قبل ظهور المغول بعصور طويلة ، فلا حاجة للحديث عنها ، بخلاف بلاد التفجاق التى انشأ فيها المغول مراكز عديدة للثقافة الاسلامية وظهر فيها علماء لم نسمع عنهم من قبل ، وحركة اسلامية وليدة كان من المستحسن ان نتحدث عنها فى شئ من التفصيل وقد فعلنا .

اما وقد انتهينا من الحديث عن جوانب هامة من جوانب الحياة الاسلامية ومظاهرها فى حياة مغول ايران ، فلا بد لنا أن نتحدث عن بعض الجوانب الاخرى المتبقية ، وهى تتلخص فيما حرصوا عليه من تأديتهم لفريضة الحج ، وما قاموا به من اتصال بالدول الاسلامية المجاورة وخاصة مصر . اما الحج فقد كان السلطان محمود غازان من اوائل السلاطين الذين سهلوا السبل لأداء هذه الفريضة وساعدوا الناس على ادائها ، فقد خصص مبالغ كبيرة للانفاق منها على الحجاج وعلى قوافل الحج التى انتظمت فى عهده بين ايران وبلاد الحجاز ، وعين اميرا خاصا على رأس فرقة عسكرية لحراسة هذه القوافل حتى تبلغ مأمنها ، كما ارسل كسوة للكعبة مطرزة بالقطب هذا السلطان ، كما ارسل اثنى عشر تومانا من الذهب لمشايخ العرب فى مكة والمدينة المنورة (١٤٨) .

(١٤٧) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(١٤٨) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٣٦ — ٣٨ ، ٤٦ — ٤٨ ،

Howorth : op cit., v. 3, p. 530.

وقد أدى اهتمام هذا السلطان بطرق الحج وقوافله على هذا النحو إلى ازدياد حرص المغول على أداء هذه الفريضة رغم بعد المسافة كما حرص بعضهم على بناء مقابر يدفن فيها عند موته تبركا بهذه البلاد المقدسة ، كما حرص آخرون على توجيه كثير من أعمال البر والخير إلى هذه البلاد . مثال ذلك الأمير جويان نائب السلطان أبى سعيد وقائد جيشه ، فقد حرص هذا الأمير المغولى الكبير على تزويد مكة بالماء العذب على حسابه الخاص ، كما أمر ببناء مقبرة يدفن فيها بعد موته فى المدينة المنورة ، ولما توفى جىء بجثمانه ووقف به حاملوه على جبل عرفات للتبرك وطلب الغفران ، ثم حمل الجثمان إلى المدينة المنورة ليدفن فى مقبرة الجويانية التى اتخذها جويان بالقرب من مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن القدر شاء أن يدفن فى مقابر البقيع لاعتراض أمير المدينة على دفنه فى مقبرته لعدم وصول أوامر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بذلك (١٤٩) .

ومثال ذلك أيضا الخاتون قطلو بنت ابغا بن هولاكو التى حرصت على أداء هذه الفريضة هى وجماعة كبيرة من « قرابة السلطان أبى سعيد » بعد عقد أوامر المودة والصلح بين هذا السلطان وبين سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م . وقد وصلت هذه الخاتون المغولية إلى بلاد الحجاز مع عدد كبير من المغول كانوا فى خدمتها ، وبعد أن رتب لها السلطان أبو سعيد الاتامات الوافرة فى الطريق من سلطانية حتى بلاد الحجاز (١٥٠) ، كما وصل إلى هذه البلاد فى عهد هذا السلطان محمل سلطانى محلى بالذهب والجوهر الذى قوم ثمنه بأزيد من مائتى ألف دينار محصرية ، وأصبح توافد الحجاج من مغول إيران أمرا مألوفاً منذ ذلك الحين حتى وصف العمرى هذا السلطان بأنه « صاحب دين وعدل » (١٥١) .

ولا شك أن توافد حجاج مغول إيران على هذا النحو لدليل على مدى

-
- (١٤٩) العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٦٥ ، ١٦٦ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، التلغشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٧٣ .
- (١٥٠) ابن أبيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣١٢ ، أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٩٥ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٦٥ .
- (١٥١) العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٩١ ، ٧٠٤ .

انفعالهم بالاسلام وحرصهم على أداء شعائره ، كما انه لا بد ان يدفع فيهم روح الحياة الإسلامية دفعا قويا يجعلهم يحسنون بانتمائهم الى عالم الاسلام والى ضرورة تأكيد صلتهم به وحسن علاقتهم بأهله . وقد برزت هذه الناحية فى تحول عداء مغول ايران نحو سلاطين مصر الى صداقة ومودة ومحبة . وكانت محاولات الصلح قد جرت بين تبريز والقاهرة عقب وفاة السلطان غازان عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م فقد ارسل اخوه السلطان محمد خدا بنده رسلة الى مصر عقب توليه الحكم مباشرة يطلب السلام بين اهل العقيدة الواحدة فى البلدين ، وانتقد سياسة اخيه العدائية تجاه مصر والشام لأنها تسببت فى خراب البلاد ، وأن ذلك لم يكن برضاه ولا برضا امراء المغول (١٥٢) .

ويبدو ان محمد خدا بنده لم يكن صادق النية تماما فى طلب الصلح فى البداية ، لأنه كان قد احس باتفاق سلطان مغول القفجاق والناصر محمد بن قلاون على قتاله واقتسام مملكته ، فأراد ان يكفى نفسه مئونة مواجهة القوتين فى وقت واحد فحاول الصلح مع الناصر محمد (١٥٣) ، وأرسل فى نفس الوقت الى البابا كليمنت الخامس وملوك انجلترا وفرنسا يطلب منهم المساعدة فى احتلال الشام ، غير انهم لم يكثرثوا به لأن احوالهم الداخلية لم تكن تسمح لهم بذلك (١٥٤) ، وثانيا لأنه فتح بلاده لأمراء المماليك الفارين من بلاد الشام عام ٧١١هـ/١٣١١م خيفة على أنفسهم من سطوة الملك الناصر محمد ابن قلاون (١٥٥) . والواقع ان القاهرة وتبريز فتحت كل منها ابوابها للأمراء الفارين من كلا البلدين الى الأخرى ، وكان هذا من عوامل سوء العلاقات بينهما .

وقد كان لهؤلاء المماليك الفارين الى تبريز فى عهد السلطان محمد خدا بنده وخاصة الأمير قراسنقر والأمير الأقرم اثر كبير فى تحديث دولة المغول

-
- (١٥٢) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٢٧ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ .
- (١٥٣) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٢٧ ، ١٢٨
- (١٥٤) فايد حماد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، ميور : نفس المرجع ، ص ٨١ .
- (١٥٥) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٣ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٦ .

بايران وترقية امورها واصلاح احوالها ، مما يبين ان مصر كان لها تأثيرها الحضارى فى دولة مغول ايران حتى عندما كانت العلاقات بينهما تتسم بالعداء . فقد قام الأمير قراسنقر بترتيب ادارات الدولة ، ونظم طرق جباية الاموال والضرائب المختلفة ، ورتب الممالك والاقاليم التابعة لتبريز « ترتيب ممالك الاسلام فى جميع آلات الملك » ، ونظم امور القصور الملكية وجعل الحياة فيها وما يقدم للخوانين والخواتين من الطعام وانواعه وطريقة تقديمه حسبما كان موجودا ومتبعاً فى بلاط سلاطين مصر ، ورتب للخواتين والأمراء الاقطاعات ونظم لهم جباية المال ، وعمل كل ما فى وسعه لاستجلاب المسرة الى نفوسهم ، حتى انه امر بأن « تصاغ للخواتين المصاغات المفتخرة وعمل لهن من البدلات الزركش وفصل لهن القماش العالى ، حتى اخذ بعقول كبارهم وصغارهم » ، وحتى القى اليه السلطان خدا بنده بمقاليد الأمور وقال له « قد فوضت اليك جميع امر مملكتى ، افعل ما تراه من المصلحة » (١٥٦) . وهذا الدور الذى قام به هذا الأمير المملوكى المصرى فى بلاط تبريز يشبه الى حد كبير ما قام به بعض امراء المماليك وبعض اقباط مصر الذين فروا الى بلاد الحبشة النصرانية خوفاً من بطش سلاطينها وادوا للملك الحبشة اسحاق بن داود (٨١٧ — ٨٣٣ هـ / ١٤١٤ — ١٤٢٩ م) خدمات جليلة فى تنظيم امور دولته وترقية شئونها العسكرية والادارية والمالية (١٥٧) .

ورغم ان وجود قراسنقر فى تبريز قد ادى الى استمرار سوء العلاقات بينها وبين القاهرة ، الا ان ذلك انتهى بمجرد وفاة السلطان محمد خدا بنده وقيام ابنه ابنى سعيد فى حكم البلاد (٧١٦ — ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ — ١٣٣٥ م) ، فقد عقد الصلح بينه وبين سلطان مصر الناصر محمد بن قاون عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ، وفتحت بلاد الحجاز ابوابها للحجاج من مغول ايران وغيرهم من سكانها ، ودعى على منابر مكة للسلطان ابنى سعيد بعد الملك الناصر محمد ، وازدادت العلاقات توطيدا بينهما عندما ارسل ابو سعيد الى الملك الناصر محمد عام ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م يطلب مصاهرته بزواجه من احدى بنات الناصر

(١٥٦) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(١٥٧) المتريزى : الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٤ ، ٥ ، رجب عبد الحليم : العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى ، ص ٨٧ .

محمد ، وكرر هذا الطلب فى سفارة اخرى ارسلها الى مصر عام ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م (١٥٨) .

وقد بلغ الود بين هذين السلطانين مبلغا جعل السلطان ابا سعيد يخبر ابنه ناصر محمد بمشاكله الداخلية ، فأرسل له فى عام ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م يخبره بما حدث بينه وبين الأمير المغوى جوبان الذى كانت له اليد العليا فى تسير شئون الدولة ، ويشره « بهرب هذا الأمير الطموح ونصرته عليه واستقراره فى الملك وأنه يقيم على الصلح والمحبة » (١٥٩) . ولما قبض هذا السلطان على جوبان أرسل الى الناصر محمد كتابا يستشير فى أمره ، وأرسل اليه الناصر محمد يشفع فى امر دمرداش بن جوبان الذى كان قد فر اليه عقب مقتل أبيه (١٦٠) . كما ان السلطان ابا سعيد تأثر بسياسة الملك الناصر محمد تجاه اهل الذمة فى فترة معينة من فترات حكمه ، فألزم ابو سعيد النصارى فى بغداد عام ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م ان يلبسوا العمائم الزرقاء ، واليهود العمائم الصفراء (١٦١) ، مما يذهب دليلا على تأثير مصر فى سياسة مغول ايران فى هذه الفترة حتى قال فى ذلك صاحب النجوم الزاهرة « وأما ابو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لا تنقطع بينهما ويسمى كل منهما الآخر اخاه ، وكانت الكلمتان ومراسيم الملك الناصر تنفذ فى بلاد ابي سعيد ، ورسله يتوجهون اليه بأطلابهم وطلبخاناتهم وأعلامهم المنشورة » (١٦٢) . وكانت الرسل تترى بينهما طوال عهديهما محملين بالهدايا الفخمة والتحف المتنوعة لتزيد من اواصر المودة والصداقة والاخوة الاسلامية التى جمعت بين هذين البيتين وذلك المصرين الاسلاميين (١٦٣) .

-
- (١٥٨) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣١٢ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٦٥ — ١١٦٦ ، المقرئى : السلوك ، ج ٢ ق ١ ص ٢١١ ، ج ٢ ص ٣١١ ، ٣٤٤ .
- (١٥٩) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٩٢ — ١٠٠ ، ٩٥ .
- (١٦٠) المقرئى : نفس المصدر ، ج ٢ ق ١ ص ٢٩٥ .
- (١٦١) المصدر السابق ، ج ٢ ق ٢ ص ٣٧٥ .
- (١٦٢) ابو الحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢١١ .
- (١٦٣) ابن ابيك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٨١ ، القلقشندي نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

وهكذا اكتملت المظاهر والتقاليد الاسلامية فى حياة المغول وسلاطينهم فى ايران وآسيا الصغرى والعراق ، وانتهى الأمر باندماجهم فى اهالى هذه البلاد وتخلوا عن لسانهم المغولى الى اللسان التركى والفارسى وأصبحوا يكونون مع الايرانيين واهل آسيا الصغرى احد شعوب العالم الاسلامى . وبذلك حقق الاسلام نصره الثانى على مغول ايران بعد ان حقق نصره الأول على مغول بلاد التفجاق ، أما البوذية فقد انتهى نفوذها تماما فى ايران وفقدت المسيحية النسطورية كل قوتها وتحول غالبية معتنقيها الى الاسلام وانسلت البقية الباقية منهم الى المناطق الجبلية فى اعالى نهر دجلة واستقروا فى ارمينيا ولم يتأخر هذا الانتصار الرائع الذى حققه الاسلام على مغول ايران احفاد هولاكو وجنكيز خان أكثر من ثمانية وثلاثين عاما بعد قضاء هولاكو على الخلافة العباسية فى بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، فيا له من انتصار ، وما أروعه من نصر ! .

الفصل الخامس

تحول مغول آسيا الوسطى الى الاسلام

أول ما تلفت النظر اليه في هذا الحديث هو اننا نقصد بآسيا الوسطى تلك البلاد التي تتوسط تلك القارة والتي تشمل على وجه التحديد تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة . فقد تكونت من هذه الممالك الثلاث الايلخانية المغولية الثالثة التي اوصى جنكيزخان بأن تكون من نصيب ثاني أولاده جغتاي ، ولذلك اشتهر سكانها مغولا وغير مغول باسم جغتاي وقيل لهم الجغتائيين ، وبقي فيهم هذا الاسم الى وقت قريب ، وعرفت بلادهم باسم بلاد جغتاي كما عرفت بلاد مغول القفجاق باسم بلاد بركة نسبة الى ثاني خوانينهم بركة خان (١) ، كما عرفت ايلخانية جغتاي أيضا باسم مملكة ما وراء النهر (٢) . وقد آثرنا أن نشير اليها باسم ايلخانية آسيا الوسطى لأن هذا الاسم أكثر دلالة على هذه الايلخانية من غيره من الأسماء ، لأنها كانت تنقسم في بعض الأحيان الى أجزاء عديدة ، وكان في كل جزء منها حاكم مغولي ينافس الآخر ، وأحيانا كانت تتحد في دولة واحدة ، وكذلك فان تعبير « ايلخانية آسيا الوسطى » يعنى هذه البلاد كلها سواء كانت متحدة في دولة واحدة أم منقسمة الى عدد من الدويلات والأقاليم المتنافسة .

أما الأقاليم التي تكونت منها هذه الايلخانية المغولية فهي كما أشرنا ثلاث : تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة . والبلد الأخير وهو غزنة بلد معروف ويشكل جزءا مما يعرف بدولة أفغانستان ، وكانت هذه البلاد أقصد غزنة وما يحيط بها مقرا لدول اسلامية زاهرة كالدولة الغزنوية (٥٣١ — ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ — ١١٦٠ م) ثم الدولة الغورية (٥٥٥ — ٦١٢ هـ / ١١٦٠ — ١١٦٠ م)

(١) العبرى : التعريف ، ص ٤٥ ، الرمزي : نفس المصدر ، ج ١ [١] ص ٣٦٠ .
(٢) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٤٩ .

١٢١٥ م) ثم استولى عليها الخوارزميون بضع سنوات حتى جاء جنكيزخان وضمها لمملكته عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م (٣) .

أما بلاد ما وراء النهر فهي البلاد التي تقع خلف نهر جيحون (أموداريه الآن) وتشتمل على أراض واسعة ومدن كثيرة أهمها بخارى وسمرقند والسند وفرغانة وكش ونخشب وخجندة وترمز والصفانيان وغيرها ، وكلها الآن جزء مما يسمى بجمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية ، وكان الاسلام قد دخل هذه البلاد ، أقصد بلاد ما وراء النهر ، منذ عهد الفتوحات الاسلامية الأولى في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد خلفاء بني أمية ، وتم اسلامها في العصر العباسي الأول ، وقامت فيها دول اسلامية زاهرة مثل الدولة السامانية (٢٠٤ — ٣٨٩ هـ / ٨١٩ — ٩٩٩ م) ، ثم دولة السلاجقة (٤٨٢ — ٥٣٦ هـ / ١٠٨٩ — ١١٤١ م) ، ثم الغز المسلمون وملوك خوارزم حتى استولى عليها جنكيزخان عام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م (٤) .

أما بلاد تركستان أو بلاد الأويغور ، فهي بلاد واسعة منسوبة لشعبها من الترك ، والأويغور إحدى قبائل هذا الشعب ، وكانت هي الأخرى تشتمل على كثير من المدن الهامة مثل فاراب وكاشغر وختن وجند واسفيجاب وطراز والماليق وغيرها ، وقد أضاف القلقشندي الى هذه الأقاليم الثلاثة اقليمي طخارستان وبخشان (٥) ، وكان الاسلام قد دخل هذه البلاد أيضا قبل الغزو المغولي لها بفترة كبيرة ، وذلك أن الأويغور وهم قبيلة تركية انفصلت عن جموع البدو الرئيسية التي تمثل الجنس التركي واتخذت موطنها لها عند سفوح جبال تيان شان حيث تمكن ايليك خان من توحيدهم واستولى بهم على بلاد ما وراء النهر من يد السامانيين عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م (٦) ، ثم أتى من بعده بغراخان الذي اشتهر بجهاده لغير المسلمين ، وتمكن من أن يحمل الوفا من البوذيين والمسيحيين على الدخول في الاسلام واتخذ مدينة كاشغر عاصمة له (٧) ، ويقول ياقوت الحموي الذي توفي عام ٦٢٦ هـ / ١٢٣٠ م أن

-
- (٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٣٩ — ٤٤٣ .
(٦) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٤٧ .
(٧) فامبري : نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

مدينة كاشغر مدينة اسلامية وأن أهلها مسلمون ، ومنها انتشر الاسلام في بلاد تركستان حتى نهر ايرتس وجبال التاي من ناحية الشرق ، واصبحت هذه البلاد تزخر بالعديد من المساجد والمدارس والخوانق والربط والزوايا ، وكثرت بها الأوقاف وانتشر فيها العلماء وطلاب العلم . ومنها انتشر الاسلام في بعض نواحي التبت ومنغوليا والمدن الصينية المجاورة لتركستان الصينية (٨) .

واذا نظرنا الى ايلخانية آسيا الوسطى نجد أنها كانت تشكل حلقة الاتصال بين ممالك المغول الأخرى ، ففي شرقها كانت تقع خانية مغول الصين والخطا حيث مقر الخان الأعظم في قراقورم ، وفي غربها وشمالها كانت تقع خانية مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق (بلاد بركة خان) ، وفي جنوبها كانت تقع بلاد الهند والتبت وايلخانية مغول فارس التي فضلنا أن نطلق عليها ايلخانية ايران ، وهي بلاد هولكو وأبنائه (٩) .

وهكذا كانت ايلخانية مغول آسيا الوسطى محاطة من معظم نواحيها بدول اسلامية ، وكان شعبها يعتنق معظمه دين الاسلام ، وكانت مؤيلا للكثير من العلماء والفقهاء والأصوليين ، ورغم ذلك فقد أتى اسلام مغول هذه البلاد في نهاية المطاف بعد أن أسلم مغول القفجاق ومغول ايران ، وذلك يرجع في نظري الى أن هذه البلاد كانت مجاورة لخانية المغول الأعظم في بلاد الصين حيث تسود البوذية والشامانية ديانة المغول الأولى ، بل أن عاصمتها — أي عاصمة ايلخانية آسيا الوسطى — كانت في البداية هي مدينة المالبق . وهي مدينة لم يكن الاسلام قد انتشر فيها كثيرا ، نظرا لأنها كانت تقع في أقصى الشرق من تركستان حيث كان يحكم الخطا البوذيون (١٠) .

هذا سبب ، والسبب الثاني هو موقعها المتوسط بين خانيات المغول وممالكهم ، فقد جعلها هذا الموقع بؤرة للصراع والتنافس الذي قام بين هذه الخانيات لضمها أو ضم أجزاء منها ، فتعرضت لمحاولات بيت أوكتاي ، وهو

-
- (٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٣٠ .
القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٣٠ .
عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .
(٩) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ص ١٤
(١٠) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢٩ .

البيت الحاكم في قراقورم لتأسيس حكم لهم في تركستان بالذات ، كما تعرضت لأطباع خوانين القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق ، مما أدى الى كثرة النزاع حول العرش والى تعدد الحكام وكثرتهم والى تناقص مدة حكم كل منهم ، مما أدى الى عدم الاستقرار السياسى ، وهذا بدوره ترك اثره الكبير على حياة البلاد وعلى اقتصادها ، وعلى أمنها حتى هدد لصوص البدو أمن التجار وطرق التجارة التى كانت تمر بوسط آسيا (١١) ، فى الوقت الذى لم تكن فيه هذه البلاد قد أفانقت بعد من الضربة العنيفة التى كان جنكيزخان قد وجهها اليها عند غزوه لها . فقد كانت هذه البلاد أول ما واجه الموجة الأولى من موجات الغزو المغولى ، وكانت موجه عاتية مدمرة أطاحت بالأخضر واليابس فأقفرت الأرض من سكانها « ولم يبق من معالمها الا رسوم دائرة وأطلال ناتئة » . وخاصة فى تركستان (١٢) ، أما فى بلاد ما وراء النهر فقد كانت حالتها لا تختلف كثيرا عن حالة تركستان وظلت كذلك مدة طويلة حتى زارها ابن بطوطة بعد حوالى قرن من غزو المغول لها وقال عن بخارى أن « مساجدها وأسواقها خربة الا القليل ، وأهلها أذلاء لا تقبل شهادتهم بخوارزم وغيرها ، وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ولا من له عناية به » (١٣) ، وأشار الى أن سمرقند قد نالها الخراب والدمار حتى ظلت بلا سور ولا أبواب ، أما مدينة ترمذ فلم تنلها يد التعمير بعد تدمير جنكيزخان لها حتى عصر ابن بطوطة (١٤) .

ولابد أن تؤدى هذه الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المضطربة الى تأخر نجاح الدعوة الإسلامية بين مغول هذه الايلخانية ، ولابد أن هذه الأحوال قد تركت أثرها على دعاة الاسلام هناك ، فلم يحاولوا أن ينشروه بين الخوانين الجفطائيين الحاكمين لبلادهم ، وإنما اهتموا بنشره أولا بين المغول العاديين ، وسرت دعوته بعد ذلك حتى وصلت الى بنى جفطاي ، وكان قد مر وقت طويل تداول فيه حكم هذه البلاد عدد كبير من هؤلاء الأبناء الذين كانوا حجر عثرة فى سبيل تقدم الحركة الإسلامية فى بلادهم لكونهم بوذيين أو شامانيين . وعلى ذلك لم يحقق الاسلام تقدما واضحا

(11) Saunders : op. cit., p. 171.

(١٢) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٣٩ .

(١٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٤ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ — ٢٥١ .

الا في عهد طرما شيرين الذي تولى حكم هذه البلاد عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ،
اى بعد أكثر من قرن من فتح المغول لها ، ولم تكن الفترة السابقة على هذا
الايخان المسلم الا بمثابة فترة تمهيد وتهيئة لانتشار الاسلام بين مغول
هذه البلاد .

١ — فترة التمهيد والتهيئة لتحول مغول آسيا الوسطى الى الاسلام :

تتشابه هذه الفترة بمثيلاتها في حياة مغول ايران ومغول القفجاق ،
فقد كان الاسلام يتسرب الى مغول هذه البلاد نتيجة للعوامل التى أشرنا
اليها في الفصل الثانى من هذا الكتاب ، وينتهى هذا التسرب باعتناق أحد
خوانيين المغول للاسلام ويتبعه في ذلك عدد كبير من الأمراء والجند، ثم تقوم مقاومة
البوذية والشامانية والنصرانية ويحدث الصراع ، وينتصر أعداء الاسلام
انتصارهم المؤقت نتيجة للعوامل التى أشرنا اليها في الفصل الأول من هذا
الكتاب ، ثم لا يلبث الاسلام أن يستأنف زحفه ويواصل مسيرته ويحرز
انتصاره النهائى في معركته ضد الأديان التى نافسته في ضراوة كى تكسب
المغول في صفها ثم تتخذهم وسيلة للقضاء النهائى عليه .

حدثت هذه التطورات في بلاد القفجاق وفي بلاد ايران وكان لابد أن
تحدث أيضا في بلاد ما وراء النهر وتركستان أو في منطقة
آسيا الوسطى ، حيث تتشابه الظروف التاريخية وتتصارع نفس القوى
ولكن بأناس يختلفون في أشخاصهم وذواتهم وان اتحدت أهدافهم . ولذلك
رأينا في هذه الفترة وفي هذه البلاد بعض الخوانيين يعتقدون الاسلام وبعضهم
يظلون على ديانة جنكيزخان يطبقون السياق الذى اتخذه جنكيزخان شرعة
ومنهاجا ، وكان بعضهم لا يقف موقف الحياد بين الاسلام ومنافسيه من الأديان
الأخرى ، بل ويضطهد المسلمين ويحاول القضاء عليهم . مثال ذلك أول
حكام هذه البلاد من المغول وهو جغتاي بن جنكيزخان (٦٢٤ — ٦٤٠هـ /
١٢٢٧ — ١٢٤٢م) وقد أسلفنا القول في أنه كان من الد أعداء المسلمين
من بين خوانيين المغول كافة ، ولذلك كان يسومهم سوء العذاب ويمنعهم من
اقامة شعائرهم الدينية ويقتل منهم من يضبط متلبسا بذبح الماشية على الطريقة
الاسلامية ، ولا يقبل من أحد أن ينطق بكلمة مسلم أو كلمة الاسلام الا اذا
أريد بها التحقير والمهانة (١٥) .

(١٥) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١١ ، أرنولد : نفس
المرجع ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وفي عهد خلفائه المباشرين تعرض بعض المسلمين للاضطهاد والقتل عندما اشتكى مسيحيو مدينة سمرقند من أن ترك بعض المسيحيين يتحولون إلى الإسلام من شأنه أن يشجع الآخرين على هجر المسيحية ، فقام أحد كبار أمراء المغول بتعذيب شاب مسلم كان قد تحول من المسيحية إلى الإسلام ، وطلب منه أن يرجع إلى دينه الأول ، ولما رفض قتله أمام الناس (١٦) . وظل بعض خلفائه يسيرون على هذه السياسة نتيجة لبدائتهم التي حافظوا عليها بمعيشتهم في مناطق الاستبس في وادي نهر إيلي III ، ونتيجة لتحمسهم للبوذية أو الشامانية ، ونتيجة لوقوعهم تحت سيطرة الخوانين العظام القريبين منهم وخاصة بيت أوكداي البوذيين ، ونتيجة للصراع الذي قام بين أحد أمراء هذا البيت وبين بيت جغتاي في السيطرة على آسيا الوسطى . وظل الوضع على هذا النحو السيء بالنسبة للإسلام والمسلمين حتى تحول خوانين آسيا الوسطى منذ عهد كبك خان (٧١٨ — ٧٢٦ هـ / ١٣١٨ — ١٣٢٦ م) إلى سكنى بلاد ما وراء النهر حيث وقع المغول هناك تحت تأثير الحضارة الإسلامية المتفوقة ، مما أدى في النهاية إلى إسلامهم واستبدالهم باليساق بشريعة الإسلام منذ عهد طرما شيرين (١٧) .

ورغم ذلك ففي هذه الفترة أحرز الإسلام بعض الانتصارات واعتنقه بعض الإيخانات بعد أن حكم هذه البلاد بعض الحكام غير المسلمين من بيت جغتاي مثل قراهورلاكو وييسو مانجو ، وأرغانا خاتون وألغو الذين حكموا بعد جغتاي ونافسهم قايدو بن قاشين بن أوكداي واستطاع أن يتغلب على ألغو وأن يحكم هذه البلاد بعد وفاة ألغو حفيد جغتاي عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م ، واستطاع أن يمد نفوذه وسيطرته على آسيا الوسطى كلها وأن يوفر الأمن لسكانها وللتجار الذين يرتادونها ، ويناصر بركة خان سلطان مغول القفجاق في تصديه لهولاكو إيلخان مغول إيران ، وتقرب إلى العلماء والفقهاء رغم عدم إسلامه ، وبدأت الحياة تدب في المدن الإسلامية في آسيا الوسطى من جديد ، وأخذت جهود محمود يلواج وأبنائه تؤتي ثمارها ، وأخذت جهود الوزراء المسلمين الآخرين مثل قطب الدين حبش عميد وخواجه بهاء

(١٦) أرنولد : نفس المرجع ص ٢٥٥ .

(١٧) Saunders : op. cit., p. 171.

الدين المرغلاني تؤثر في تخفيف الصدمة التي أصابت الناس من الغزو المغولي»
وتؤثر في حياة المغول أنفسهم (١٨) .

وقد بلغ هذا التأثير مداه عندما تولى مبارك شاه بن قرا هولاكو حفيد جغتاي حكم آسيا الوسطى عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م بالاشتراك مع قايدو البوذي . وارتقاء مبارك شاه عرش البلاد ما هو الا مظهر واضح للصراع الحاد الذي كان قائما بين الاسلام والبوذية في تلك البلاد ، فمبارك شاه كان مسلما كما يدل عليه اسمه (١٩) ، وكان اول من أسلم من خوانين مغول. جغتاي في آسيا الوسطى . وليست هناك معلومات عن الشيوخ الذين أسلم مبارك شاه على أيديهم ، وقد أخبرنا بارتولد نقلا عن أحد المؤرخين المعاصرين لهذا الإيلخان المسلم أن أمه ارغانة Orghana خاتون كانت مسلمة (٢٠) ، فربت ابنها على الاسلام (٢١) ، مما يدل على مدى تأثير الزوجات والأمهات المسلمات في نشر الاسلام بين المغول .

وقد تقدم هذا الأمير المسلم عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م يطالب بعرش ايلخانية جده جغتاي ، ذلك العرش الذي كان مثار نزاع بين أمراء المغول في ذلك الوقت ، واستطاع أن يعتلى العرش ولكنه لم يستطع أن يحافظ عليه مدة طويلة ، اذ سرعان ما قام الصراع بينه وبين ابن عمه غير المسلم براق خان. Buraq عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م ، واستطاع براق أن يعزل مبارك شاه عن العرش ويتولاه (٦٦٤ — ٦٦٨هـ / ١٢٦٥ — ١٢٧٠م) بمساعدة الأمير قايدو البوذي المتغلب على تلك البلاد ، وهو تطور يدل على مدى حدة الصراع

(١٨) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٢٢ :
ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، القلقشندي :
نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٤٩ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٥٩ ،
٣٦٠ بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، فامبري :
نفس المرجع ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع.
ص ٧١ .

رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٢٢ .
Zambaur : op. cit., V. 1., P. 248.

- (١٩) فامبري : نفس المرجع ، ص ١٩١ .
- (٢٠) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .
- (٢١) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ .

بين البوذية والاسلام ، ولا يختلف في ذلك عما حدث في بلاد القفجاق عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م عندما توفي السلطان بركة خان وأعقبه في الحكم خان غير مسلم ، وعما حدث في ايران عام ٨٦٣هـ / ١٢٨٤م عندما خلع السلطان المسلم احمد تكودار وتولى بعده ايلخان غير مسلم (٢٢) .

ورغم ذلك فقد كان الاسلام يواصل تقدمه وانتشاره بين المغول ، فقد أخبرنا رشيد الدين الهمذاني بأن أخا هذا الخان غير المسلم كان يسمى احمد أوغول (٢٣) ، وهو اسم يدل على أن صاحبه اعتنق الاسلام ، بل قيل ان براق نفسه أسلم قبيل وفاته في عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م بأيام قليلة ، وأنه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٢٤) مما يدل على مدى تقدم الحركة الاسلامية في مملكة جغتاي في آسيا الوسطى في ذلك الوقت .

ومع ذلك فلم تذكر المصادر التاريخية أن أبناء براق وأقاربه من بيت جغتاي الذين خلفوه على العرش بعد وفاته وحتى عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م اعتنقوا الاسلام ، ولم تذكر عنهم الا أخبارا قليلة تتعلق بالصراع فيما بين بعضهم البعض وفيما بينهم وبين قايدو حفيد أوكتاي الذي كانت متغلبا على تركستان ، ثم تذكر لنا المصادر بعد ذلك أن عرش البلاد انتقل الى أمير جغتايي مسلم يسمى باسم تاليقاوة أو تالقو بن قادامي بن بوري بن موتوغان (٧٠٨ — ٧٠٩هـ / ١٣٠٨ — ١٣٠٩م) بعد أن قتل أبوه في باميان . ومقتل هذا الأمير واعتلاء ابنه تاليقاوة العرش لا يدل الا على الصراع الذي كان مستمرا بين بيت طغتاي على العرش من ناحية ، وعلى الصراع الذي كان ناشبا بين الاسلام والبوذية من ناحية أخرى . وعلى ذلك فالأمير تاليقاوة هو ثاني أمير مغولي مسلم جلس على عرش مملكة جغتاي في آسيا الوسطى، ويبدو أنه غالى في حمسه لعقيدته الجديدة وحاول أن يفرضها على الأمراء .

-
- (٢٢) رشيد الدين الهمذاني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١٨ ، ٢٥ —
٤٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ ، بارتولد : نفس المرجع ،
ص ١٨٨ .
(٢٣) رشيد الدين الهمذاني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٢٨ ، ٢٥ —
٤٦ .
(٢٤) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ .

والجند مما أغضب قواد المغول فثاروا عليه وقتلوه في احدى المآدب (٢٥) .

ولم ينته الصراع بين البوذية والاسلام باغتيال هذا الخان المسلم ،
فقد تولى عرش البلاد اسنبغا (اسان بغا) بن دوا بن براق (٧٠٩ — ٧١٨ هـ /
١٣٠٩ — ١٣١٨ م) ، وكان له أخ مسلم يدعى (يساوار) . وقد ساءت
العلاقات بين هذين الأخوين ، وفر الأخ المسلم الى بلاط أمير فارس المغولى
الذى رحب به وساعده على قتال أخيه ، فانتصر عليه عام ٧١٦ هـ /
١٣١٦ م (٢٦) ، مما يدل على حدة الصراع الذى كان قائما بين البوذية والاسلام.
في مملكة جفطاي في آسيا الوسطى . وقد ظلت البوذية تحتفظ بنفوذها في.
عهد كبك (٢٧) Kebek خان بن دوا خان بن براق خان (٧١٨ — ٧٢٦ هـ /
١٣١٨ — ١٣٢٦ م) . وقد فضل هذا الخان الجديد غير المسلم أن يعيش.
في اقليم ما وراء النهر ، ربما لضمان البعد عن تأثير الخوانين العظام في.
قراقورم ، وتخلصا من سيطرتهم على الخوانين الجفطائيين ، فانتقل من
مدينة المالىق الى هذا الاقليم وبنى هناك قصرا قرب مدينة نخشب (٢٨) ، وسمى
هذا القصر مغول كارشى Mongol Karshi ، ومنه أخذت مدينة قرشى.
اسمها ، وأصبحت هذه المدينة قاعدة لبلاد ما وراء النهر وتركستان (٢٩) .

. ومنذ عصر كبك أخذ خوانين المغول في مملكة جفطاي في آسيا الوسطى.
يتمثلون المدينة الاسلامية بالتدرج (٣٠) ، فاستفاد هذا الخان من النظام.

(٢٥) رشيد الدين الهمداني : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٥٠ ، ٥٤ .
فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
Zambaur : op. cit., v. 1, pp. 248-249.

(٢٦) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٩٩ .
(٢٧) هذا الايلخان يسمى كوك عند شرف خان البديسى (ص ٢٦) ،
ويسمى كيوك عند القلقشندى (ج ٤ ص ٤٤٩) ، ويسمى كبك عند ابن بطوطة.
(ص ٢٤٦) الرمزى (ج ١ ص ٥٢٩) .
(٢٨) يقول القلقشندى أن مدينة نخشب عندما عريت سميت باسم
مدينة نسف ، ونقل عن ابن حوقل قوله أنها على مرحلتين من مدينة كرش .
(انظر : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٣٥) .
(٢٩) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٤٠ ، البديسى : نفس.
المرجع ص ٢٦ .
Saunders : op cit., p. 172.
(٣٠) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٦ .

المالى الفارسي ، وضرب عملة ظلت معروفة بعده باسم كبكى Kebeki لمدة طويلة (٣١) . ويبدو أن معيشته في بلاد تركستان وما وراء النهر قد أثرت في معتقداته الدينية ، فيذكر شرف خان البديلي أنه عندما توفي دفن في جوار المسجد الجامع بمدينة قرشي (٣٢) ، وقد سبق القول أنه هو الذى بنى هذه المدينة أو ابتداء العمارة فيها حتى اكتملت في عهده أو في عهد من خلفه . ومعنى أنه كان بهذه المدينة مسجد وأنه دفن بجوار هذا المسجد يدل على أنه فيما يبدو قد غير عقيدته الدينية الى الاسلام وان لم يظهر ذلك ربما خوفاً من بعض الضباط الذين كانوا لا يزالون على ديانة جنكيزخان ، وكان كبك يرى أثر هؤلاء الضباط في عزل واغتيال بعض الخوانين المسلمين الذين سبقوه في تولي العرش ، ولذلك وكما هو الراجح لم يجهر باسلامه ولكنه لم يخف تكريمه واحترامه للمسلمين (٣٣) .

وقد حدث ما كان يتوقعه كبك اذ نجح هؤلاء الضباط فيما يبدو في تولية العرش بعد وفاته لأخيه غير المسلم المسمى الجكطى أو الجكداى كما جاء عند القلقشندي ، وبذلك أبعدوا الأمراء المسلمين عن تولي الحكم لفترة لم تطل كثيراً ، اذ تمكن أخوه طرما شيرين المسلم أن يتولى العرش عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، وفي عهد هذا الخان أحرز الاسلام انتصاره النهائي وانتشر الاسلام بين معظم مغول بلاد جفطاي في آسيا الوسطى (٣٤) .

٣ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول آسيا الوسطى :

تبدأ هذه الرحلة بتولى طرما شيرين عرش البلاد (٧٢٦—٧٣٤هـ/١٣٢٦—١٣٣٤م) ويعتبر هذا الخان هو المؤسس الحقيقي لدولة المغول الاسلامية في مملكة جفطاي في آسيا الوسطى ، ويمكن وضعه من هذه الناحية على قدم المساواة مع السلطان بركة والسلطان ازبك في بلاد القفجاق ، والسلطان غازان في ايران والعراق وآسيا الصغرى ، وان كان طرما شيرين قد أتى متأخراً عنهم للظروف والعوامل التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث ،

(31) Saunders : op. cit., p. 172.

(٣٢) البديلي : نفس المصدر ، ص ٢٦ .

(٣٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٦ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤

ص ٤٤٩ ، الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٠٢ .

واللصراع العنيف الذى رأيناه مع البوذية والذى سوف تظهر ذبوله عقب وفاة هذا السلطان لفترة قصيرة لا تلبث أن تزول ويستقر الاسلام بين مغول هذه البلاد .

ويبدو أن طرما شيرين كان يخشى بأس الضباط الوثنيين الذين قضوا على أسلافه من الايلخانات المسلمين فكتم اسلامه حتى اعتلى العرش ، ولما سوطدت له الأمور واستقرت الأحوال نقل عاصمته الى بخارى فى بلاد ما وراء النهر وتمثل الحضارة الاسلامية أكثر من أخيه كبك (٢٥) ، ولم يلبث أن أعلن اسلامه على يد الشيخ حسن والفقيه العابد مولانا حسام الدين البياغى تقي نفس العام الذى تولى فيه عرش البلاد ، واتخذ لنفسه اسما اسلاميا تسمى باسم علاء الدين طرما شيرين وواظب على أداء الصلوات فى أوقاتها . واخذ يطبق الشريعة الاسلامية (٣٦) حتى وصفه العمرى بأنه كان « حسن لاسلام عادل السيرة طاهر الذيل مؤثرا للخير محبا لأهله » (٣٧) .

وقد عمل طرما شيرين منذ البداية على نشر الاسلام بين المغول فى كافة أنحاء دولته ، فأمر قواده وأمرائه وجنوده من غير المسلمين أن يعتنقوا الاسلام فاعتنقوه ، ولم يمض على ذلك عشر سنوات حتى عم الاسلام معظم مغول آسيا الوسطى عامتهم وخاصتهم ، وذلك بتأثير طرما شيرين ومن ألف حوله من العلماء والوعاظ والفقهاء والمشايخ والأشراف والدعاة والتجار الذين فتح لهم أبواب بلاده حتى جاءه التجار من مصر وغيرها من دول العالم الاسلامى (٣٨) .

وقد أراد طرما شيرين بعد أن عظمت جيوشه واتسعت مملكته أن يغزو البلاد المجاورة التى لا تزال على الوثنية كى ينشر فيها الاسلام ، فغزا بلاد

(٣٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٧ .
(٣٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٢٩ .
(٣٧) التعريف ، ص ٤٧ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٨٩
(٣٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ص ٣٠٥ ، القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٠ .

الهند الشمالية حتى وصل الى دلهى ، وأعلى راية الاسلام فى كل مكان وصار يأخذ الناس بشريعة الاسلام وبدأ يهاجم جيرانه من مغول ايران (٢٩) .

ويبدو أن هذه السياسة لم تعجب بعض الأمراء والضباط الذين كانوا لا يزالوا على دينهم القديم أو الذين تظاهروا بالاسلام وأبطنوا الكفر ، وخاصة من الذين كانوا يعيشون فى مناطق البدو فى وادى نهر ايلى فى أقصى الشرق من البلاد حيث كانت تسود شريعة جنكيزخان (٤٠) ، وأنكروا عليه هجرانه التام لهذه الشريعة ، كما أنكروا عليه ابطاله ليوم (الطوى) وهو اليوم الذى كان يجتمع فيه الأمراء والأميرات من أطراف البلاد مرة كل عام ، يحاسبون فيه الخان على مخالفاته لأحكام السياق ويعزلونه اذا ما تعددت هذه المخالفات ، كما أنكروا عليه أيضا أنه استمر فى اقامته فى بلاد ما وراء النهر ، وأنه لم يذهب الى إقليم تركستان حيث توجد المالىق عاصمة المملكة ، فينتقد أحوالها وحال الجند بها مرة كل سنة حسبما جرت به العادة قبل ذلك (٤١) . وهو صراع كما ترى بين النصف الشرقى من الدولة (تركستان) حيث كان العنصر المغولى المحافظ أو القديم أقوى ، وبين النصف الغربى منها (بلاد ما وراء النهر) حيث كان أمراء المغول متحمسين لدينهم الجديد (٤٢) .

وقد انتهى هذا الصراع بقيام ثورة انتهت بخلع طرما شيرين عن العرش وتولاه ابن أخيه جنكشى (٧٣٤ — ٧٣٥ / ١٣٣٤ — ١٣٣٥ م) وقد علا شأن البوذية والمسيحية فى عهد هذا الخان الذى كان يدين بالبوذية ، وكان مستثساروه من كهنة هذه الديانة ، ولذلك كان يناصر اليساق ولا يحفل بالشريعة الاسلامية ، وانتهاز المبشرون المسيحيون هذه الفرصة النادرة وتحالفوا مع هذا الخان فسمح لهم بالتبشير بدينهم فى مملكة جغطاى على نطاق واسع حتى كان الانجيل يدرس بكل حرية ، كما سمح للكاثوليك الوافدين من أوروبا

(٢٩) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٩ ،
Saunders : op. cit., p. 172.

(٤٠) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحتين .

(٤١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(42) Saunders : op. cit., pp. 172, 173.

ببناء كنيسة لهم قرب مدينة المالىق ، وعين لها البابا بندكت الثانى عشر مطرانا من الفرنسيسكان (٤٢) .

ولكن هذا العهد لم يطل وسرعان ما اعتلى العرش ابن أخ آخر لطرما شيرين يسمى بوزون (٧٣٥ — ٧٣٩ هـ / ١٣٣٥ — ١٣٣٨ م) أو بوزون أغلى (٤٤) . ويبدو أن هذا الخان اراد أن يقيم توازنا بين الحركة الاسلامية التى عنفت واشتدت منذ عهد عمه طرما شيرين وبين الاديان الاخرى كالبوذية والنصرانية التى انتعشت أخيرا فى عهد الخان السابق والتى كان كهننها قد انزعجوا كثيرا من الاكتساح الاسلامى لمعقلهم فى آسيا الوسطى ، فتظاهر بالاسلام (٤٥) ، وفى نفس الوقت « ضيق على المسلمين وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر (٤٦) ولذلك كرهه الناس ووصفه ابن بطوطة بأنه كان « مسلما فاسد الدين سيىء السيرة » (٤٧) ، وتطورت الأمور الى قيام فتنة تم على اثرها قتل مطران المالىق الجديد وخمسة من رفاقه وتاجر ايطالى على يد أحد العامة عام ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م ، ولم يستطع الخان أن ينتقم لمقتل هؤلاء المسيحيين السبعة ، وسادت الاضطرابات الدينية انحاء الدولة ، ولم تستطع الحركة المضادة للاسلام أن تحرز أى تقدم بعد ذلك (٤٨) .

ذلك أنه منذ عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م اعتلى عرش مملكة جفطاي فى آسيا الوسطى شيخ مسلم من أحفاد جفطاي وهو السلطان خليل بن اليسور

(٤٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٩ .

Saunders : op. cit., p. 172.

(٤٤) يسميه القلقشندى (ج ٤ ص ٤٥٠) توزون ، ويسميه ابن بطوطة المعاصر له باسم بوزن أغلى ويقول أن (أغلى) لقب يطلق على كل من كان من أبناء الملوك (رحلته ص ٢٤٨) ، ويسميه الرمزي (ج ١ ص ٥٤٨) باسم تزان خان بن ييسور ، وهذا خطأ ، لأن بوزون كان ابن دوا تيمور (انظر : Zambaur, op. cit., 248) ، ويسميه المقرئى (ج ٢ ق ٢ ص ٣٨٩) باسم بوزان وكذلك فامبرى (ص ٢٠١) ، ويسميه زامباور باسم بوزون وهو ما أخذنا به .

(٤٥) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠١ .

(٤٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

(48) Saunders : op. cit., p. 172.

ابن دوا بن براق (٧٤٣ — ٧٤٤ هـ / ١٣٤٢ — ١٣٤٣ م) (٤٩) . ولم يكن هذا السلطان مسلما فقط بل كان فيما يقول بارتولد مرشدا روحيا للولى المشهور بهاء الدين النقشبندى البخارى (٧١٨ / ٧٩٢ هـ / ١٣١٨ — ١٣٨٩ م) . وقد تأثر به هذا الولى او هذا الصوفى الذى أصبح صاحب طريقة النقشبندية تأثرا كبيرا ولازمه حتى بعد اعتلاء خليل لعرش البلاد . وبعد أن مات السلطان خليل اقتنع بهاء الدين بأن الدنيا لا خير فيها وتحول الى حياة الزهد والتصوف (٥٠) .

ومعنى هذه الرواية أن السلطان خليل كان مسلما قبل توليه العرش بمدة طويلة ، ولذلك فانه قد وجد المساندة والعون والتأييد من أمراء المسلمين فى صراعه ضد ابن عمه بوزون الذى كان قد تغلب على العرش . فقد قدم له السلطان حسين بن السلطان غياث الدين الغورى صاحب غزنة الجند الوغير ، كما قدم له علاء الملك سيد الملعب بخداوند زاده صاحب ترمذ جندا يقدر عدده بأربعة آلاف من المسلمين ، وكان هذا الأمير الشريف الحسنى النسب على رأس جنده عندما تقدم لمساعدة خليل ، ولما رأى جند (بوزون) خليل وجنده مالوا اليه وأعلنوا طاعتهم له « وأسلموا سلطانهم اليه واتوا به أسيرا ، فقتله خليل خنقا بأوتار القسى » حسب عادة المغول فى عدم قتل من كان من أبناء الملوك الا خنقا (٥١) .

ومعنى ميل الأمراء والجند الى السلطان المسلم على هذا النحو هو أنهم كانوا فى الغالب مسلمين والا لما مالوا الى السلطان خليل على هذا النحو . ولما أسلموا سلطانهم بكل سهولة ، ولدافعوا عنه دفاع المستميت ، واذا عرفنا بأن عدد هؤلاء الجند كان يقدر بثمانين ألفا (٥٢) ، لأدركنا مدى شيوع الاسلام وانتشاره بين المغول .

وقد قام السلطان خليل بعد أن دانت له الأمور باستخدام هؤلاء الجند

(٤٩) يسميه بارتولد (ص ٢٠٩) خليل بن ياساور ، وهو ليس ببعيد عما ذكره ابن بطوطة (ص ٢٥٠) اذا فتحنا الياء والسين فى كلمة (اليسور) التى جاءت عند ابن بطوطة . وانظر أيضا :

Zambaur : Op. cit, V. 1, p 248.

(٥٠) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٥١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .

(٥٢) المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

فى القضاء على آخر بقايا الوثنية فى النواحي الشرقية من آسيا الوسطى ، بل وفى بلاد الصين ذاتها ، وهى معتل الخوانين العظام البوذيين كما هو معروف ، فزحف بهم وأقر سلطانه أولا فى العاصمة القديمة لمملكة جفتاى ، وهى مدينة المالىق ثم واصل زحفه بعد ذلك الى بلاد الصين والخطا واستولى على قراقورم وبش بالملىق وعقد الصلح مع امبراطور الصين فعظم أمره وهابته الملوك ، وبدأ رحلة العودة وترك فى مدينة المالىق حامية عسكرية قوية كما ترك بها وزيره خداوند زاده حاكما لها حتى لا يتألب عليه سكانها من المغول ، وعاد الى مقر مملكته فى بلاد ما وراء النهر (٥٢) .

وبهذا وحد السلطان خليل مملكة جفتاى فى آسيا الوسطى مرة أخرى ، وقضى على آخر صحوة للبوذية والمسيحية فى تلك المملكة ، وارتفع شأن الاسلام والمسلمين فى عهده . وكما رأينا فقد ولى وزارته لأحد الأشراف الحسينيين ووصلت قوة الدولة الاسلامية المغولية فى عهده الى الذروة ، ولم نسمع أن خانا غير مسلم تولى عرش البلاد بعده ، ولكن يبدو أن مملكة جفتاى ضعفت وانقسمت بعد موته الى امارات وممالك صغيرة : وثلاث كذلك حتى وحدها من جديد تغلق تيمور خان حفيد دوا بن براق خان (٧٤٨ — ٧٦٥ هـ / ١٣٤٧ — ١٣٦٣ م) وملك كاشغر ومغاليستان التى تسمى الآن بتركستان الصينية والتى كان هذا الملك قد استقل بها عقب موت السلطان خليل (٥٤) .

وقد أسلم هذا الملك على يد رجل من أهل التقوى والورع من مدينة بخارى يقال له الشيخ جمال الدين والذى كان يصحبه جماعة من التجار الذين كانوا قد ارتادوا مع شيخهم هذا أرضا كان ذلك الملك قد خصصها للصيد . وقد نتج عن ذلك أن غضب الملك واستدعى الشيخ وزملاءه التجار ، ولما علم بأن هذا الشيخ فارسي أهانه قائلا أن الكلب أغلى ثمننا من أى فارسي ، فرد عليه الشيخ قائلا أن ذلك يكون صحيحا لو أنه لم يدين بالدين الحق ، فأراع هذا الجواب الملك وجعله يستفسر عن هذا الدين من ذلك الفارسي الجسور ، فانتهاز الشيخ هذه الفرصة وعرض عليه قواعد الاسلام فى غير

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٢٥١ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٥٤) الرمزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٦٠ .

وحماس انفطر لها قلب الملك حتى كاد يذوب بعد أن صور له الشيخ الكفر بصورة مروعة اقتنع معها الملك بضلال عقيدته الوثنية ، ولكنه أجل اعتناقه للإسلام ووعده أن يفعل ذلك عندما يتمكن من توحيد مملكة جغتاي كلها . فعاد الشيخ جمال الدين إلى بخارى وأوصى ابنه رشيد الدين قبل أن يموت أن يتصل بتغلق تيمور خان وأن يذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه إذا ما تحققت له وحدة البلاد (٥٥) .

وقد تحققت هذه الوحدة فعلا بالتدريج ، فقد استولى هذا الملك الذي ينتسب للبيت الجغتائي على السلطة في مغولستان عام ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م في البداية ، ثم استولى بعد ذلك على كاشغر عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م ، ثم زحف إلى بلاد ما وراء النهر واستولى عليها وعين ابنه (الياس) حاكما لها في سمرقند ، كما عين أحد شباب سمرقند وزيرا له . وكان هذا الشاب يدعى تيمور وكان شابا قديرا من أسرة تدعى الانتساب لجنكيزخان ، ولكنه كان أعرجا ، ولذلك عرف باسم تيمورلنك Timur Lang وقد حرف الأوربيون هذا الاسم إلى Tamerlane (٥٦) .

وبعد أن حقق تغلق تيمور وحدة مملكة جغتاي على هذا النحو نحاول رشيد الدين بن الشيخ جمال الدين في الوصول إليه ومقابله ، ولما تمكن من ذلك ذكره بالوعد الذي كان قد قطعه على نفسه لأبيه من قبل ، فقال له السلطان تغلق : « حقا ! مازلت اذكر ذلك منذ أن اعتليت عرش آبائي ، ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن ثأنت على الرحب والسعة » ثم أقر بالشهادتين وأصبح مسلما منذ ذلك الحين وأخذ على عاتقه نشر الإسلام بين جميع الأمراء ، واتفق مع رشيد الدين على أن يستقبلهم واحدا بعد واحد ويعرض عليهم الإسلام ، فمن قبله جوزي أحسن الجزاء ، ومن رفضه كان مصيره القتل . وكان أول أمير عرض عليهما هو الأمير تولك Tulik ، ولما طلب منه السلطان الدخول في الإسلام سألت عبرات هذا الأمير وقال له « قد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنوات على يد أحد رجال هذا الدين في كاشغر وأصبحت مسلما منذ ذلك الحين ، ونكني لم أصرح بذلك خوفا منك » ، فنهض تغلق خان وعانقه وجلس ثلاثتهم ونقدم

(٥٥) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .
(56) Saunders : op cit., p. 173.

اليهم سائر الأمراء حيث عرض عليهم الاسلام فقبلوه جميعا الا واحدا منهم رفض الدخول في الاسلام الا بعد أن يختبر قوة الشيخ رشيد الدين الجسمانية بأن يدخل هذا الشيخ في مبارزة مع خادم له كان ضخم الجثة متين البنيان يستطيع أن يرفع بيديه جملا صغير .

وقد خاف السلطان والحاضرون نتيجة هذه المبارزة التي قبل بها ذلك الشيخ الضعيف والتي انتهت بتغلبه على ذلك الخادم الضخم بعد أن استعان بالله ووكزه في صدره وكزة سقط منها الخادم مغشيا عليه ، ولما أفاق أخذ يقبل أقدام الشيخ ويصيح بالشهادتين ، فكبر الناس واكبروا هذا الانتصار وعلت أصوات الاستحسان من كل مكان ، وانفتحت قلوب المغول للاسلام حتى أنه أسلم منهم في ذلك اليوم مائة وستون ألفا ، وأصبح الدين الاسلامي منذ ذلك الحين دين سكان الحضر من المغول في الولايات الشرقية من مملكة جغتاي ، أما الولايات الغربية فكان قد تم اسلام مغولها منذ عهد طرماشيرين (٥٧) .

واذا كان السلطان تغلق تيمور خان قد استطاع أن يعيد الوحدة لأجزاء مملكة جغتاي في آسيا الوسطى وأن يستكمل انتشار الاسلام في النصف الشرقي من تلك المملكة ، فإن وزيره الشاب الأعرج الطموح المسمى تيمورلنك استطاع بعد وفاة تغلق ببضع سنوات أن يعيد الوحدة الى امبراطورية المغول الكبرى كلها ، فاستولى على معظم ممالكها في آسيا الوسطى وبلاد الهند والأفغان وبلاد ايران وخوارزم والعراق وآسيا الصغرى وبلاد القفجاق ، وذلك بقيامه بسلسلة من الحروب والغزوات بداها باستيلائه على الحكم في سمرقند وبلاد ما وراء النهر عام ٧٧١هـ / ١٣٧٠م واستمرت حروبه حتى وفاته عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م بعد أن كان قد تمكن من السيطرة على كل هذه الممالك وضماها تحت لواء واحد مستغلا في ذلك ضعفها وضعف الحكم المغولي الذي كان قائما فيها (٥٨) .

ويعتبر عصر تيمورلنك هو نهاية عصر الفتوحات المغولية في قارة

(٥٧) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٥٨) شرف خان البدليسي : نفس المصدر ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، مبور :

نفس المرجع ، ص ١١٦ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ، ص ٦٦ ،

Saunders : op. cit., p. 173.

آسيا ، وكانت فتوحاته تنافس في حدتها وغناها وقسوتها فتوحات جنكيزخان .
واذا كان جنكيزخان وثنيا فقد كان تيمورلنك مسلما وان كان بدويا الى حد
كبير ، ولذلك فانه يعتبر مؤسس امبراطورية الاستبش الكبرى ، ولكنه اوجد
الى حد ما مجتمعا اسلاميا كبيرا ضم الحضر والبدو معا ، مما اعطى فرصة
للتاثير على هؤلاء البدو الذين كان كثير منهم لا زال على الوثنية ، فتركوها
واعتنقوا الاسلام (٥٩) .

وقد ساعدت نشأة تيمورلنك ومولده على قيامه بهذا الدور خير قيام ،
فهو من قبيلة مغولية متتركة تدعى برلاص ، وابوه ينتسب الى اصل مغولى
تركى ينتهى به الى طائفة جغتاي بن جنكيزخان ، ويقال ان أمه من ذرية
جنكيزخان ، فهو اذن من نفس العنصر الذى غزا آسيا واخضعها لسلطانه،
ولكنه يراها الآن قد تفرقت بددا واصبحت دويلات صغيرة متناثرة بعد ان
كانت ممالك قوية وامبراطورية كبرى يشار اليها بالبنان . وكانت قبيلته
تحكم البلاد الواقعة على نهر كش في منطقة سمرقند . وقد نشأه أبوه نشأة
دينية سياسية ، فقد رباه على التمسك بسنن الاسلام القويمة وعلى التطلع
على تملك بلاد المغول التى اصابها التفكك والانحلال (٦٠) .

ويقول تيمورلنك عن نفسه في سيرته التى كتبها له أحد المؤرخين
المعاصرين في كتاب يسمى (توزوكات تيمور) ، اى مراسيم تيمور ، « كنت
أقضى وقتى في قراءة القرآن ولعب الشطرنج وهوايات أخرى » (٦١) .
ولذلك فقد ظهر في حياة تيمورلنك جانبان : جانب اسلامى واضح وجانب
سياسى يتمثل في طبيعته الثائرة وأطماعه السياسية التى لا حد لها والتى
أدت الى ارتكابه لكثير من أعمال العنف والوحشية أثناء غزواته الكثيرة التى
ملأت حياته منذ ظهوره على المسرح السياسى عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩م وحتى
وفاته عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م ، والتى أدت الى سيطرته على معظم امبراطورية

(59) Ibid : p. 173.

(٦٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١٠٣٣ ، ١٠٨٢ ، ١١٢٩ ،
أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، بارتولد : نفس
المرجع ، ص ٢١٧ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٧ ، عبد العزيز
جنكيزخان : نفس المرجع ، ص ٧٢ .
(٦١) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٧ .

المغول الكبرى (٦٢) . ويهمننا هذا الاشارة الى الجانب الاسلامى فى حياة هذا الفاتح الذى صورته لنا المؤرخون فى صورة قاسية أخرجته أحيانا عن صورة المسلم حسبنا قالوا (٦٣) ، ولم يذكروا لنا شيئا عن أعماله السلمية وعن جهوده فى نشر الاسلام بين بعض شعوب امبراطوريته الكبرى .

فعلاوة على جهود تيمورلنك فى نشر الاسلام بين البدو من المغول والنرك داخل امبراطوريته الواسعة نراه يعمل على نشره فى بلاد الهند وكشمير والتبت . وكان تيمورلنك قد غزا شمالي الهند واستولى على دهلى عام ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م (٦٤) ، ثم انطلق منها يبيد الهنود الوثنيين مما جعل توماس أرنولد يقول أن غزوته لتلك البلاد اتسمت بطابع الجهاد الدينى مستندا فى ذلك الى ما قاله تيمورلنك عن نفسه بعد استيلائه على دهلى . فقد دون يقول « لقد قضيت خمسة عشر يوما فى دهلى بين مظاهر الفرح والنعيم ، اعتد مجالس البلاط الملكية وأقيم الاسمطة العظيمة ، ثم ذكرت أننى أتيت الى هندستان لشن الحرب على الكفار . وقد بارك الله هذه الحملة ، فجعل النصر حليفى والظفر يتبعنى أنى ذهبت ، ولقد انتصرت على خصومى وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبداء الأصنام ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين . الآن وقد تم لى هذا النصر المبين أشعر أنه لا يحق لى أن أخلد الى الراحة بل أن أبذل جهدى لشن الحرب على كفار هندستان » (٦٥) .

ولا شك أن حربه لهندستان على هذا النحو قد أضعفت من قوة الديانة الهندوكية فى شمالي الهند وأفسحت الطريق لانتشار الاسلام فى هذه المناطق سواء فى عهده أم فيما تلا ذلك من عهود . ففى كشمير ازداد نفوذ الاسلام بعد أن أصبح هذا الاقليم الكبير احدى ولايات امبراطورية المغول فى عهد (أكبر) ، كما قدم اليه كثير من رجال العلم مختارين أو فارين

(٦٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١٠٨٢ ، ١٠٨٥ ، ١١٣٠ —

١١٣١ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٦١ ، ٢٦٤ — ٢٦٨ ،

ج ١٢ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ — ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ .

(٦٣) أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٥٠ — ٥١ .

(٦٤) شرف خان البديلى : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، أبو المحاسن :

نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٧ .

(٦٥) أرنولد : نفس المرجع ص ٢٨٧ .

من بطش تيمورلنك . ففى عام ٧٩٠ هـ / ١٢٨٨ م قدم الى كشمير شيخ يسمى سيد على الهذاني كان قد أثار سخط تيمورلنك وخاف من بطشه ، ففر من هذان مع سبعمائة من أصحابه الى كشمير حيث أسسوا هناك أماكن للعبادة والتنسك في جميع أنحاء البلاد ، فلقبت دعوة الاسلام هناك راجا كبيرا واعتنقه لذلك عدد كبير من الناس ، ومن هناك بدأ الاسلام يزحف شمالا على يد تجار كشمير الذين كانوا قد أسلموا ، الى هضبة التبت (٦٦) .

وقد أشاد بعض الكتاب بالجانب الاسلامي عند تيمورلنك وقالوا انه كان مسلما متأثرا بالمدينة الايرانية الاسلامية وأنه كان عارفا بالفارسية الى جانب التركية ، وأنه لم يكن ملما بالاسلام من حيث هو عقيدة فقط ، بل كان واقفا على كثير من العلوم والفنون الاسلامية لدرجة انه كان يشارك فلاسفة هراة وفقهاءها في محاوراتهم ويبدل العطاء الوفير لهم ولغيرهم من علماء المدن الاخرى وحتى لمن كان معهم على خلاف في الرأي . مثال ذلك العالمان المشهوران : شمس الدين الفناري ومحمد الجزري اللذان بذل تيمورلنك جهده لكسبهما الى صفه وبالحق في استرضائهما رغم ما كان يعلمه من شدة عدائهما له بعد ان كانا قد وقعا في أسره (٦٧) .

وقد بذل تيمورلنك جهده ايضا في اثناء الحياة العلمية فأنشأ الكثير من المدارس والمساجد والجوامع والمراسد والزوايا والمكاتب وارتقت في عهده الحياة الفنية والصناعية على يد الصناع وأرباب الفنون والحرف الذين حصل عليهم من البلاد الكثيرة التي فتحتها والحقهم بخدمته وجلبهم الى سمرقند عاصمة امبراطوريته ، وأصبح كلفا باعادة تعمير ما كان قد خربه من مدن في بلاد ما وراء النهر وخوارزم حتى قال عنه بارتولد ان أعماله في التعمير لا تقل أثرا في نفوس معاصيره عن أعماله في التخريب والتدمير (٦٨) .

وهذا التخريب وذلك التدمير الذي اشار اليه بعض المؤرخين كان في

(٦٦) المرجع السابق ، ص ٣٢٨ — ٣٣٠ .

(٦٧) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، فامبرى : نفس

المرجع ، ص ٢٤١ .

(٦٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٠ ، بارتولد : نفس

المرجع ، ص ٢٢٦ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٤١ ، عبد العزيز جنكيزخان :

نفس المرجع ص ٨٠ .

الواقع سمة من سمات الحروب التي كانت شائعة في ذلك العصر سواء جاءت هذه الحروب على يد سلاطين الممالك أم على يد غيرهم من سلاطين المغول والترك . . . وكان كل فريق يرتكب في أراضي خصمه الكثير من الأمور الشنيعة ، وكان كل ملك يتهم الآخر لهذا السبب بالكفر والمروق عن الاسلام ، فتيمورلنك أرسل الى سلاطين مصر يقول لهم « اكلتم الحرام وظلمتم جميع الأنام وأخذتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام . . . وقتلتم العلماء . . . » ويستشهد على ذلك كله بآيات من القرآن الكريم ، ثم ينفي عن نفسه وأهله أنهم كفرة ، وأن الكفرة والفجرة كما قال في رسالته هم سلاطين مصر (٦٩) . ويرد عليه سلطان مصر بقوله « وعندنا خبركم من حين خرجتم أنكم كفرة » (٧٠) .

فالإتهامات — كما ترى — متبادلة ، ولذلك فإنها لا تنفي صفة الاسلام عن أى منهما ، وكانت هذه الإتهامات شيئاً مألوفاً في تلك العصور ، فكل طرف يريد أن يرمى غيره بهذه التهمة حتى ينفر منه سائر المسلمين ويبتعدوا عن تأييده أو السير في ركابه . وفي الواقع فقد كان هم تيمورلنك الأول هو توحيد امبراطورية المغول مرة أخرى ، وبالطبع فإن ظهور قوة المغول والترك على المسرح السياسى مرة أخرى لابد أن يثير الدول المجاورة ، سواء كانت دولا اسلامية أم غير اسلامية ، وسواء كان تيمورلنك نفسه مسلماً أم غير مسلم ، ومن هنا يقع الخلاف وتحدث الإتهامات وتجرى المصادمات والحروب والغزوات . ومن ناحية أخرى فإن تيمورلنك لم يكن في كل غزواته هو البادئ بالقتال والزحف بدافع السيطرة والاحتواء ، بل ان بعض الأقاليم الاسلامية كانت تستدعيه ضيقاً بظلم حكامها وفساد أحوالهم ، مثال ذلك ما فعله أهل بغداد عندما كاتبوا تيمورلنك عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م يحثونه على المجيء اليهم نظراً لظلم سلطانهم أحمد بن أويس وفساد أمره (٧١) .

ومهما كان الأمر فقد واصل الحكام التيموريون الذين أتوا بعد تيمورلنك سياسته في نشر الاسلام وفي توطيد أركان الثقافة الاسلامية . ومن أبرز هؤلاء الحكام في هذا الميدان محمد خان أمير مغالستان (تركستان الصينية) . فقد كان هذا الحاكم حسن الاسلام نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس،

(٦٩) أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٧٠) المصدر السابق : ج ١٢ ص ٥١ .

(٧١) المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٤٣ ، ٤٤ .

وظل يتبع هذه السياسة ويواصل جهوده في نشر الاسلام حتى أصبحت معظم القبائل المغولية التي تعيش في امارته تدين بالاسلام وخاصة بدو المغول الذين كان كثير منهم بعيدا عن الاسلام حتى مستهل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر للميلاد ، وتوج هذا الأمير بذلك العمل ما فعله السلطان طرما شيرين والسلطان تغلق تيمور اللذان نشرا الاسلام بين سكان الحضر من المغول في ولايات آسيا الوسطى . ويشير أرنولد الى أن محمد خان كان يتبع في نشر الاسلام بين بدو المغول حوالى عام ٨١٩هـ / ١٤١٦م وسائل العنف وأنه لم يتوان عن اتباع هذه الوسائل حتى أصبحت معظم القبائل المغولية في عهده تدين بالاسلام ، ويعود ويناقض نفسه ويقول أنه يبدو أن هذه الوسائل لم يكن لها تأثير في حمل المغول كافة على قبول الاسلام بدليل أن هناك قبائل مغولية وخاصة في المناطق الشمالية ظلت تدين بغير الاسلام وذلك قرب نهاية القرن السادس عشر للميلاد ، وأن هذه القبائل تم تحويلها الى الاسلام على يد بعض الدعاة من الصوفية والبدراويش من أمثال الشيخ (اسحاق ولى) الذى حول كثيرين الى الاسلام وياشر نشاطه لمدة اثنى عشر عاما في كاشغر وباركند وختن ، كما عني أيضا بنشر الاسلام بين أمم القرغيز والقازاق . . حتى أسلم عدد كبير منهم (٧٢) .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت ، أى في القرن السادس عشر ، عديد من الملاوات (جمع ملا) أو العلماء الذين كان لهم فضل كبير في تدعيم الحركة الاسلامية وفي نشر الاسلام مدعمين في ذلك جهود الحكام من المغول . من هؤلاء الملاوات مخدوم أعظم الذى يسمى عادة باسم (مولانا خوجا قى قاشانى) والذى كان تلميذا في عهد التيموريين للخواجه عبد الله أحرار . وكان هذا الملا تقيا ورعا ظهرت على يديه كثير من المعجزات ، مما جعل أمراء عصره يعاملونه باحترام كبير ، وجعل كثيرا من الوثنيين يعتنقون الاسلام على يديه ، ومازالت مقبرته التي دفن بها عام ٩٤٩هـ / ١٥٤٢م في سمرقند مزارا للناس حتى الآن (٧٣) .

(٧٢) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(73) Howorth : op. cit., v. 2, p. 741.

يمثل الملامخدوم أعظم وأولاده وطبقته من العلماء ظاهرة سياسية برزت على سطح الحياة في هذه البلاد وهى ازدياد نفوذ هؤلاء العلماء وتدخلهم في

وهكذا تواكب حكام المغول جنكيزخانيين وتيموريين في المسير على درب الاسلام وعملوا على نشره حتى عم معظم قبائل المغول سواء في الحواضر والمدن أم في القرى والأصقاع النائية ، وسواء في غياق الصحراء أم على ضفاف الأنهار ، ولم تلبث حياة هؤلاء المغول بدوا وحضرا أن تشكلت حسب دينهم الجديد وظهر ذلك في كثير من مظاهر حياتهم وأموالهم وأحوالهم مما يدلنا على حسن اسلام القوم وعلى عمق انفعالهم بهذا الدين واخلاصهم له .

٣ — مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول آسيا الوسطى :

ومظاهر الحياة الاسلامية عند مغول آسيا الوسطى كثيرة وعديدة ،

الشنون السياسية . وكانت الدولة التيمورية قد انتهت في بلاد ما وراء النهر وتركستان في ذلك الوقت (القرن الخامس عشر للميلاد) وحلت محلها الدولة الأوزبكية ، وبدأت بوادر الضعف تظهر في عهد هذه الدولة ، وقام النزاع بين العلماء الذين ازداد نفوذهم وبين الأمراء الجفطائيين المغول الذين كانوا قد استقلوا بتركستان واتخذوا كاشغر عاصمة لهم ، وانتهى هذا النزاع باستيلاء العلماء على السلطة وقامت في تركستان حكومة العلماء (الخوجات) منذ عام ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧م وانتهزت الصين هذه الفرصة وبدأت تزحف على هذه البلاد منذ أواسط القرن الثامن عشر وهزموا حكامها المتنازعين وبدأوا باستأصليون المسلمين بالقتل والاضطهاد والتشريد ، وظلوا على ذلك حتى حكموا كاشغر أخيرا عام ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨م ، وبذلك استولت الصين على تركستان (الشرقية) . وكان الروس قد تمكنوا في نفس الوقت من الاستيلاء على تركستان الغربية (بلاد ما وراء النهر عام ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨م ، وخوارزم عام ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦م ، وتركستان عام ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧م) . وفي عام ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤م استولوا على مدينة مرو وسرخس ، وبذلك تم للروس فتح تركستان الغربية وقضوا على ممالكها الاسلامية بعد حروب دامت ثلاثة قرون من الزمان (٩٨٩ — ١٣٠٢ هـ / ١٥٨١ — ١٨٨٤م) ، اضطهد فيها قياصرة الروس المسلمين وحاربوا الاسلام حربا شعواء تماما كما فعلوا في دولة المغول في بلاد القفجاق . (انظر : عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلب آسيا ، ص ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٨) . ولما قامت الثورة البلشفية عام ١٩١٧م قام على انقاض هذه الممالك الاسلامية ست جمهوريات سوفيتية اشتراكية وأخذ الاسلام في هذه الجمهوريات يواجه خطرا أشد وأعتى وهو خطر الشيوعية التي تعادى جميع الأديان والملل والنحل .

انظر : أحمد رزقانه : الجغرافية السياسية ، ص ١٤٩ — ١٩١ .

منها أن هؤلاء المغول بعد أن أسلموا واطبوا على أداء الشعائر الدينية وخصوصا صلاة الجماعة في المساجد ، ولم يكن هذا العمل قاصرا على عامة المغول بل كان سلاطينهم يضربون المثل في ذلك للرعية ، فالسلطان طرما شيرين كان يحرص على صلاة الجماعة في المسجد ، ويقول ابن بطوطة أنه « كان يحضر معه الصلوات وذلك أيام البرد الشديد المهلك ، فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ، ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ، ويأتى اليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده ، وكذلك يفعلون في صلاة العصر » (٧٤) . ويعود السلطان بعد أداء الصلاة الى مجلسه في الأردو ماشيا على قدميه ، فيتقدم اليه الناس ويقدمون له شكاياتهم « فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ذكرا أم أنثى » (٧٥) ، وهى صورة لا تقل عما كان موجودا عند خلفاء الاسلام وملوكه العظام الذين كانوا يحرصون على الالتقاء المباشر بالناس سواء في المساجد أم في الطرقات ومجالس العلم والمواسم والأعياد .

وكان تفاعل سلاطين المغول وحكامهم يبدو واضحا في قيامهم بتطبيق الشريعة الاسلامية وأخذ الناس بها . وقد أدت الشدة في التطبيق الى حدوث قلاقل واضطرابات في بعض الأحيان خاصة وأن بدو المغول الذين كانوا يعيشون في الفياق والصحارى كانوا بدوا رحلا لا تصل اليهم يد الدولة ، وكانوا يعيشون في ضوء السياق وقوانين البادية التى يعرفونها منذ دهور طويلة ، ولذلك فإن هؤلاء البدو تمردوا في بعض الأحيان على سلاطينهم من المغول لهذا السبب ، وظهر ذلك في أواخر عهد طرما شيرين نفسه وأدى الى عزله كما سبق القول ، ولكن هذا التمرد لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما قام سلاطين المغول بتركيز جهودهم في نشر الاسلام بين هؤلاء البدو من المغول وخاصة في عهد السلطان تغلق تيمور والأمير محمد أمير مغالستان ، وظل تطبيق الشريعة الاسلامية ساريا حتى في أيام التيموريين الذين كانوا يحرصون على ذلك كل الحرص لدرجة أن أحدهم وهو شاه رخ (شاه رخ) بن تيمورلنك (٨١٠ — ٨٥٠ هـ / ١٤٠٧ — ١٤٤٦ م) حرص على أن يصف نفسه بأنه سلطان مسلم وخليفة للمسلمين ، وأبى أن يعترف بقوانين جنكيزخان (٧٦) .

(٧٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٧٦) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

وكانت ظاهرة التبرك بالأولياء والصالحين ظاهرة مألوفة عند سلاطين المغول وعامتهم حتى قبل أن يسلموا ، فكانوا يأتون في عهد السلطان طرما شيرين لزيارة الزوايا ذات الأضرحة التي تضم رفات الأولياء والصالحين وصحابة رسول الله (ﷺ) ، فكانوا يزورون على سبيل المثال الزاوية التي تضم رفات قثم بن العباس (رضى الله عنهما) في سمرقند ، « وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدرهم والدنانير ، فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك » ، الذى كان يعلوه ضريح فخم وقبة عظيمة مزينة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب ، وبالقناديل المصنوعة من الفضة الخالصة . وكان يخدم هذا الضريح أحد العباسيين ، كان قد قدم على السلطان طرما شيرين من العراق (٧٧) .

ومن الظواهر الأخرى التى تدل على عمق الاسلام فى قلوب المغول فى آسيا الوسطى هو تواضعهم الشديد للعلماء . وقد بلغ من تواضع السلطان طرما شيرين لهؤلاء العلماء والفقهاء والمشايخ والصوفية أن كلمتهم كانت تعلو كلمته ، وأنهم كانوا لا يخافون بطشه أو نفوذه ، بل أن واحدا منهم كان يعنفه ويفلظ له القول حينما كان يعظه أثناء خطبة صلاة الجمعة ، وكان هذا السلطان لا يستنكر ذلك ولا يستغربه ، بل كان يتقبله بدموع الندم والتوبة (٧٨) .

وقد أعطانا ابن بطوطة صورة جميلة لهذه الخلعة التى اتصف بها هذا السلطان فيقول أنه « حضر صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان ، فجاء أحد فتياناه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته أن يصلى ، وقال للإمام حسام الدين الياغى : ان مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا ريثما بتوضأ . فقام الامام المذكور وقال ما معناه : الصلاة لله أو لطرما شيرين ؟ ثم أمر المؤذن بأقامة الصلاة ، وجاء السلطان وقد صلى (الامام) منها ركعتين ، فصلى (السلطان) الركعتين الأخيرتين حيث انتهى به القيام وذلك فى موضع قريب من نعال الناس عند باب المسجد ، وقضى ما فاتته وقام الى الامام ليصافحه وهو يضحك ، وجلس امام المحراب بجوار الامام الشيخ وابن بطوطة جالس بجانب الامام من الناحية الأخرى ، فوجه السلطان كلامه الى ابن بطوطة قائلاً له « اذا مشيت الى بلادك تحدث أن كثيرا من فقراء الأعاجم يفعل هكذا

(٧٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٥٠٣ .

(٧٨) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

مع سلطان الترك ! » وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ، ويغلظ عليه في القول ، والسلطان ينصت لكلامه ويبكى (٧٩) .

وهذه الصورة التي رواها لنا ابن بطوطة لا شك أنها بالدلالة على مدى تقدم الحركة الاسلامية بين مغول آسيا الوسطى وعلى مدى انفعال هؤلاء المغول بالاسلام وتقاليده وعلى مدى النفوذ الذي وصل اليه المشايخ والعلماء في تلك البلاد . وهناك صورة لا تقل هي الأخرى روعة وتعبيراً عن هذه المعاني كلها رواها لنا فامبرى عن أحد الحكام التيموريين وهو السلطان أحمد ميرزا حيث يقول ان هذا السلطان كان مثالا للحاكم التيمورى الذى يحترم المشايخ والعلماء ، وقد بلغ من احترامه وتوقيره لشيخه خواجه عبد الله انه كان يجلس في حضرته على ركبته خافض الرأس ، والتزم هذا الوضع ذات مرة وهو يعانى الما شديدا في ركبته بسبب قطعة عظم حادة تصادف وجودها حيث كان يجلس ، ولم يرد ان يبعدها حتى لا يبدو وكأنه منشغل عن كلام الشيخ (٨٠) .

وصورة ثالثة لا تقل دلالة عن الصورتين السابقتين رواها لنا هورث Howorth عن الشيخ قاسم عزيزان (ت ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م) الذى كان له احترامه الكبير في بلاد ما وراء النهر حتى انه عندما علم أحد الحكام المتحاربين بنية هذا الشيخ في زيارته لحته على وضع حد لهذه الحرب ، بادر هذا الحاكم بالذهاب الى ذلك الشيخ وهو عارى الرأس ويلف حول عنقه حبلًا ربطت نهايته في حصان ، وهو الخان العظيم الحاكم لأقطار كثيرة . ولما سأله الشيخ عن ذلك عندما تقابلا ، أجابه ذلك الخان بأنه أراد أن يعاقب نفسه بالسير على هذه الصورة حتى يصل الى الخانقاه (الزاوية) الخاصة بالشيخ الذى يجب أن يمشى الناس اليه لا أن يمشى هو الى أحد حتى ولو كان المشى الى الخان أو السلطان (٨١) .

ولم يكن حب سلاطين المغول في آسيا الوسطى لعلماء الاسلام قاصراً

(٧٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ١ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٨٠) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٧٧ .

(81) Howorth : op. cit., v. 2, p. 742.

على احترامهم والتواضع الشديد لهم ، بل تعدى ذلك الى مشاركتهم في الاشتغال بالعلم أو الاحتفاء به وبمجالسه ، فقد وصلنا عن بعضهم مثل السلطان أولوغ بك بن شاهرخ بن تيمورلنك (٨٥٠ — ٨٥١ هـ / ١٤٤٦ — ١٤٤٧ م) أنه كان متأثرا بالحضارة الاسلامية والمدنية الايرانية أكثر من جده تيمورلنك لدرجة أنه ناقه في كافة الاتجاهات الدينية والعلمية والعمرانية التي اشتهر بها هذا الجد ، فلم يقتصر أولوغ بك على لقاء العلماء وحضور مجالسهم كما كان يفعل جده تيمورلنك ، بل كان يشغل هو نفسه بالعلم عامة ويعلم الهيئة (الفلك) خاصة ، وهو من هذه الناحية نموذج نادر في التاريخ الاسلامي للحاكم العالم ، حتى كان معاصروه يشبهونه في هذه الناحية بالاسكندر المقدوني تلميذ أرسطو . وتعتبر كتب أولوغ بك وكتب خلفائه الأقربين في علم الهيئة بأنها آخر ما وصل اليه المسلمون في موضوعها . وقد اتخذ هذا السلطان من بين أصحابه من الترك تلميذا له وخليفة في هذا العلم وهو على قوشجى الذى توفي عام ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م . وجدير بالذكر أن هذا السلطان وهذا العالم وغيره من العلماء لم يحاولوا أن يكتبوا بالتركية ولكنهم حرروا ما كتبوه بالفارسية والعربية (٨٢) ، مما يدل على مدى تشربهم لعلوم الاسلام المدونة في معظمها بهاتين اللغتين في ذلك الحين .

وهكذا شارك السلاطين والأمراء العلماء في ميدان البحث العلمى لا يضيرهم في ذلك أن يكونوا دونهم في الثقافة والعلم . ولقد ترك لنا (على شيرنوائى في كتابه (مجالس النفائس) ثبثا بأسماء الأمراء التيموريين المشتغلين بالعلم والأدب ، فكان منهم شاهرخ ميرزا الذى كان ينظم الشعر بالفارسية والتركية على السواء (٨٣) ، كما أنه كان من أعظم الحكام التيموريين في فنون الكتب ورعايتها ، اذ جمع لذلك الفنانين من كافة أنحاء دولته وأقام لهم معهدا علميا ومكتبة عظيمة في هراة ، حيث تعاون الوراقون والنساخ والمذهبون وقصاصوا الورق وصانعو الأصباغ والمصورون والمجلدون في انتاج مجموعة من أروع الكتب التى ظهرت في العالم وقتذاك (٨٤) .

وكان من نتيجة احترام سلاطين المغول للعلماء ورفع مكانتهم ومشاركتهم

(٨٢) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٨٣) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٨٥ .

(٨٤) أربرى : نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

فى حب العلم وعقد مجالسه والاشتغال ببعض فروعہ أن ظهرت أسرات تتوارث العلم وتتوارث المناصب الدينية فى بلاد ما وراء النهر . مثال ذلك أسرة ستاجى وأسرة خاوند . ومؤسس الأسرة الأولى هو جمال الدين ستاجى الذى كان فقيها وشاعرا صوفيا ، استوطن خجندة عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م ومات بها عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م . وكانت الأسرة الثانية تقطن بخارى واشتهر من أبنائها مولانا كمال الدين ابن العالم والمفتى المشهور الأمير شمس الدين خاوند صاحب كتاب « منهاج المذكرين » وهو كتاب قيم فى التراجم ، وله كذلك عدة دواوين من الشعر ، وبعد موته عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ظل أبنائه يتوارثون مكانة والدهم وجدهم فى العلم ، ومن أشهرهم فخر الدين والملا تاج الدين العالم (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٥م) صاحب كتاب « بستان المذكرين » (٨٥) .

وقد نتج عن احترام سلاطين المغول للعلماء ورفع مكانتهم نتيجة أخرى وهى ازدهار العلوم الإسلامية وخاصة العلوم الدينية وراجت كتب الحديث بصفة خاصة ، وقام السلاطين والأمراء تدفعهم غيرتهم الدينية لرعاية هذه الحركة الروحية لا يألون جهدا فى ذلك (٨٦) ، وقاموا بالتمكين لهذه الحركة بالاكثار من بناء المساجد والزوايا والمدارس .

والواقع أن ظاهرة بناء المساجد والزوايا والمدارس من أحسن الظواهر الإسلامية وأروعها فى مملكة جغتای فى آسيا الوسطى وفى غيرها من ممالك المغول فى إيران وبلاد القفجاق ، وهى دليل واضح على مدى الانفعال العظيم والعميق بالإسلام وتقاليده . فقد كان كل سلطان من سلاطين مملكة جغتای يتخذ لنفسه مسجدا أينما قام ، سواء كانت اقامته فى العاصمة أم فى الأردو أى فى معسكره الذى كان يقيم فيه أحيانا خارج العاصمة والذى كان يسمى بالمحلة . وكان أمراء المغول يسرون على سياسة سلاطينهم فيتخذ كل منهم لنفسه هو الآخر مسجدا . وقد أقام ابن بطوطة قرب مسجد الأمير تقبغا نائب السلطان طرما شيرين عندما كان هذا السلطان غائبا عن محلته فى رحلة صيد (٨٧) . ويفيدنا ابن بطوطة أيضا بأن أحد الأمراء فى عهد طرما شيرين

(٨٥) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٣ .

(٨٦) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٨٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٦ .

عمر نحواً من أربعين زاوية في عمالته ووفر فيها الطعام والشراب لأنه كان محباً للإسلام والمسلمين (٨٨) .

وفي عهد تيمورلنك وخلفائه بلغت النهضة المعمارية الإسلامية الذروة ، وتعتبر منشآته العلمية والدينية من أهم المظاهر الدالة على حسن إسلامه ورعايته للإسلام والمسلمين في إمبراطوريته الواسعة . والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ، منها تلك القبة الفخمة وذلك الضريح العظيم الذي أنشأه تيمورلنك على قبر الولي التركي أحمد اليسوى بمدينة تركستان (٨٩) ، والمدارس التي أمر ببنائها في تبريز وبخارى وبغداد وغيرها من المدن وأوامره بإجراء الأرزاق عليها ، ولاتزال بقايا هذه المدارس تثير دهشة زوار بخارى حتى اليوم . ولقد جعل تيمورلنك من نفسه مثالا يحتذى في هذا المضمار ، ولذلك أخذ فريق من أبناء أسرته ومن الوزراء القبلاء يتنافسون فيما بينهم في بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء (المستشفيات) وإجراء الأرزاق عليها حتى أننا لا نجد مناصاً من القول بأن النهضة الفكرية في آسيا الوسطى كانت من ثمار عهد تيمورلنك ومن الخدمات التي أداها لبلاده (٩٠) ، فاليه يعود الفضل في إشاعة الاهتمام الجدى بالحركة العقلية والعلمية في إمبراطوريته الواسعة حتى بلغ بذلك العنصر التركي المغولي درجة من العزة لم يعرفها من قبل ، وحتى شهدت بلاده قبيل وفاته نهضة عقلية لا تنكر في ميدانى العلم والدين (٩١) . واليه يعود الفضل أيضاً في العناية بمسقط رأسه مدينة (كتش) (٩٢) حتى جعل منها بالفعل قصبه آسيا الوسطى الثقافية ، وصارت قبلة العلم والأدب في عصره ، فقد جلب إليها العلماء من مدارس خوارزم المشهورة ، والأساتذة من بخارى وقرغانة ، كما

(٨٨) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

(٨٩) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٢٧ ، فامبرى : نفس المرجع ،

ص ٢٥٠ .

(٩٠) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، عبد العزيز جنكيزخان :

نفس المرجع ، ص ٨٠ .

(٩١) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٩٢) كتش قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان ، وهى إحدى مدن بلاد

ما وراء النهر . انظر : ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٤٦١ ، القلقشندي :

ج ٤ ص ٤٣٥ .

أمر بنقل مكتبة بأكملها فوق متون البغال من مدينة بروصة التركية في آسيا الصغرى الى مدينة سمرقند (٩٢) .

وقد استمرت هذه الروح تسيطر على خلفائه فأكثروا من بناء المدارس والزوايا والمساجد ، فالسلطان أولوغ بك بنى خانقاه قيل أن قببتها كانت أعظم قبة من نوعها في عصره ، ومدرسة أنشأها في عام ٨٢٨هـ / ١٤٢٤ م وكان بها حمام مزين بالفسيفساء في أبداع صورة ٤ ومسجدا سمي بالمسجد المقطع ، لأن جدرانه وسقفه كانت تزينها جميعها نقوش وزخارف مصنوعة من الخشب المقطع ، وقلده في ذلك الأمراء والحكام ، مثال ذلك مير على شير الذي أقام بخراسان وحدها ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مسجدا ومدرسة ودارا للشفاء وقاعات للقراءة (٩٤) . كما أسس السلطان أحمد ميرزا كثيرا من المساجد والمدارس (٩٥) وقام الوزير قوقلتاش Kukaltash عام ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م ببناء مسجد في سمرقند ، وبنى عبد الله خان مدرسة لا تزال في حالة جيدة ، كما بنى عبد العزيز خان خانقاه فوق مقبرة الخواجه بهاء الدين على مقربة من بخارى ٤ وبنى أبو سعيد مدرسة في سمرقند ، الى غير ذلك من المساجد والمدارس والزوايا التي أذاعت الثقافة الاسلامية في بلاد جفطاي في آسيا الوسطى (٩٦) .

وهكذا انتشر الاسلام وانتشرت الثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية بين المغول في ممالكهم الثلاث : في بلاد القفجاق ، وفي بلاد ايران وآسيا الصغرى والعراق ، وفي آسيا الوسطى ، وتشرب المغول هذه الحضارة ورعوا علوم الاسلام ومعارفه بعد ان كانوا مدمرين لهذه الحضارة قاتلين لهذه

(٩٣) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٤١ — ٢٥٠ .

(٩٤) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٩٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٩٦) Howorth : op. cit., v. 2, p. 742.

العلوم وتلك المعرفة أثناء غزواتهم المدمرة ، وتحول هؤلاء المغول بالتدريج .
وفي فترة زمنية وجيزة لا تتجاوز النصف قرن الى حماة للاسلام بعد أن كانوا
غزاة له وقاهرين لأتباعه ومعتنقيه مدمرين لبلاده وممالكه مسقطين لخلافته .

وحتى تكتمل الصورة ويتم الحديث لابد أن تعرض لدولة المغول الرابعة
في بلاد الصين والخطا ولموقفها من الاسلام ، وهل حقق فيها الاسلام نصرا
كبيرا كما حدث في الممالك الثلاث التي تحدثنا عنها حتى الآن ، أم أن البوذية
هى التى فازت بالجولة فى تلك البلاد ؟ .

الفصل السادس

الاسلام ومغول الصين والخطا

كانت مملكة المغول في بلاد الصين والخطا (١) مملكة هامة ، فقد احتوت على مدينة قراقورم عاصمة الامبراطورية المغولية بممالكها الاربع التي انقسمت اليها ، وفي جهاتها تقع بلاد المغول وهم خالصة التتار ، كما أنها كانت مسقط رأس جنكيزخان (٢) وبها أقام وأقام من أتى بعده من الخوانين العظام الذين كان يدين لهم الايلخانات في الممالك الثلاث بالطاعة ، وكانوا يعينون من قبلهم في نطاق التقسيم الذي أوصى به جنكيزخان قبيل وفاته . وظل هذا الأمر معمولاً به بعد وفاة جنكيزخان فترة ليست بالطويلة ، إذ أنه بعد اعتناق ايلخانات الممالك المغولية الثلاث في ايران وآسيا الوسطى وبلاد القديجاق للإسلام انقطعت الصلة بينهم وبين الخوانين العظام في قراقورم ، واندمج المغول في كل مملكة في سكانها وأهلها الأصليين وصاروا شعباً واحداً .

وقد حدث نفس التطور في خانية المغول في بلاد الصين والخطا . فقد اندمج المغول هناك في السكان المحليين واعتنق معظمهم البوذية . وظل بعضهم يعبدون الأصنام أو الشمس (٣) ، واعتنق آخرون قليلون الاسلام وخاصة في غربى الصين وشمالها متأثرين في ذلك بمغول آسيا الوسطى التي كانت تصاقبهم وتتصل بهم من الناحية الجغرافية والثقافية والتجارية ، ومتأثرين أيضاً ببعض وزرائهم المسلمين وبيعض جندهم الذين كانوا يدينون بالاسلام . ذلك أن جنكيزخان اعتمد هو وخلفاؤه من بعده على الأويغور الشرقيين — وهم من الترك المسلمين — في ادارة شئون بيت المال ، واتخذوا منهم حجابهم

(١) انظر ما سبق أن ذكرناه عن بلاد الخطا ، ص ١٧ ، حاشية (٥) .

(٢) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٨٠ ، ٤٨١ .

(٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٤٤ ، القلقشندي : نفس

المصدر ، ج ٤ ص ٤٨٥ ، Saunders : op. cit., p. 118.

وعمال دواوينهم ، واستعار منهم جنكيزخان أبجديتهم التى طوعت لغة المغول للكتابة (٤) . وبذلك صار تأثير الأويغور المسلمين على المغول عظيما ، وخاصة من الناحية الثقافية ، ولا شك أن هذا التأثير كان مفيدا فى تحويل بعض المغول الى الاسلام .

وبجانب الأويغور المسلمين ، فقد استعان جنكيزخان بثلاثة من المسلمين الآخرين كانوا من أشد الناس اخلاصا له ، وهم جعفر خوجا ، وحسن ، ودانشمند الحاجب ، كما اتخذ من تاجر خوارزمى يدعى محمود يلواج مستشارا له ووزيرا ، واتخذ أيضا جنده من جميع الملل والأمم التى غزاها ، فضم جيشه كثيرا من الترك والافغان والفرس المسلمين (٥) . وكان لهؤلاء الجند أثرهم على زملائهم من جند المغول الوثنيين فأسلم بعضهم .

وقد سار ابنه قوبيلاي خان (٦٥٨ — ٦٩٣ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٩٤ م) على سياسته فاتخذ كثيرا من الموظفين من الايرانيين المسلمين ، فنشروا الاسلام فى الصين (٦) . مثال ذلك أحمد البناكتى Fanakti (اهما بالصينية) وهو أحد مواطنى مدينة بنكت التى تقع قرب طشقند . وقد عينه قوبيلاي خان وزيرا للمالية وظل يشغل هذا المنصب طوال عشرين عاما (٧) . كما عين هذا الخان أحد العرب الذين كانوا قد استقروا فى تلك البلاد واتخذ اسمها صينيا هو (بوشو شنغ) قاضيا ، كما عين عربيا آخر يسمى (شوقنغ) مساعدا لرئيس وزرائه . . وتتناثر فى مختلف الكتب والابحاث التاريخية أسماء مثل عبد الرحمن الذى اختير رئيسا لبيت المال وخول حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين ، وقطب الدين (توتنغ) الذى كان وزيرا للملكة عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م . ويذكر الرحالة الايطالى ماركو بولو فى مذكراته أنه التقى

(٤) هامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(٥) ستودارد : حاض العالم الاسلامى ، ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٤٦ ، فهمى هويدى : الاسلام فى الصين ، ص ٦٢ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٢ .

(٦) ستودارد : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٤٦ ،

Saunders : op. cit., p. 124.

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٣٧ ، فهمى هويدى :

نفس المرجع ص ٦٤ ،

Saunders : op. cit., p. 124, Prawdin : op. cit., p. 332.

في الصين عام ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م باثنين من كبار المهندسين المسلمين ، هما على الدين الموصلی (نسبة الى الموصل بالعراق) واسماعيل الهروي (نسبة هراة في أفغانستان الآن) ، ويذكر أن الأمير جهاندار (سيانتا بالصينية) دخل اقليم يونان Yunnan عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ومعه قائدان مسلمان أحدهما ناصر الدين بن عمر (ناسولا تنغ) (٨) ، وهناك غير هؤلاء كثير من المسلمين الذين لمعوا في سماء الصين أثناء حكم المغول لها ، وكان من أشهر هؤلاء جميعا رجل يعرف بالسيد الأجل (٩) .

والسيد الأجل من أشهر الوزراء والحكام الذين دخلوا في خدمة المغول وكان لهم اثر كبير في نشر الاسلام في غربى الصين وخاصة في مقاطعة يونان . وهذا الرجل سيد شريف من آل البيت من بخارى اسمه شمس الدين عمر ويسميه الصينيون (هيان يانغ فانغ) وكان قد دخل في خدمة جنكيزخان (٦٠٤ — ٦٢٤ هـ / ١٢٠٦ — ١٢٢٧ م) وقدم له الف فارس ونصح له . وكان مخلصا في ولاءه له وللمغول ، فأكرمه جنيزخان وجعله ضمن بطانته فارتقى شأنه وتولى المناصب العالية (١٠) ، فعينه أوكتاى بن جنكيزخان (٦٢٥ — ٦٣٩ هـ / ١٢٢٧ — ١٢٤١ م) حاكما لثلاث ولايات هى : فونغ وتسيتغ ويون ناى ثم استدعاه الى خان باليق (بكين الحالية) وعهد اليه بمنصب كبير ، ولما تولى الخانية منجوخان (٦٤٩ — ٦٥٧ هـ / ١٢٥١ — ١٢٥٩ م) عهد الى السيد الأجل بادارة ست نظارات أو ادارات بالاشتراك مع صينى آخر ، ولما تولى

(٨) فهمى هويدى : نفس المرجع ، ص ٦٤ — ٦٦ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٥ .

(٩) السيد الأجل كان لقبا يطلقه اهل الهند والسند وتركستان على الأشراف ، وهو يعادل لقب النقيب ، أى نقيب الأشراف عند أهل مصر والشام والعراق ، ولقب الطاهر في ايران .
انظر : ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢٥٨ .

والسيد الأجل البخارى كان من أهل بخارى الذين كانوا قد هاجروا من بلاد ما وراء النهر منذ زمن بعيد فرارا من السلاجقة الى بلاد الصين والخطاء وحملوا معهم الاسلام الى المملكة الوسطى في الصين ، ونتج عن ذلك أن اقليم يونان الجبلى تحول الى الاسلام . انظر :
Saunders : op. cit., pp. 183-184.

(١٠) ستودارد : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٣٠ .

السلطة قوبيلاي خان (٦٥٨ — ٦٩٣ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٩٤ م) عهد اليه بادارة بيت مال الامبراطورية ثم عينه وزيرا له وجعله عضوا في مجلس امانة السر الأعلى ثم تولى ادارة ولاية يونان Yunnan الخبرة التي تقع في جنوبى الصين بعد فتحها وضمها الى مملكة المغول ، فعمرها السيد الأجل وبنى فيها المدارس والطرق والجسور والسدود وأزال المغارم والمظالم وبنى فيها مساجد للمسلمين . ويعود دخول الاسلام بشكل مؤثر في هذه المقاطعة الى عهد هذا الرجل والى عهد ابنه نصير الدين (١١) حتى وجدنا جميع سكان مدينة تاليفو Talifu — عاصمة مقاطعة يونان — مسلمين في بداية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر للميلاد (١٢) ، نتيجة لاعتناء السيد الأجل بالتمكين للاسلام والمسلمين في هذا الاقليم حتى نسبت الروايات الماثورة في الصين هذا الرجل الى المغول وقالت عنه أنه كان مغوليا مسلما (١٣) مما أتاح له هذه الفرصة في نشر الاسلام .

ولا زال الصينيون يتفننون بأعمال السيد الأجل وخدماته حتى اليوم . وعندما مات هذا الرجل الشهير عام ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م (١٤) عم الحزن بلاد الصين بأسرها ، وصدرت أوامر الحكومة المغولية الصينية بعد ذلك عمام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م بتأليف سيرة للسيد الأجل بقلم (تشينغ هو) ، كما أقاموا له تمثالا في هيكل الحكماء (البائثون) في عاصمة مقاطعة يونان باسم الأمير (هسين يانج) وهو لقب السيد الأجل عند الصينيين (١٥) .

وقد ترك السيد الأجل خمسة أولاد وتسعة عشر حفيدا تداولوا الامارة والحكم جميعا ، ولا تزال أعقابهم معروفة في بلاد الصين حتى بداية القرن الحالى . وقد صار ابنه نصير الدين (ناسولا ينغ بالصينية) وزيرا للدولة ثم واليا على شنشى ثم مقاطعة يونان ومات سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م ، كما صار ابنه الثانى حسن قائدا عاما لجيوش (كوانغ تونغ) ، وصار الابن

-
- (١١) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٥ ، ستودارد : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ — ٢٣٨ .
 (١٢) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ .
 (١٣) ستودارد : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٤٦ .
 (١٤) أرنولد : نفس المرجع ص ٣٣٥ .
 (١٥) ستودارد : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٧٢ ، فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٦٧ — ٦٩ .

الثالث حسين وزيراً للدولة ثم والياً على ولاية (كيانغ سي) ثم على يونان بعد موت أخيه نصير الدين ، والرابع شمس الدين مديراً عاماً لمقاطعة (كييت تشانغ) بولاية (كيانغ سي) ، وصار الخامس مسعود وزيراً ثم والياً على مقاطعة يونان . وقد تعاقب أحفاد السيد الأجل على حكم هذه المقاطعة ، وكان من أشهرهم (بايان فنتشان بن نصير الدين) الذي رمم المسجد الأعظم في (سينغان فو) وحصل من الإمبراطور عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م على الاعترافه بأن الدين الاسلامي هو « الدين الحق الخالص » ، وهو اسم ظل الاسلام يحمله حتى القرن العشرين (١٦) .

ولا شك انه كان للسيد الأجل وأولاده وأحفاده أثر كبير في نشر الاسلام في مقاطعة يونان في جنوبي الصين وفي نشره في غربها وفي نواحي أخرى من تلك البلاد . ذلك أن سائر العمال والحكام كانوا يقتدون بسيرته ويتباهون بأعماله (١٧) . ففي مقاطعة كانسو في غربي الصين انتشر الاسلام بصورة كبيرة ، وقد دخلها الاسلام قبل عصر المغول على يد الأويغور الذين كانوا يسكنونها ثم على يد أهالي تركستان الشرقية المسلمين ، وعلى يد المغول الذين بقوا هناك من عهد تيمورلنك . وبهذا صارت أغلبية السكان تدين بالاسلام في هذا الاقليم من مملكة الصين وبلغت أعداد المساجد هناك بالمئات ، وكثيراً ما كان هؤلاء المسلمون الصينيون يأخذون أولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم على الاسلام خصوصاً عند حدوث المجاعات الشديدة (١٨) .

وقد جاب الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السمرقندي — وهو تاجر من سمرقند — بلاد الصين في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد وأما دننا بأن المسلمين كانوا يتمتعون في بلاد الصين في عهد المغول بمنزلة اجتماعية سامية ، فكانوا يحظون بالاحترام والتكريم لدرجة انه اذا قتل وثني مسلماً كان الوثني يقتل هو وأهل بيته وتنهب أموالهم ، وان قتل مسلم وثنياً كان لا يقتل به ، بل يطالب بديته التي كانت لا تزيد عن تقديم

(١٦) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٥ ، ستودارد : نفس المرجع

ج ٢ ص ٢٣٣ .

(١٧) ستودارد : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

(١٨) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ — ٢٣٨ .

حمار لورثة القتيل (١٩) . كما افادنا ابن بطوطة الذى رحل الى تلك البلاد فى شهر صفر عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م بهذه الحقيقة وأشار الى أن المسلمين كانوا فعلا مكرمين ومحترمين وأنهم كانوا موجودين فى كل مدن الصين ، وأنه كانت لهم أحياء خاصة بهم داخل تلك المدن ، وكان لهم فى كل حى أو مدينة مساجد وقضاة وشيخ للاسلام « تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه » (٢٠) . رأى ابن بطوطة ذلك بنفسه فى مدينة الزيتون (٢١) ، وصين كلان (٢٢) ، وقنجنفو ، والخنسا (٢٣) ، كما رأى الزوايا التى كانت فى هذه المدن ، والتى كانت تحظى بأوقاف يصرف منها على أهل الزاوية وعلى الغرباء الوافدين من المسلمين (٢٤) .

وقد اشار هذا الرحالة أيضا الى أن الغناء كان يتم هناك باللغة الصينية والعربية والفارسية (٢٥) ، مما يشير الى وجود تأثير اسلامى فى تلك البلاد وان كان هذا التأثير قليلا أو محدودا حتى أن هذا الرحالة المسلم أبدى ألمه لما رأى من غلبة الكفر بها ، « والمناكير الكثيرة » التى كان يراها عندها يخرج من منزله حتى أنه قرر ألا يغادر هذا المنزل الا لضرورة (٢٦) .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا المقام أن التجار العرب وغيرهم من

-
- (١٩) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٨٦ ، فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٧٠ .
- (٢٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٣٥٥ ، ٤١٤ ، ٤١٨ .
- (٢١) مدينة الزيتون هى ما تسمى باسم (تسى تون ، أو تشيو انتشو) الآن . ويقول ابن بطوطة أن هذا الاسلام (الزيتون) لم يطلق عليها لأن بها زيتون ، فالزيتون ليس بها ولا بجميع بلاد الصين والهند ، ولكنه اسم وضع لها . انظر : ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤١٧ ، فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٥٤ .
- (٢٢) صين كلان اسم يطلق على مدينة تسمى باسم صين الصين . انظر : ابن بطوطة : ص ٤١٨ ، فهمى هويدى : ص ٥٧ .
- (٢٣) مدينة الخنسا هى مدينة قانصوه عند العرب وتسمى الآن باسم هانج تشوفو . انظر : فهمى هويدى : نفس المرجع ، ص ٧٧ .
- (٢٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤١٨ — ٤٢١ .
- (٢٥) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .
- (٢٦) المصدر السابق ، ص ٤٢٠ .

تجار المسلمين الذين توافدوا على بلاد الصين وسكنوا مدن الصين الساحلية بالذات قبل الغزو المغولي لتلك البلاد في القرن الثالث عشر للميلاد لم يقوموا بنشاط يذكر في نشر الاسلام في بلاد الصين حتى أتى الفتح المغولي لتلك البلاد وتمخض عن حركة هجرة واسعة النطاق هاجر فيها كثير من المسلمين على اختلاف قومياتهم من عرب وفرنس واتراك وغيرهم الى الامبراطورية الصينية تجارا أو موظفين ومعلمين أو أسرى حرب ، واستقر عدد كبير منهم في هذه البلاد بصفة دائمة وتزاوجوا من نساء صينيات ، فكان لهم تأثيرهم في تحويل بعض الصينيين والمغول الى الاسلام ، وخاصة في مقاطعات الغرب والشمال والجنوب وبالذات في مقاطعات هينكانج وكانسو ويونان التي كان أهلها مسلمين سنين على المذهب الحنفى ومن أشد المسلمين تمسكا بالسنة (٢٧) .

وعلى ذلك فان أباطرة المغول في بلاد الصين لم يقفوا حجر عثرة أمام استمرار انتشار الاسلام في هذه المقاطعات ، وتركوا الاسلام وشأنه يتنافس مع ديانات الصين العديدة . ومع ذلك فلم يغز الاسلام بانتصار يذكر خارج نطاق المقاطعات التي أشرنا اليها ، وهى مقاطعات قليلة بالنسبة لبلاد كالصين ، وظل المسلمون في هذه البلاد أقلية منذ عهد المغول وحتى اليوم .

أما بلاد الخطا والتي تشمل شمالى الصين ومنغوليا فان بارتولد يقول أنه لم يرد شيء عن الدعوة للاسلام فيها في عهد جنكيزخان رغم وجود كثير من التجار المسلمين في عاصمته خان باليق التي كانت تقع في هذه البلاد ، انه لا توجد الا رواية واحدة تدل على أن بعض المغول دخلوا في الاسلام وجنكيزخان على قيد الحياة ، فقد كان أخو زوجته وهو أحد زعماء الماركيت يحمل اسمة اسلاميا فقد كان يسمى جمال خوجة (٢٨) .

وعندما زار ابن بطوطة بلاد الخطا عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م قال انه « ليس بها أحد من المسلمين الا من كان حاضرا غير مقيم ، لأنها ليست بدار مقام ، وليس بها مدينة مجتمعة ، وانما هى قرى وبساتين فيها الزرع .

(٢٧) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، فامبرى : نفس المرجع
ص ١٧٤ ، ستودارد : نفس المرجع ، ج ص ٢٥١ .
(٢٨) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

والفواكه والسكر » (٢٩) . ينهم ذلك أيضا من كلام ابن بطوطة عن خان باليق حين زيارته لها ، اذ لم يشر الى جالية اسلامية تقيم بها ، فقط أشار الى اسم « الشيخ برهان الدين الصاغر جى الذى كان الخان قد قدمه على جميع المسلمين فى بلاد الخطا والصين وخاطبه بصدر جهان » (٢٠) ، ولا يستبعد أن يكون قد التف حول هذا الشيخ قلة من المسلمين لكنهم كانوا لا يشكلون جالية (٢١) . ويبدو أن عدد المسلمين كان كبيرا فى مدينة قراقورم التى اتخذها المغول عاصمة لامبراطوريتهم بعد تركهم لمدينة خان باليق ، فقد شاهد فيها ابن بطوطة بعض المسلمين أثناء تشييع جنازة أحد الخوانين وقال أنه « لم يتخلف — عن ذلك — أحد من الرجال ولا النساء ، المسلمين والكفار ، وقد لبسوا جميعا ثياب العزاء ، وهى الطيالسنة البيض للكفار ، والثياب البيض للمسلمين » (٢٢) .

ولا شك أنه كان لقرب هذه المدينة من تركستان أثر كبير كما سبق القول فى دخول التأثيرات الاسلامية اليها لدرجة أنه فى عهد أسرة (منج) التى حكمت بلاد الخطا والصين من عام ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م الى سنة ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٤ م (٢٣) استعمل التقويم العربى ، اذ قام رجل يدعى الشيخ محمود بترجمة كتب التقويم العربية الى لغات الصين والخطا ، وظل هذا التقويم العربى الأصل معمولاً به هناك طوال هذه الفترة (٢٤) . كما قدم مؤسس هذه الأسرة كثيراً من الامتيازات للمسلمين فى بلاده ، وتدل كثرة المساجد التى بنيت هناك على انتعاش الاسلام خلال الفترة التى قضتها هذه الأسرة فى الحكم (٢٥) .

ورغم هذا الانتعاش الذى حظى به الاسلام الى حد ما فى عهد المغول فى بعض بلاد الصين والخطا وانتشاره بين بعض المغول وغيرهم فى تلك

-
- (٢٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٢٣ .
 - (٣٠) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .
 - (٣١) فهمى هويدى : نفس المرجع ، ص ٧٩ .
 - (٣٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٢٤ .
 - (٣٣) فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٨٠ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ .
 - (٣٤) ستودارد : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٧٢ .
 - (٣٥) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ .

البلاد ، الا ان خوانين المغول أنفسهم لم يقدموا على اعتناقه ، وان كانت هناك اشارة غير مؤكدة تشير الى أن أحد هؤلاء الخوانين قد اعتنق الاسلام في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر للميلاد . اذ يقول العمري الذى توفى عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م « ان صاحب الصين والخطا ووارثه تخت جنكيزخان . . قد تواترت الآن الأخبار بأنه قد أسلم ودان بدين الاسلام ، ورقم كلمة التوحيد على ذوائب الاعلام ، وان صح وهو المؤمل ، فقد ملأت الامة المحمدية الخافقين وعمت المشرق والمغرب وامتدت بين ضفتى البحر المحيط » (٢٦) .

وهناك رواية أخرى أوردها توماس أرنولد يتحدث فيها عن أن أحد الملوك التيموريين وهو (الشاه رخ بهادر) بن تيمورلنك انتهز فرصة قدوم سفير صينى الى قصره فى سمرقند عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م وسلمه رسالتين لامبراطور الصين المغولى ، احداهما باللغة العربية والاخرى بالفارسية ، يدعو فيه الى الاسلام ويتحدث فيهما عن مزايا هذا الدين وأنه يعمل بمقتضى أحكامه فى حكم بلاده ، ويطلب منه أن يعمل هو الآخر بالشرعية الاسلامية حتى يقوى الاسلام وينال سلطان الآخرة بدلا من سلطان الدنيا (٢٧) .

وهناك رواية ثالثة ساقها لنا تاجر مسلم يدعى سيد على أكبر كان قد قضى سنوات قليلة فى بكين فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وتحدث عن أن أحد أباطرة الصين من المغول قد تحول الى الاسلام ، وأن عدد المسلمين كان كثيرا فى مدينة كنجنفو Kenjanfu ويقدر هذا العدد بثلاثين ألف أسرة مسلمة ، وأن هؤلاء المسلمين تمتعوا بعطف هذا الامبراطور الذى منحهم الحرية الدينية وهبات من الأرض ، وأنه فى العاصمة نفسها يوجد أربع مساجد كبرى ، ويوجد فى غيرها من المدن الأخرى ما يقرب من تسعين مسجدا بنيت كلها على نفقة هذا الامبراطور (٢٨) .

ورغم هذه الروايات فانه من المؤكد أن اباطرة الصين والخطا من المغول لم يعتنقوا الاسلام وان كان بعضهم قد عطف على المسلمين القليلين هناك .

(٣٦) العمري : التعريف ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ،

ج ٤ ص ٤٧٧ .

(٣٧) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ — ٣٣٩ .

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

كما أفادت الرواية السابقة ، وسمحوا لهم باقامة المساجد والزوايا كما جاء عند ابن بطوطة ، وعينوا منهم بعض الوزراء والحكام والموظفين كما سبق القول ، واتخذوا سياسية الحياد بين الأديان التي تعددت في امبراطوريتهم الواسعة واعفوا جميع فقهاء هذه الأديان وأحبارها وكهانها وأساقفتها ورهبانها من « جميع المئونات والأوزار والتكليفات » (٣٩) . ولكن المحيط البوذي الكبير الذى كان يعيش فيه هؤلاء الأباطرة تغلب منذ البداية ، فدان معظم المغول هناك بهذا الدين بعد أن ذابوا وانصهروا مع الشعب الصينى الكبير الذى يعتنق هذا الدين مع غيره من الأديان الصينية الأخرى مثل الكنفوشيسية وغيرها .

وإذا كان الاسلام لم يحقق انتصارا ذا قيمة على مغول الصين والخطا إلا أنه حقق انتصارا حاسما وكبيرا كما سبق القول على مغول ايران ومغول آسيا الوسطى ومغول بلاد القفجاق ، وتمكن الاسلام الأعزل المهيض الجانب من القضاء على الوثنية المغولية المدعمة بأقوى الجيوش وأعتاها في ذلك الوقت ، فتحول مغول هذه البلاد الثلاث الى الاسلام وصاروا شعبا مسلما يفعل — كما رأينا — بالاسلام وتقاليده كاحسن ما يكون الانفعال ، وأخذوا يبذلون جهدهم للدعوة الى هذا الدين ويعدون العدة لاستئناف حركات الجهاد بهدف نشره في سيبيريا وفي روسيا وفي وسط آسيا وفي بلاد الهند حيث كانت توجد بعض القبائل المغولية والتركية والهندية وغيرها من القبائل والشعوب التى كانت لا تزال على الوثنية في ذلك الحين ، وكان المغول في ذلك يخدمون الحركة الاسلامية ويفعلون في هذا السبيل ما فعله اخوانهم وبنو عمومته من الترك السلاجقة من قبل وما فعله اخوانهم وبنو عمومته من الترك العثمانيين فيما بعد ، وهكذا كان النصر في النهاية للاسلام ضد هؤلاء المغول الذين دحروا قواته ذات يوم .

الختام

وهكذا بعد أن طوفنا بممالك المغول كلها ورأينا الاسلام يغمر المغول في ثلاث ممالك منها ، ظهرت تلك الصفحة المطوية من تاريخ المغول والاسلام لأول مرة في صورة واضحة ومكتملة ، وهى صورة تنطق بالعظمة والروعة بأى مقياس من المقاييس وعلى أى نحو من الأنحاء .

وسر العظمة والروعة في هذه الصورة وفي تلك الصفحة التى لم تعد مطوية أنها وضعت يدنا على سر من أسرار قوة الاسلام وعظمته ، هذا السر يكمن في أنه دين يطوع الناس اليه ويجعلهم يقبلون عليه طواعية واختيارا ، حتى لو كان هؤلاء الناس من عتاة المغول وقساة القتار . فهو دين لا يتوقف عن الانتشار حتى في أصعب أوقاته وأشد أزماته وأقسى محنه وشدائده ، ذلك أننا رأينا يستدير بعد أن تلقى الضربة المغولية التى كادت تقتصم ظهره ، وتلقف ضاربه الفظ ، وهذب من غلظته وشذب من وعر أخلاقه وخشونة مظهره ومخبره ، وأعطاه الكثير والكثير من قيمه ومبادئه ومظاهر حضارته ، فتحول هؤلاء الذين تهجموا عليه ذات يوم وحاولوا القضاء عليه في عقر داره في غفلة من الزمن ، الى اعتناقه والايمان به في حماس وإخلاص منقطع النظير ، وأصبحوا حماه والمدافعين عنه .

وننتج عن ذلك أن أصبحت معظم قارة آسيا وشرقى أوربا تحت سيطرة هؤلاء المغول المسلمين ، وقام هؤلاء المغول في حماس كبير وإخلاص تام — كما رأينا — بعملين كبيرين عظيمين : أولاها هو نشر هذا الدين بين شعوب وقبائل وعلى أرض لم تعرف الاسلام من قبل وخاصة في القبت وغربى الصين ومنغوليا وجنوبى سيبيريا وسيبيريا الغربية وجنوبى روسيا وشسبه جزيرة القرم ، وذلك أثناء قوتهم وازدهار دولتهم . أما العمل الثانى الذى قام به المغول هو أنهم دافعوا عن الاسلام بعد أن اشتد عود الروس وأداروا معركة صليبية كبرى ضد الاسلام والمسلمين في قارة آسيا وشرقى أوربا منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر للميلاد ، وتمكن سلاطين المغول من المحافظة

على استقلال بلادهم والمحافظة على اسلامهم وعقيدتهم سنين طويلة وتصدوا لهذه المعركة الصليبية في شراسة بالغة وأذاقوا الروس الويلات قرب نهاية القرن الخامس عشر للميلاد ، ولما ضعفوا وتنازعوا فيما بينهم وانقسموا على انفسهم اجتاحتهم الروس من الغرب والصينيون من الشرق وقضوا على ممالك المغول الاسلامية وضموها لبلادهم ، وأصبح سكان هذه الممالك يجاهدون ويناضلون حتى يحافظوا على اسلامهم أمام صليبية روسيا القيصرية والصين البوذية ، وهم الآن يقومون بهذا الدور أمام خطر الشيوعية سواء في الصين أم في الاتحاد السوفييتي . ورغم ذلك فدور المغول في هذا الجهاد الذي بدأ منذ خمسة قرون ضد صليبية الروس وبوذية الصين لا ينكر ، وهو دور جدير بالتسجيل والذكر ، وهو صفحة رائعة من صفحات المغول والاسلام حرية بالاثادة والاهتمام .

واسلام المغول لم يكن ذا أثر ايجابي فعال في هذه الناحية فقط ، بل انه كان مفيدا أيضا في ناحية أخرى ، فهو قد وفر الحماية لظهور سلاطين الممالك في مصر والشام أثناء تصديهم للحملات الصليبية المتأخرة ، ولم يعد هؤلاء السلاطين يخيفهم أن يقتلوا بين نارين : نارل المغول من الشرق ونار الصليبيين من الغرب ، وهو ما كان قائما بالفعل منذ أن ظهر المغول على مسرح التاريخ في بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد ، وحتى اعتناقهم للاسلام قرب نهاية هذا القرن . وقد سبق أن رأينا المحاولات المتعددة التي قامت بها البابوية في روما وملوك أوروبا لجذب المغول الى ديانتهم والتحالف معهم ضد الاسلام والمسلمين حتى يقع هؤلاء المسلمون بين شقي الرحى ويتم الخلاص منهم الى الأبد . ولكن الاسلام حسم المعركة لصالحه ، واستطاع أن يجذب المغول اليه ، فضاع على صليبي أوروبا هذا الأمل ، وفشل هؤلاء الصليبيون في الالتفاف حول المسلمين من الشرق عن طريق المغول الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام . ولكن الصليبيين لم يتخلوا عن مشروعاتهم وتحولوا الى الالتفاف حول المسلمين وضربهم عن طريق آخر يدور حول افريقيا قرب نهاية القرن الخامس عشر للميلاد ، ونجحوا فيما فشلوا فيه في بلاد الشام ومع المغول في ايران والقفجاق وآسيا الوسطى وبلاد الصين .

المهم هنا هو أن المغول المسلمين لم يمكنوا الصليبيين من تحقيق أهدافهم ، وتصدوا لهم كما تصدوا لصليبية الروس ولم يتحالفوا معهم ووفروا

الحماية كما أثّرنا لظهور سلاطين الممالك في معاركهم ضد صليبي أوروبا ، وهو دور لابد من الاشارة به ووضعه موضع الاعتبار .

ولابد أن نسجل هنا أيضا حيوية الاسلام ورجاله في جذب هؤلاء المغول البدو المتوحشين الى الاسلام في ممالك ايران وبلاد القفجاق وآسيا الوسطى رغم ميل بعض خوانين المغول وسلاطينهم في هذه الممالك الى النصرانية ورغم ميل معظمهم الى البوذية قبل أن يتحولوا الى الاسلام . وهنا رأينا الاسلام يواجه خطرين : خطر بداوة المغول وشراساتهم ووثنييتهم وهمجيتهم ، وخطر المنافسة مع البوذية والمسيحية في جذب هؤلاء المغول الى صفه . وقد تمكن رجالات الاسلام من معالجة الخطر الأول وبدأ المغول ينفذون عنهم سمات البداوة ويستسيغون حياة المدن والحضارة بما فيها من سهولة عيش وطيب حياة . لم يألّفوها من قبل واندمجوا في السكان المحليين المسلمين . وقد ساعد هذا الأمر رجالات الاسلام على الصمود أمام التنافس الرهيب الذي فرضه البوذيون والمبشرون من مسيحي الشرق والغرب رغم الاضطهاد والعنف الذي لاقاه رجال الاسلام وعلماءه في هذه الفترة التي كان فيها المغول وثنيين ، ولكن صمود هؤلاء العلماء والدعاة والمشايخ والصوفيون والتجار وغيرهم وقيامهم بخوض المعركة الى النهاية ، جعلهم يحرزون النصر النهائي باعتناق سلاطين مغول بلاد القفجاق للاسلام حوالى منتصف القرن السابع الهجرى . وسلاطين مغول ايران قرب نهاية ذلك القرن ، وسلاطين مغول آسيا الوسطى في بداية الربع الثانى من القرن التالى .

ولم يكن اعتناق المغول في هذه الممالك للاسلام أمرا شكليا أو شيئا يهدفون من ورائه تحقيق مصالح سياسية ، بل كانوا مخلصين في اسلامهم فرحين بايمانهم متحمسين لدينهم الجديد ، ومن البداية طبقوا مبادئ الشريعة الاسلامية وتخلوا عن اليساق الذى أصدره لهم جنكيزخان وأدوا فرائض الاسلام وشعائره على أحسن وجه ، فصاموا وصلوا وحجوا وأدوا الزكاة وظهرت عنده المذاهب الفقهية وتلقبوا بالقبائل المسلمين وتسموا بأسمائهم وخطبوا للخلفاء الراشدين (في ايران) وللخلفاء العباسيين (في بلاد القفجاق) ، وفتحوا قصورهم وبيوتهم لعلماء الاسلام واستقدموا وعقدوا لهم مجالس العلم والدين تحت أعينهم وبمشاركتهم في بعض الأحيان ، وأعلوا من شأن علماء الاسلام عامة حتى أن كلمة هؤلاء العلماء كانت تعلو على كلمة سلاطين المغول في كثير من الأحيان ، وحتى كان هؤلاء السلاطين لا يتورعون

عن الجلوس أمام هؤلاء العلماء والمشايخ جلوس التلميذ أمام أستاذه، لا ينبسون ببنت شفة ولا يحركون ساكنا احتراما واكبارا للشيخ ، بل كان الواحد من أمراء المغول يمسك بأذن نفسه اذا جلس أمام أحد مشايخ الاسلام ، وهى علامة الخضوع التى كان يظهرها المغول للوكهم وسلطينهم ، وكانوا يخلعون عليهم ملابسهم الخاصة ، وهو أمر كان سلاطين المغول لا يفعلونه الا لمن ارادوا المبالغة فى تكريمه وتعظيمه .

وقد ازدهرت الحضارة الاسلامية فى عهد هؤلاء المغول المسلمين وكثرت المدارس والجوامع والزوايا والقباب والمراسد التى أنشأها هؤلاء المغول ، ونهضت علوم الدين وازدهر نسخ الكتب وتقدمت الفنون والصناعات نهضة كبرى ، وظهر فى عهدهم العديد من العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخين المشهورين ، وبرزت مراكز عديدة للثقافة الاسلامية سواء فى المدن القديمة أو فى المدن الجديدة والعديدة التى أنشئوها حتى قال بعض الكتاب أن آثارهم فى التعمير لا تقل عن آثارهم فى التدمير بل تزيد عليها ، وحتى المدن التى كانت قد دمرت أعيد بناؤها وعاد اليها ما بقى من سكانها ، وارتادها العلماء وطلاب العلم مرة أخرى ، وتوافد اليها التجار من شتى أنحاء العالم الاسلامى بعد أن وفر المغول لهم الحماية والأمان الذى كان هؤلاء التجار وأولئك العلماء قد افتقدوه نتيجة للحروب المتوالية والاضطرابات السياسية التى كان يزخر بها المشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، مما أدى الى ازدهار الحضارة الاسلامية ورفقها ، وهى صفحة يجب أن تضاف الى صفحات الاسلام والمغول المسلمين السابقة ، ولا شك أنها صفحات ناصعة مضيئة آن الأوان كى تظهر للناس وتبرز أمامهم حتى يتعرفوا على جانب هام من جوانب عظمة هذا الدين من خلال هذه الدراسة التى قمنا بها عن انتشاره بين المغول .



مَلَّاحِقُ الْكِتَابِ

خَوَانِينَ الْمَغُولِ وَسُلَاطِينِهِمْ

١ — خَوَانِينَ الْمَغُولِ الْعِظَامِ

(فِي بِلَادِ الصِّينِ وَالْخَطَا وَحُكَّامِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْمَغُولِيَّةِ كُلِّهَا)

- ١ — جَنْكِيزْخَانُ : ٦٠٤ — ٦٢٤ هـ / ١٢٠٧ — ١٢٧٧ م .
- ٢ — أُوْكَتَايْ خَانُ بْنُ جَنْكِيزْخَانُ : ٦٢٦ — ٦٣٩ هـ / ١٢٢٩ — ١٢٤١ م .
تُورْجِينُ بْنُ جَنْكِيزْخَانُ (نَائِبُ الْخَانِ) : ٦٣٩ — ٦٤٤ هـ / ١٢٤١ — ١٢٤٦ م .
- ٣ — كِيُوكْ خَانُ بْنُ أُوْكَتَايْ : ٦٤٤ — ٦٤٧ هـ / ١٢٤٧ — ١٢٤٩ م .
- ٤ — مَنكُوْ خَانُ بْنُ تُوْلَى بْنِ جَنْكِيزْخَانُ : ٦٤٩ — ٦٥٨ هـ / ١٢٥١ — ١٢٥٩ م .
- ٥ — قُوبِيلَايْ خَانُ بْنُ تُوْلَى بْنِ جَنْكِيزْخَانُ : ٦٥٨ — ٦٩٣ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٩٤ م .

٢ — خَوَانِينَ مَغُولِ الْقَبِيلَةِ الْذَهَبِيَّةِ فِي بِلَادِ الْقَقْجَاقِ

- ١ — بَاطُو بْنُ جُوجِيْ بْنِ جَنْكِيزْخَانُ : ٦٢٤ — ٦٥٤ هـ / ١٢٢٧ — ١٢٥٦ م .
- ٢ — صَرْتَقُ بْنُ بَاطُو بْنِ جُوجِيْ : ٦٥٤ / ١٢٥٦ م .
- ٣ — بَرَكَةُ بْنُ جُوجِيْ بْنِ جَنْكِيزْخَانُ : ٦٥٤ — ٦٦٥ هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٦ م .
- ٤ — مَنكُوْ تَمَرُ (مَنجُوْ تَيْمُور) بْنُ طَغَانُ بْنُ بَاطُو : ٦٦٥ — ٦٧٩ هـ / ١٢٦٧ — ١٢٨٠ م .
- ٥ — تَدَانُ (تُوْدَى) مَنكُوْ خَانُ بْنُ طَغَانُ بْنُ بَاطُو : ٦٧٩ — ٦٨٦ هـ / ١٢٨٠ — ١٢٨٧ م .
- ٦ — تَلَابُغَا بْنُ طَارْطُوْ بْنِ طَغَانُ : ٦٨٦ — ٦٩٠ هـ / ١٢٨٧ — ١٢٩١ م .
- ٧ — طَقْطَايْ بْنُ مَنكُوْ تَمَرُ بْنُ طَغَانُ : ٦٩٠ — ٧١٢ هـ / ١٢٩١ — ١٣١٢ م .

- ٨ — محمد أوزبك خان بن طغرلشاه بن منكوتر : ٧١٢ — ٧٤٢ هـ /
١٣١٣ — ١٣٤٢ م .
- ٩ — محمود جاني بك بن أوزبك خان : ٧٤٢ — ٧٥٨ هـ / ١٣٤٢ — ١٣٥٧ م
- ١٠ — محمد بردى بك بن أوزبك خان : ٧٥٨ — ٧٦٢ هـ / ١٣٥٧ — ١٣٦١ م .
- ١١ — متغلبون من نفس الأسرة : ٧٦٢ — ٧٨٢ هـ / ١٢٦١ — ١٣٨٠ م .
- ١٢ — طقتمش بن بردى بك بن جاني بك بن أوزبك خان : ٧٨٢ — ٧٩٨ هـ /
١٣٨٠ — ١٣٩٥ م .

ثم فترة تغلب تيمورلنك على البلاد ثم عودتها الى أسرة القبيلة الذهبية
حتى سقوطها عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢ م .

٣ — ايلخانات ايران

- ١ — هولاكو بن تولى بن جنكيزخان : ٦٥٤ — ٦٦٤ هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٥ م .
- ٢ — ابغا (أباقا) بن هولاكو : ٦٦٤ — ٦٨٠ هـ / ١٢٦٥ — ١٢٨١ م .
- ٣ — احمد تكودار بن هولاكو : ٦٨٠ — ٦٨٣ هـ / ١٢٨١ — ١٢٨٤ م .
- ٤ — ارغون بن ابغا بن هولاكو : ٦٨٣ — ٦٩٠ هـ / ١٢٨٤ — ١٢٩١ م .
- ٥ — كيخاتو بن ابغا بن هولاكو : ٦٩٠ — ٦٩٤ هـ / ١٢٩١ — ١٢٩٥ م .
- ٦ — بايدو بن طرغاي بن هولاكو : ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م .
- ٧ — محمود غازان بن ارغون بن ابغا : ٦٩٤ — ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م
- ٨ — اولجايتو محمد خدابنده بن ارغون : ٧٠٣ — ٧١٦ هـ / ١٣٠٤ — ١٣١٦ م
- ٩ — ابو سعيد بن اولجايتو محمد خدابنده : ٧١٦ — ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ —
١٣٣٥ م .

ثم انقسمت البلاد وقام في حكمها متغلبون من المغول حتى استولى عليها
تيمورلنك عام ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م ثم انقسمت بعده بين أمراء من المغول
وغيرهم حتى قامت فيها الدولة الصفوية في بداية القرن السادس عشر
للميلاد .

٤ — خوانين المغول في آسيا الوسطى

(بلاد ما وراء النهر وتركستان)

- ١ — جغتای بن جنکيزخان : ٦٢٤ — ٦٤٠ هـ / ١٢٢٧ — ١٢٤٢ م .
- ٢ — قرا هولاکو بن موتوغان بن جغتای : ٦٤٠ — ٦٤٥ هـ / ١٢٤٢ — ١٢٤٧ م ، ٦٥٠ — ٦٥٩ هـ / ١٢٥٢ — ١٢٦١ م .
- ٣ — ييسو مانجو بن جغتای : ٦٤٥ — ٦٥٠ هـ / ١٢٤٢ — ١٢٥٢ م .
- ٤ — الغو بن بيدار بن جغتای : ٦٥٩ — ٦٤٤ هـ / ١٢٦١ — ١٢٦٥ م .
- ٥ — مبارك شاه بن قرا هولاکو : ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م .
- ٦ — براق خان بن ييسون دوا حفيد جغتای : ٦٦٤ — ٦٦٨ هـ / ١٢٦٥ — ١٢٧٠ م .
- ٧ — احفاد آخرون لجغتای ومتغلبون آخرون : ٦٦٨ — ٧٠٨ هـ / ١٢٧٠ — ١٣٠٨ م .
- ٨ — تاليتاوة (تالقو) بن قادامی بن بوری بن موتوغان بن جغتای : ٧٠٨ — ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م .
- ٩ — اسان بغا (ييسون بوغا) بن دوا خان بن براق خان : ٧٠٩ — ٧١٨ هـ / ١٣٠٩ — ١٣١٨ م .
- ١٠ — كبك خان بن دوا خان بن براق خان : ٧١٨ — ٧٢٦ هـ / ١٣١٨ — ١٣٢٦ م .
- ١١ — الجكدای بن دوا خان بن براق خان : ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م .
- ١٢ — محمد طرما شیرين بن دوا خان بن براق خان : ٧٢٦ — ٧٣٤ هـ / ١٣٢٦ — ١٣٣٤ م .
- ١٣ — جنکشی بن ابوکوا بن دوا خان بن براق خان : ٧٣٤ — ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ — ١٣٣٥ م .
- ١٤ — بوزن بن دوا تیمور بن دوا خان بن براق خان : ٧٣٥ — ٧٣٩ هـ / ١٣٣٥ — ١٣٣٨ م .

- ١٥ — ييسون تيمور بن أبوكوا بن دوا خان بن براق : ٧٣٩ — ٧٤٣ هـ /
١٣٣٨ — ١٣٤٢ م .
- ١٦ — خليل بن ياساور بن دوا خان بن براق خان : ٧٤٣ — ٧٤٤ هـ /
١٣٤٢ — ١٣٤٣ م .
- ١٧ — أربع سلاطين آخرين من بيت دوا بن براق خان : ٧٤٤ — ٧٤٨ هـ /
١٣٤٣ — ١٣٤٧ م .
- ١٨ — تفلق تيمور خان بن أمال خوجا بن دوا خان بن براق خان : ٧٤٨ —
٧٦٥ هـ / ١٣٤٧ — ١٣٦٣ م .
- ثم متغلبون ثم قام حكم تيمورلنك (٧٧١ — ٨٠٨ هـ / ١٣٧٠ — ١٤٠٥ م)
وأولاده من بعده وبعض أمراء المغول الآخرين حتى سقطت تركستان
في يد الصين ٤ وبلاد ما وراء النهر في يد الروس .
-

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

١ — المصادر العربية القديمة المطبوعة والمخطوطة

ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) :

— الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، دار صادر ، بيروت سنة ١٩٧٩ م .

ابن أبيك الدوادري : ابو بكر بن عبد الله

— كنز الدرر وجامع الفرر ، الجزء السابع المعروف باسم الدر المطلوب
في أخبار بني أيوب ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ،
القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .

— كنز الدرر وجامع الفرر ، الجزء التاسع المعروف باسم الدر الفاخر
في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، مكتبة الخانجي
بالقاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

أبو شامة المقدسي الشافعي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) : شهاب الدين أبو محمد
عبد الرحمن بن اسماعيل

— تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف بالذيل
على الروضتين . نشر السيد عزت العطار الحسيني ، الطبعة
الأولى ، ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م ، القاهرة .

أبو المحاسن بن تغري بردي (٨١٣ — ٨٧٤ هـ / ١٤١٠ — ١٤٦٩ م) : جمال
الدين أبو المحاسن يوسف

— النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ٧ — ١٠ سلسلة تراثنا ،
طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر .

أبو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م) :

— تاريخه ، ج ٢ ، ٣ ، ٤ ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :

— تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الشهير باسم رحلة
ابن بطوطة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بدون تاريخ .

البيرونى (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد

— الآثار الباقية عن القرون الخالية ، لبيزج سنة ١٩٢٣ .

ابن حبيب (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر

— تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه ، نشر وتحقيق د. محمد محمد

أمين ، مراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ م .

ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) : شهاب الدين أحمد

— الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ٣ . تحقيق محمد سيد جاد

الحق ، بدون تاريخ ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

— العبر وديوان المبتدأ والخبر الشهير باسم تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ،

دار الكتاب اللبنانى ، بيروت سنة ١٩٦٨ م .

الديار بكرى (ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م) :

— الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ، القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ .

رشيد الدين فضل الله الهمدانى (٦٤٥ — ٧١٨ هـ / ١٢٤٧ — ١٣١٩ م) :

— جامع التواريخ م ٢ ج ١ ، م ٢ ج ٢ ، ترجمه عن الفارسية محمد صادق

نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد ، طبعة وزارة الثقافة بمصر ،
بدون تاريخ ..

الرمزى (م . م .) :

— تلفيق الأخبار وتلفيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ،

ج ١ ، ٢ طبع أورنبورغ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٠٨ م .

السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن

— حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ج ٢ تحقيق محمد أبو الفضل

ابراهيم ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ ، دار احياء الكتب العربية
بالقاهرة .

شرف خان البدليسى :

— شرفنامه ج ٢ ، ترجمه عن الفارسية محمد على عونى ، راجعه

يحيى الخشاب ، نشر دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٦٢ .

- الشوكاني** (ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) : محمد بن علي
— البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج ٢ الطبعة الأولى
سنة ١٣٤٨ هـ ، مطبعة السعادة بالقاهرة .
- ابن العبري** (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) : غريغوريوس أبو الفرج بن هارون
الطبيب الملطي المعروف بابن العبري .
— تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت سنة ١٨٩٠ م .
عرب شاه (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله
الدمشقي الأنصاري المعروف بعرب شاه .
— عجائب المقدور في أخبار تيمور ، طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ .
- العيني** (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٠ م) :
— عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ج ٢٢ ، ج ٢٣ ، ق ١ مخطوط
بدار الكتب المصرية برقم (٨٢٠٣ ح) .
- العمري** (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) : ابن فضل الله
— مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج ١٦ ق ٢ ، ٣ مخطوط بدار
الكتب المصرية برقم (٥٥٩ معارف عامة) .
— التعريف بفن المصطلح الشريف ، القاهرة ١٩١٠ م .
- ابن الفوطي** (٦٤٢ — ٧٢٣ هـ / ١٢٤٤ — ١٣٢٣ م) : كمال الدين عبد الرازق
أحمد الشيباني بن الفوطي
— الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، المكتبة
العربية ، بغداد سنة ١٣٥١ هـ .
- ابن قتيبة الدينوري** (٢١٣ — ٢٧٦ هـ / ٨٢٨ — ٨٨٩ م) : أبو محمد عبد الله
بن مسلم .
— الامامة والسياسة ، المعروف بتاريخ الخلفاء ، ج ١ ، الطبعة
الآخرة ، القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- القلقشندي** (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
— صبح الأعشى ، ج ٣ ، ٤ ، ٧ ، طبع مصر ، بدون تاريخ .
- ابن قيزاوغلي** (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) شرف الدين أبو المظفر يوسف .
— ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ج ١٥ ، ١٧ ، مخطوط بدار
الكتب المصرية برقم (١٥١٦ تاريخ) .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي :

— البداية والنهاية ، ج ١٣ ، مطبعة السعادة بمصر ، بدون تاريخ .

المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : تقى الدين أحمد بن علي

— السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ تحقيق د. محمد مصطفى زيادة القاهرة ، ١٩٣٦ ، ج ١ ق ٣ القاهرة سنة ١٩٣٩ .

— السلوك ج ٢ ق ١ ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة سنة ١٩٤٢ .

— الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، مصر سنة ١٨٩٥م .

مجهول :

— كتاب في التاريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٣٠ .

الناصرى (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٥م) : أحمد بن خالد

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، ج ٢ ، طبع مصر ، بدون تاريخ .

النظامى العروضى السمرقندى :

جهاز مقاله (المقالات الأربع) نقله عن الفارسية عبد الوهاب عزام ، ويحيى الخشاب ، الطبعة الاولى سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

النويرى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٢٩م) :

— نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥٤٩ معارف عامة) .

ابن الوردى (٧٤٩هـ / ١٣٣٦م) :

— تاريخه ج ٢ ، طبع مصر سنة ١٢٨٥هـ .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٣٠م) : شهاب الدين أبو عبد الله

معجم البلدان ، ج ٤ ، دار صادر ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ .

٢ — المراجع العربية والمدرسة

إبراهيم أحمد رزقانة (دكتور) :

— بعض مشكلات الجغرافيا السياسية ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٣م
دار النهضة العربية بالقاهرة .

أبري (أ . ج .) :

— تراث فارس ، عربه عن الانجليزية د. محمد كفاي ، د. أحمد
الساداتي ، د. السيد يعقوب بكر ، د. محمد صقر خفاجه ، د.
أحمد عيسى ، د. يحيى الخشاب ، دار احياء الكتب العربية ،
مصر سنة ١٩٥٩ .

أرنولد (توماس) :

— الدعوة الى الاسلام ، عربه من الانجليزية د. حسن إبراهيم حسن،
د. عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى طبع ونشر مكتبة
النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠م .

بارتولد :

— تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، عربه عن الانجليزية د. أحمد
السعيد سليمان ، طبع ونشر مكتبة الأتجلو المصرية ، القاهرة سنة
١٩٦٠ .

باسيليوس خرباوى :

— تاريخ روسيا منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر ، طبع نيويورك عام
١٩١١م .

براون (ادوارد جرانييل) :

— تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى، تعريب د. إبراهيم
أمين الشواربى ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م

بطروشوفسكى :

— الاسلام فى ايران ، تعريب د. السباعى محمد السباعى ، دار
الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٩٨٢ م .

حسين على الرفاعى (دكتور) :

— الاسلام فى الاتحاد السوفييتى للأستاذين الكسندر بننغستون وشانتال لوميرسيه ، مجلة مركز البحوث بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض ، المحرم سنة ١٤٠٤هـ / أكتوبر ١٩٨٣ م .

ستودارد الأمريكى (لوثروب) :

— حاضر العالم الاسلامى ، تعريب الأستاذ عجاج نويهض ، به فصول وتعليقات للأستاذ شبيب أرسلان ، { أجزاء ، القاهرة سنة ١٣٥٢ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

— العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥ م - دار النهضة العربية ، القاهرة .

السيد الباز العرينى (دكتور) :

— الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٦٣ م .

عبد العزيز جنكيزخان البكورى :

— تركستان قلب آسيا ، طبع ونشر الجمعية الخيرية الباكستانية عام ١٩٤٥ م .

على حسنى الخربوطلى (دكتور) :

— غروب الخلافة الاسلامية ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بدون تاريخ .

فامبرى (ارمنيوس) :

— تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، تعريب د. أحمد محمود الساداتى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥ م .

فهمى هويدى :

— الاسلام فى الصين ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٣ ، شعبان / رمضان سنة ١٤٠١هـ / يولية ١٩٨١ م .

نؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) :

— المغول فى التاريخ ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٨٠ .

فايد حماد عاشور (دكتور) :

— العلاقات السياسية بين الممالك والمغول فى الدولة المملوكية الاولى ،
تقديم ومراجعة الدكتور جوزيف نسيم ، دار المعارف بمصر سنة
١٩٧٦ .

محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

— دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٠ م .
— دولة بنى قلاوون فى مصر ، دار الفكر العربى ، سنة ١٩٤٧ .

محمد الخضرى :

— تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ، المكتبة التجارية الكبرى
القاهرة ١٩٧٠ .

محمد عبد المنعم الشرقاوى وآخرون :

— أفغانستان ، مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية ، الطبعة الاولى
سنة ١٤٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

محمد يوسف الكاندهلوى : (١٣٣٥ — ١٣٨٤ هـ / ١٩١٧ — ١٩٦٥ م)

— حياة الصحابة ، ج ١ ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية سنة
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

مصطفى طه بدر (دكتور) :

— مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، دار الفكر العربى ، بمصر ،
بدون تاريخ .

ميور (السير ولیم) :

— تاريخ دولة الممالك فى مصر ، تعريب محمود عابدين ، وسليم حسن
الطبعة الاولى سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م ، مطبعة المغارف بمصر .

هايد (ف) :

— تاريخ التجارة فى الشرق الادنى فى العصور الوسطى ج ١ ، عربيه
عن الفرنسية أحمد محمد رضا ، مراجعة وتقديم د. عز الدين
نوده ، الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٥ م .

٣ — المراجع الأجنبية

Barthold :

- Turkestan down the Mongol Invasion, London, 1928.

Berge (J. K.) :

- The Bektashi Order of Derwishes, London, 1937.

Howorth (Henry F.S.A.) :

- History of the Mongols from the 9th to the 19 century, part 2, (London 1880), Part 3, (London 1888).

Lea (Henry Charles) :

- The Moriscos of Spain, London, 1901.
- A history of the inquisition of Spain, London, 1906.

Malcolm :

- A history of Persia, vol. 1, London, 1929.

Prawdin (Michael) :

- The Mongol Empire, London, 1940.

Saunders (J. J.) :

- The history of the Mongol Conquests, London, 1971.

Scott (C.p.) :

- A history of the Morish Empire, in Europe, v. 2, London, 1904.

Zambaur :

- Manuel de Genealogie et de Chronologie pour L'Histoire de L'Islam. Germany, 1927.

The Cambridge History of Iran, v. 5, (Cambridge, 1968).

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد تاريخي : المغول وغزوهم لبلاد المشرق الاسلامي	١٣
الفصل الأول	
تنافس الأديان نحو اكتساب المغول	٢٩ — ٦٠
١) العوامل التي أدت الى التنافس بين الأديان الثلاثة :	٣٠
٢ — جهود بعض الوزراء والموظفين والكهان من المسيحيين والبوذيين	٣١
٣ — نشاط البابوية وملوك أوروبا	٣٨
(ب) عوامل فشل النصرانية والبوذية في اكتساب المغول	٤١
٥١	
الفصل الثاني	
عوامل انتشار الاسلام بين المغول	٦١ — ١٠١
١ — أحوال المغول الدينية والحضارية	٦٢
٢ — أثر الزوجات المسلمات	٦٦
٣ — تأثير الوزراء والموظفين المسلمين	٧٠
٤ — تأثير السكان المحليين	٧٩
٥ — تأثير الطرق الصوفية	٨٤
٦ — أثر التجارة والتجار في اسلام المغول	٩٧
الفصل الثالث	
تحول مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق الى الاسلام	١٠٣ — ١٧٤
١ — موقع مملكة مغول القفجاق وحدودها وشعبوها	١٠٤
٢ — مرحلة التمهيد والتهيئة لتحول مغول القفجاق الى الاسلام :	١١٠
باطو خان وابنه صرتق (١١١ —) ، بركة خان واسلامه (١١٢ — ١١٤) . منكوتمر (١١٤ — ١١٨) . تيدان منكوتمر واسلامه (١١٨ — ١٢٠) . تولايتا وطقطاي (١٢٠ — ١٢٢) .	

الموضوع	الصفحة
٣ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول بلاد القفجاق :	١٢٣
محمد أوزبك خان واسلامه (١٢٣ — ١٢٧) . جلال الدين محمود جاني بك (١٢٧ — ١٢٨) . محمد بردى بك خان (١٢٨) . طقتمش خان (١٢٨ — ١٢٩) .	
٤ — عصر الجهاد ضد صليبية الروس ومدى انتشار الاسلام في هذا العصر في سيبيريا وبين القرغيز والقزاق .	١٣٣
٥ — مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول القفجاق :	١٤٦
التسمى بالأسماء الاسلامية واتخاذ الألقاب الاسلامية (١٤٦ — ١٤٧) . أداء الفرائض الاسلامية (١٤٨ — ١٤٩) . تطبيق الشريعة الاسلامية (١٤٩) . الاحتفال بالأعياد الاسلامية (١٥٠ — ١٥١) . احترام العلماء والفهاء والاغداق عليهم (١٥١ — ١٥٣) . استقدام العلماء (١٥٤) . انشاء الزوايا والمساجد والمدارس (١٥٥ — ١٥٦) . ازدهار الثقافة الاسلامية والمذاهب الفقهية (١٥٦ — ١٥٨) . انتشار مراكز الثقافة الاسلامية (١٥٨ — ١٦٤) . قيام المغول بواجب الجهاد (١٦٥ — ١٦٦) . التحالف مع سلاطين مصر (١٦٧ — ١٧٣) .	

الفصل الرابع

١٧٥ — ٢٢٦	تحول مغول ايران الى الاسلام
١٧٦	١ — مرحلة التمهيد والتهيئة لتحول مغول ايران الى الاسلام : هولاكو وغزو بغداد (١٧٦ — ١٧٧) . اسلام تكودار بن هولاكو (١٧٧ — ١٨٣) . أرغون بن أبغا واضطهاد المسلمين (١٨٤ — ١٨٥) . كيخاتو وبايدو ومداراة المسلمين (١٨٦ — ١٨٧) .
١٨٧	٢ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول ايران : اسلام غازان بن أرغون (١٨٧ — ١٨٩) . مناقشة حقيقة اسلام غازان والرد على ما وجهه اليه من اتهامات (١٨٩ — ٢٠٧) .
٢٠٨	٣ — مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول ايران : اتخاذ الألقاب والأسماء العربية (٢٠٨ — ٢٠٩) . المحافظة على أداء الشعائر الاسلامية (٢٠٩) . انعقاد مجالس العلم برعاية الخوانين والخواتين

الموضوع الصفحة

(٢٠٩ — ٢١٠) . ذكر أسماء الخلفاء الراشدين
على العملة والخطبة (٢١١) . تشجيع أحد سلاطين
المغول (٢١٢ — ٢١٤) . تعلم اللغة العربية
(٢١٥) . احترام العلماء والفقهاء والصوفية (٢١٦ —
٢١٧) . الاكثار من بناء المنشآت الدينية والعلمية
الاسلامية (٢١٨ — ٢٢١) . الحرص على تأدية فريضة
الحج (٢٢١ — ٢٢٢) . التصالح مع مصر (٢٢٣ —
٢٢٦) .

الفصل الخامس

- تحول مغول آسيا الوسطى الى الاسلام** ٢٢٧ — ٢٥٨
- المقصود بآسيا الوسطى وعوامل تأخر اسلام حكامها
٢٢٧ وسكانها من المغول
- ١ — فترة التمهيد والتهيئة لتحول مغول آسيا الوسطى الى
الاسلام : ٢٣١
- جفطاي واضطهاده للمسلمين (٢٣١ — ٢٣٢) .
تقدم الحركة الاسلامية واعتناق مبارك شاه للاسلام
(٢٣٢ — ٢٣٣) . الصراع بين البوذية والاسلام
في عهود خلفاء مبارك شاه (٢٣٤ — ٢٣٦) .
- ٢ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول آسيا
الوسطى : ٢٣٦
- تحول طرما شيرين خان للاسلام (٢٣٦ — ٢٣٨) .
فترة صراع بين البوذية والمسيحية وبين الاسلام
(٢٣٨ — ٢٣٩) . اسلام السلطان خليل وقضائه
على صحوه البوذية والمسيحية (٢٣٩ — ٢٤١) .
تغلق تيمور خان واسلامه (٢٤١ — ٢٤٣) . تيمورلنك
وتوحيده لممالك المغول ونشره الاسلام بين البدو من
المغول (٢٤٣ — ٢٤٦) . خلفاء تيمورلنك ونشرهم
للالاسلام (٢٤٧ — ٢٤٨) .
- ٣ — مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول آسيا الوسطى : ٢٤٩
- الحرص على اداء الشعائر الاسلامية (٢٥٠) .
تطبيق الشريعة الاسلامية (٢٥٠) . والتبرك بالاولياء
والصالحين (٢٥١) . التواضع الشديد للعلماء
والفقهاء والصوفية (٢٥١) . تشجيع الثقافة
والفقهاء والصوفية (٢٥١) . نشر الثقافة

الموضوع الصفحة

الاسلامية (٢٥٣ — ٢٥٤) . الاكثار من بناء المساجد
والزوايا والمدارس (٢٥٤ — ٢٥٧) .

الفصل السادس

الاسلام ومفول الصين والخطا ٢٥٩ — ٢٦٨

استعانة الخوانين العظام ببعض المسلمين في الجيش والادارة
والوظائف العليا (٢٥٩ — ٢٦١) . السيد الأجل وأثره
في نشر الاسلام (٢٦١ — ٢٦٣) . قلة عدد المسلمين في
بلاد الخطا (٢٦٥ — ٢٦٦) . عدم اعتناق الخوانين العظام
للالسلام (٢٦٧ — ٢٦٨) .

الخاتمة ٢٦٩
الملاحق ٢٧٣
المصادر والمراجع ٧٧ — ٢٨٤

مطبعة الجبلاوي
٩٠٤ شارع النزهة البرلاقية - يمشلا

رقم الايداع بدار الكتب ٢٩٣٢ / ١٩٨٦

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com